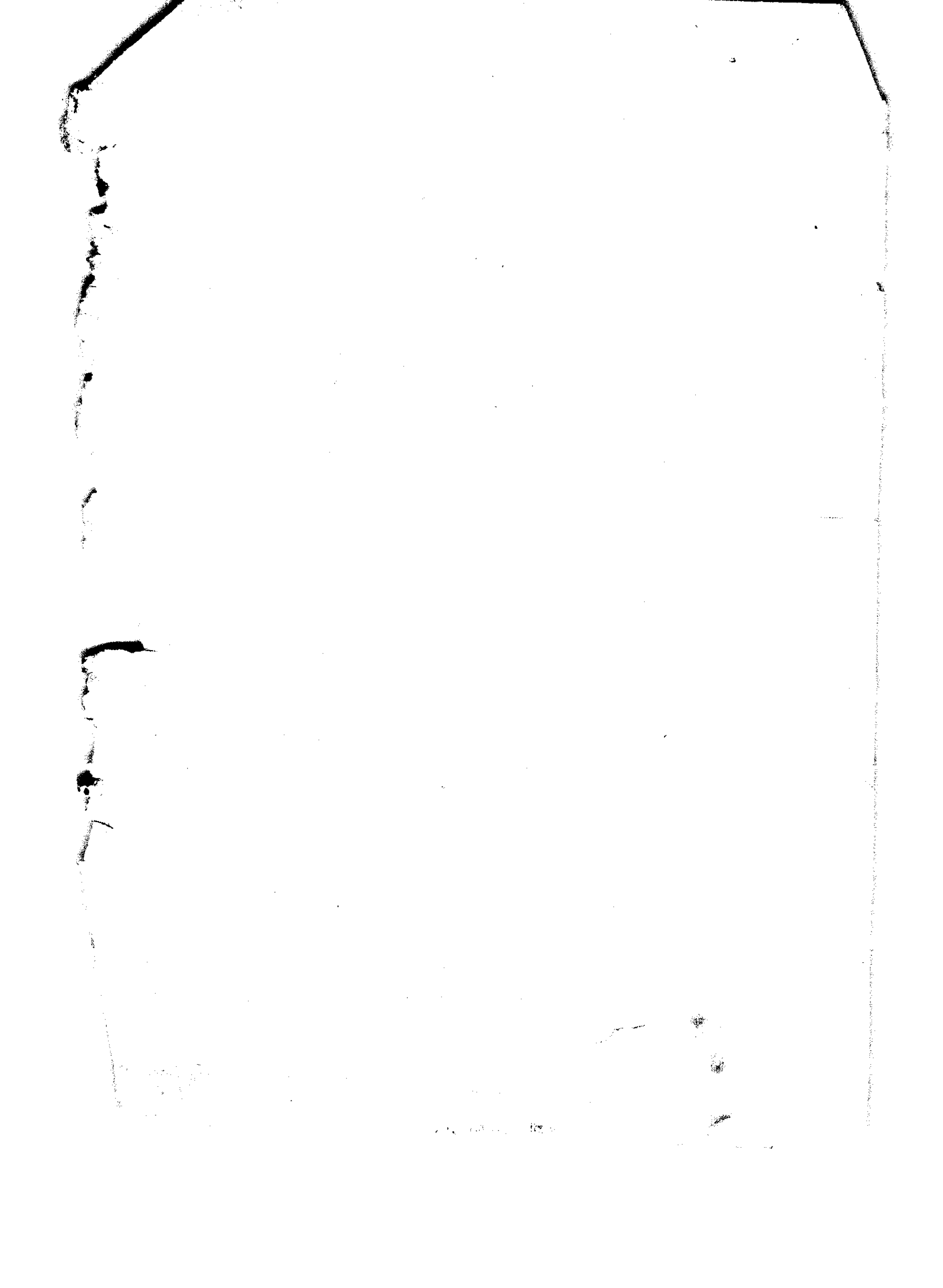
وراء الشمس



بقلم

حسن محسّب

دار الهلال



١ ـ النجوم فى عز الظهر

حاصرت زوابع التراب المدينة .. وتصاعدت كثيفة ، وجعلت الشمس مجرد بقعة شاحبة مهزومة وسط إظلام معتقل القلعة ..

وفى هذه اللحظة العاصفة ، بدأوا فى تنفيذ المشهد الأول من عملية التعذيب ، بدقة ومهارة ــ كما هو معروف عنهم .. أدار بعضهم شريطا مسجلا عليه أغنية طويلة لأم كلثوم .. ورفع الصوت حتى اطمأنوا إلى أن أهالى الحى يسمعون الآن الآهات المتوهجة فى أغنية « أنت عمرى » .. من كل الجهات التى تخضع مباشرة لإرسال مكبرات الصوت المعلقة فى أماكن خفية بأعلى السور الرمادى المرتفع لدرجة لا تطاولها أعناق أو نظرات السائرين بالقرب من القلعة ..

ثم .. وبتلقائية ، قام البعض الآخر بربط أيدى وأرجل الشبان الثلاثة : عصام ــ وليد ــ يوسف ، فى أعلى الحائط المصنوع من السلك الصلب .. وحرصوا على ترك مسافة معقولة بين كل منهم ، كما حرصوا ــ بنفس العناية ــ

• هامش : • أسماء الشخصيات فى الرواية ، من الخيال .. وإن حدث أى تشابه ، فهو مجرد مصادفة « المؤلف »

على أن تـكون المسافة بين قدمى وذراعى كل مسجون واسعة لأقصى درجة.. بشرط أن يتمزق الواحد منهم فى حالة واحدة .. هى : أن يتململ أو يحاول الفكاك من قيوده ، ولذلك فلم يكن أمام « الأولاد الثلاثة » غير أن يلتصقوا بالأسلاك الصلبة بحكم القيود التى تشل حركة الأذرع والأقدام تماما . . وكان هذا هو المشهد الثانى من العملية المخيفة .

وفى اللحظة التالية ، وبمنتهى اليقظة ، حان وقت المشهد الثالث . . وهذه مهمة ممتعة لأقصى حد ، يمارسها « الجعفرى» بشغف خاص ، فهو . . وبمجرد أن يعطيه جميع الرتب الأدنى « التمام » بأن كل شىء على ما يرام « يا فندم » .. حتى يومىء برأسه ، ويتحرك بخطوات محسوبة بدقة شديدة ، محدثا صوتا مكتوما على الأسفلت بحذائه الأسود المفلطح اللامع ، محدقا بعينيه فى « المتهمين الثلاثة » المقيدين إلى حائط السلك الصلب ، ودائما يخطر بباله ، أنهم أشبه بالضفادع التى تلصق أذرعتها وأقدامها بدبابيس الأبرة فوق الورق المقوى تمهيداً لتشريحها . . وعادة كان « الجعفرى » يضحك — فى سره طبعاً — عندما يتذكر أن زوجته ـ بعد أن وصف لها المشهد المثير ، فى إحدى لحظات الاسترخاء فى الفراش ـ قالت :

— أوه .. إنك تجعلهم كالفراشات المسكينة بعد تحنيطها ! ..

ولحظتها عنفها لعدم اهتمامها — دائماً — باختيار الـكلمات المناسبة ، وأكد لها :

— كالضفادع . . قلت . . وليس كالفراشات . . هناك فرق كبير بين هذه وتلك .. !

ثم قبلها معتذراً عن حدته ، فهو لا يحتمل غضبها ولا يقصد أبدا إحراجها ! ..

تأكد الجعفرى — إذن من أن « الأولاد » قد قيدوا كما أمر ، وأثنى — فى سره أيضاً — على معاونيه الأوفياء ، ثم صاح — إبراء لذمته :

— هيه .. هذه فرصة العمر أمنحها لكم .. وأنا أعرف أن المسئولين لو عرفوا بالأمر سيغضبون منى .. أتسمعون ! ..

وصمت لحظة ، ظل خلالها يحدق فى وجوه : يوسف وعصام ، ووليد .. ثم قال بصوت حاد النبرات :

— من يعترف منكم ، سأفك قيوده فوراً .. هه .. وأكرر — لآخر مرة — إنها فرصة ستندمون عليها ما بقيتم أحياء ! ..

وصمت « الجعفرى » لحظة أطول ، وظلت عيناه معلقتين بشفاه « الأولاد » واحداً واحداً . . وتمشى قليلا .. وتوقف أمام الواحد منهم بعد الآخر ، وتعمد أن يلسع عيونهم بعينيه القاتمتين كعينى حيوان مفترس ، لكن الصمت طال . .وانتظاره طال أكثر واختلط غضبه برنين صوت «أم كلثوم» ورفع يده ، كمن يعطى إشارة اقتحام موقع حصين لعدو مخيف ، وبحركة من سبابته تحرك أعوانه و . .

فى جزء من الثانية ، ارتفع صوت الغناء . . صار عاليا جداً .. مزعجا.. وفى نفس اللحظة ارتفعت الكرابيج وشقت الهواء محدثة صفيرا حادا .. وهبطت .. ومزقت جلد « الأولاد » فى حركة مباغتة . . رغم توقعها .. وجمدت الدماء فى عروقهم المضطربة وارتعشت ضلوعهم البارزة تحت الجلد العارى تماما .. وانكمشت قلوبهم من الرعب .. وصرخوا !

و ::: ::: ...

تهلل وجه « الجعفرى » وأشعل لنفسه سيجارة ، أخذ يدخنها بتلذذ واضح ، وأحس بالنشوة تسكر دماءه ، فهز رأسه مع إيقاعات الأغنية ، وأيقن أن المارة خارج أسوار القلعة فرحون الآن بالآهات التى تحاصرهم من كل الجهات عبر مكبرات الصوت . وعاد يتابع الكرابيج وهى تشرخ الهواء بصوت مسموع .. ثم وهى تمزق ظهور « الأولاد » وتنثر دماءهم فى كل اتجاه .. وتجعل عواءهم يعلو .. لكنه يذوب فى آهات الأغنية وتهليل المعجبين ! ..

طال انتظار « الجعفرى » .. كانت شفاه « الأولاد »...أفواههم ، على آخر مدى .. مفتوحة .. تزعق .. لكنها لا تبوح باعتراف ، يشفى غليل « الجعفرى » ويجعل المسئولين يرضون عنه ، كما عودهم فى السنوات الأخيرة . فكم من القضايا حسمت فى ساعات أو أيام ، بفضل جهوده الخاصة فى انتزاع الاعترافات كاملة ، بل وزيادة ، وموقعاً عليها بخط واضح وببصمات الأصابع العشر ، هكذا كان « الجعفرى » منذ اكتشفوا مواهبه الفذة ، وعهدوا إليه بأعمالهم الخاصة ، لكنه ... ولأول مرة ... يفاجأ الآن بثلاثة — دفعة واحدة — يرفضون حتى الحديث معه ! ..

... ...

... ...

لقد بدأ معهم « الجعفرى » — كعادته — بفنجان شاى وسيجارة ، وكلمات أبوية محفوظة جيداً ، فى الصالون المريح الملحق بمكتبه . وثرثر معهم عن حياته العائلية .. حبه لزوجته .. وتعلقه بطفلته — لم يقل لهم أو لغيرهم أنه عاجز عن الإنجاب — وحدثهم أيضاً عن أمه وأبيه — لم يذكر شيئاً عن علاقتهما المشبوهة بالسراى منذ ثلاثين سنة — وأفاض فى الحديث

عن همومه فى العمل — لم يقل أنه يستمتع به — وأخبرهم باضطراره — رغما عنه كما ادعى — للقسوة مع البعض .. وأنه — والله يعلم أكاذيبه — أليف ، وديع ، طيب القلب ، على عكس مظهره ومنصبه .. وأنه يحب كل البشر .. ويحلم باليوم الذى يودع فيه عمله هذا — لم يبح لهم بطموحه وأحلامه فى الصعود — لكن .. هه .. إنه مضطر .. والأوامر التى يجب أن تطاع دون مناقشة .. وما هى الحكاية بالتفصيل ؟ احك يا أخى .. فضفض .. أرحنى وأرح نفسك من وجع القلب .. إنها مجرد تسديد خانات .. سين وجيم .. تماما مثل أى حادث نشل .. وربما أهون ، لا تخف شيئاً .. ساعدنى أرجوك ، إننى فى ورطة « سياسية » .. ولو قلت لهم لا داعى لإهانة أولاد الناس ، فان مصيرى — كما تعلم أو لا تعلم — سيكون أسود من هذه الليلة التعيسة .. التى كان يجب أن أقضيها ، ليس هنا مع إنسان برىء بالتأكيد مثلك ، بل مع زوجتى وأهلى .. وطفلتى ! هه .. قل .. تكلم ولا تخف شيئاً .. ولا تخف ودعنا نخلص من هذه المصيبة الثقيلة على قلبى .. خذ سيجارة أخرى أرجوك ، إن المشاركة عمل إنسانى .. فشاركنى ظروفى : دخن ، دخن يا رجل وتكلم لننتهى من « المحضر » .. ولا تعطل عملية الإفراج عنك .. صدقنى ولا تسىء الظن بى .. جرب .. ماذا يحدث لو أنك جربت الثقة فى إنسان مثلى .. هه .. قل .. ما هى الحكاية بالتفصيل ؟ ! ..

...

...

ليلة كاملة ، قضاها « الجعفرى » مع هؤلاء الأولاد الملاعين كل بعد الآخر .. ودخن علبتى سجائر ، وشرب أكثر من عشرين فنجان قهوة سادة ، ليظل يقظا لهم ، لكن ريقه جف .. لسانه أوجعه .. رصيده من

الكلمات المحفوظة نفد .. واضطر للصمت .. وعاد للكلام .. هدد .. توعد .. أغرى .. تودد ، لكن أحدا منهم لم يفتح فمه بكلمة واحدة ! ؟

– كلاب أولاد كلاب !

قالها « الجعفرى » وداس ما تبقى من سيجارته بحذائه ، كان شديد الغضب ، وإذن . . فالكرابيج لابد أن تظل صاعدة هابطة تمزق جلد الأولاد .

... ...

تم استبدال « قوة التعذيب » بأفراد آخرين أكثر نشاطا وهمة ، و :: ازداد الضرب عنفا ، وازداد تهليل المعجبين بصوت أم كلثوم وأصروا بالحاح عنيد – على أن تعيد المقطع الأول من « أنت عمرى » من أول المقدمة الموسيقية المرحة الراقصة و .. صاح « الجعفرى » فى « الأولاد » :

– « يا نسوان ! .. » .

ومرت ساعة .. أو أكثر ..

ومرت ساعتان .. أو أكثر ..

وطال الوقت .. قبل أن تنتهى أغنية « أنت عمرى » .. فأمر الجعفرى باستبدالها ، وطلب من مساعده « الصول عبد الحق » أن يتولى بنفسه اختيار « قوة تعذيب » أنشط وأقوى .. واستدار عائداً إلى مكتبه .

... ...

... ...

وفجأة حدث ما لم يتوقعه « وليد وعصام ويوسف » فقد اقترب منهم الصول « عبد الحق » وربت على ظهر كل منهم بأبوة ظنوها حلما .. كابوسا .. لكن الصمت كان حقيقيا الآن .. ومكبرات الصوت كفت عن جلد آذانهم وإرهاب أعصابهم وكانت يد « الصول عبد الحق » تربت فعلا على جلدهم الممزق .. على رءوسهم .. على وجوههم المتورمة .. وسمعوه .. سمعوه يقول لهم بأبوة :

— صبرا جميلا يا رجال ! ..

لكن فى ثانية .. فى جزء من الثانية ، تبدد الحلم .. تاه من وعى « الأولاد » .. عندما سمعوا وقع أقدام « الجعفرى » تدب على الأسفلت ، فتحول « الصول عبد الحق » من المودة المفاجئة إلى عنف شديد الرعب .. صار صوته أكثر غضبا من رؤسائه .. وهو يأمر الجلادين :

— اضربوهم .. النسوان .. أولاد النسوان .. ثم بصق عليهم واحدا واحدا .. وقال :

— كلاب أولاد كلاب ! ..

... ...

نشرت مكبرات الصوت ، عبر أسوار القلعة الرمادية الشديدة الارتفاع .. صوت أم كلثوم بأغنية « إنت الحب » .. وكان تهليل الجماهير صاخبا هذه المرة ، فانتشى الناس خارج الأسوار .. ورقصت قلوبهم مع إيقاع الموسيقى والغناء ! ..

وأمام « الأولاد » توقف الجعفرى ، وتوالت ضربات الكرابيج ، وخفت صراخ « الأولاد » .. صار أنينا مكتوما .. وقال : ..

— سأجعلكم تعدون نجوم السماء فى عز الظهر يا أولاد الكلاب !

. . . .

. . . . ؟ . ؟

مرت دقائق . . ساعة . . أو أكثر . . وانتهت أغنية « إنت الحب » . . وانتهت أغنية « ألف ليلة وليلة » . . وانتهت أغنية « هذه ليلتى » . . وأعيدت أغنية « انت عمرى » وكف الأولاد عن البوح بآلامهم التى لا تحتمل ، فقد سرى خدر الألم الرهيب فى خلايا جسدهم . . ومالت رءوسهم ، التصقت وجوههم فى السلك الصلب . . ولم يكف الحراس عن ضربهم . . ولم يفقد « الجعفرى » أمله فى أن يعترف « الأولاد » . . فأمر بغسلهم بالماء المخلوط بالملح ! ؟ ؟

وفى جزء من الثانية ، التهبت جروحهم . . كأنها تحترق . . فصرخوا وسالت دموعهم على وجوههم وبللت أسلاك الحائط الصلب . . وأطلوا عبر الثقوب الضيقة الفاصلة بين الأسلاك . . وغامت الدنيا فى عيونهم . . ورأوا كل شيء كالأشباح . . « الجعفرى » و « الصول عبد الحق » والأشجار ، والأسلاك ، والسلالم ، وبئر السلم ، والجدران ، والكلاب ، والغربان ، و ؟ . انكمشت الرؤية العريضة فى ثقوب الأسلاك الضيقة التى امتلأت — وكأنها شاشة سينما — بمشاهد العرى والعنف فى الشوارع والبيوت والحقول ، ومن جديد حرقهم ماء الملح . . ألهب جراحهم ، أيقظ حواسهم . . وتمنوا شيئا واحدا . . واحدا . . أن تصمت مكبرات الصوت لحظة . . لحظة واحدة . . ليلتقطوا أنفاسهم . . لكن صوت « الجعفرى » كان طاغيا :

— هيه ؟ ؟ هل تتكلمون يانسوان ؟! . .

وصاح « عصام » بصوت مزقه الألم ، سحقه الرعب :

ـ أنا .. !

. . .   .

أشرق وجه الجعفرى بفرح لا يوصف ، ولمعت عيناه بنظرات الزهو والانتصار ، ثم عاد فورا للجدية والجهامة ، وقال :

ـ أنت ولد عاقل . . تعرف مصلحتك ! . .

ثم أمر بفك قيود « عصام » وإحضاره إلى مكتبه ، وسار إلى هناك ، ممنيا نفسه بصيد شهى ، يحقق رضاء المسئولين عن « جهوده » ، وفى سره وعد نفسه بليلة يقضيها فى « عوامة » صاحبته الراقصة الشهيرة « سهير » مع زجاجة من الشراب الذى يليق بمقامه . . وعظمة انتصاره هذه الظهيرة التى استطاع فيها ـ بذكائه الخاص ـ أن يجعل « أولاد الكلاب » يرون النجوم ويعدونها فعلا فى عز الظهر ! . .

عندما أدخلوا « عصام » إلى مكتبه ، بعد أن ألبسوه بنطلونا وقميصا ـ ممزقين متسخين على الجلد المجروح ـ كانت أشعة الشمس تنسحب ـ دون أن يدرى بها أحد ـ خلف الجدران السميكة المحاطة بالأسوار الرمادية القديمة العالية ، التى قفز منها ذات يوم بعيد . . بعيد . . أحد المماليك بحصانه هاربا من مذبحة القلعة . . وحفظت الكتب حكايته ! . .

وأمام مكتب « الجعفرى » انهار « عصام » على الأرض فاقدا الوعى .. فركله الجعفرى بحذائه المفلطح اللامع بعنف فى جنبه ، ولعن الدنيا ومن عليها .. وسب معاونيه .. وأصدر أوامره بأن يكون « عصام » جاهزا للاعتراف عندما يعود فى المساء .. وخرج ساخطا ، وهو يؤكد لنفسه :

— لابد أن يعترفوا .. أولاد الكلاب .. بكل شيء .. بكل شيء ..

... ...

● **ملحوظة :**

أثناء ذلك ، كان هناك سجين يدعى « منصور » منزويا فى ركن باحدى الطرقات الموصلة إلى السلم ومكتب « الجعفرى » .. وكان يرقب كل شيء .. ولكن فى صمت مريب .. وبحث عن سيجارة فى ثوب السجن المهلهل على جسده النحيل .. ولم يجد فعاد ينظر إلى المعتقلين الجدد وتأكد من أنه سينال حتما علبة سجائر من الجعفرى قبل أن يطلقه على هؤلاء المستجدين .. فأخذ يستعد ويتربص ! ..

٢ ـ الاحتقار

كان « عصام » ـ قبل اعتقاله يعرف أن كل إنسان قد أصبح قلبه يختلف تماما عن لسانه وأسارير وجهه ـ على حد قول حكيم فرعونى ـ وأنه ما من إنسان فى هذا العصر .. يخلو من التلوث.. وكان يقول لزميله « يوسف ووليد» إن كل واحد يشعر بأنه مذنب دون ذنب معلن ، وأنه مسئول عن كل شىء ، وأنه مخادع وأنه مجرم لم يقع بعد فى قبضة العدالة وأضاف « عصام » ، مفسرا كلامه :

- إنها ـ كما نعلم أو لا نعلم ـ شهوة اتهام النفس بدافع مدمر بسبب الهزيمة عام ١٩٦٧ ... لقد خدعنا ! ...

... ...

كانوا يومها عائدين من حصة « محو الأمية » بمدرسة البلدة ، التى أشرفوا عليها فى الفترة الليلية بموجب خطاب من الجامعة « مشروع خدمة البيئة » . . ويومها عارضه « يوسف » قائلا :

ـ أنت متشائم ! ...

ضحك « عصام » بسخرية لاذعة ، وأشعل لنفسه سيجارة .. بينما تحفظ « وليد » كعادته ، قائلا :

– إن المسألة كلها ترجع إلى اهتزاز القيم وفقدان الثقة بكل ما قيل لنا .. وهذه على أية حال مسألة تعانى منها المجتمعات التى يلفها ضباب الهزيمة القاتم ! ..

وقال « عصام » مدعما وجهة نظره :

– إنه زمن فقد فيه أبطال التاريخ سحرهم الخاص .. وقوة سيطرتهم على خيال الناس – على حد قول « جيبون » فى سقوط الامبراطورية الرومانية – وها أنتم ترون ، أننا لم نعد نرى من يشدنا معه إلى عنان السماء ! . .

ويومها قال يوسف :

– المحزن أن الشك يملأ نفوسنا .. حتى فى كل ما شهد المؤرخون بصدقة ! . .

وقال وليد :

– هنا تكمن المأساة .. إن هذا الشك صار يحول بين الإنسان وبين تصديق أى شىء على الإطلاق .. ونذير الخطر الحقيقى أن سيرة أمجادنا مثار التندر والاستهزاء .. وهذا ما يجب وضع حد له .. إذا أردنا وضع حد حازم للهزيمة وما تفعله بنا ! ..

يومها قال « عصام » :

– عندما ذهبنا فى ٦ يونيو عام ١٩٦٧ إلى القناة ، لنستقبل القوات العائدة بالجراح من سيناء ، لم يكن يخطر ببالى أبدا أنها الهزيمة .. وما نراه الآن من تسيب اجتماعى .. انظروا حولكم .. انتشار ظاهرة خدش الحياء العام الخاص بالكلمات والأفعال الفاضحة .. وفى وضح النهار .. والاختلاسات والتهريب ، وعصابات النشل التى تقتحم الترام والأوتوبيسات

علنا وتشهر السكاكين وتنهب الجيوب : : والجنس : : تجارة بعض الحسناوات وغير الحسناوات : : أليس ذلك مهينا حقا ؟ : :

دخن « عصام » سيجارته فى لحظة صمت : : وأضاف :

— ما هى علاقة كل ذلك : : وبالتحديد ، بمذبحة ممر متلا : : لابد أن نصاب بالفزع ولابد أن نتساءل : كل هذا الفجر : : ما هو سره ؟! الهزيمة : : ولنسم الأشياء بأسمائها الحقيقية ولو مرة واحدة فى حياتنا ، إذا أردنا التعجيل بالنجاة ! : .

: : : : : : : : :

يومها : : قالوا ، وقالوا ، وقالوا ، وقالوا : :

لكن الليل شهد « زوار الليل » الذين اجتاحوا البلدة من كل الجهات : : كأنهم وطاويط المقابر ، كأنهم جزء أساسى من عواصف تلك الليلة ومن بردها وأمطارها التى هطلت قبل الأوان واعتقلوا .« وليد » و « عصام » و « يوسف » . .وأمروا أهاليهم الفلاحين والمهجرين بالصمت إذا أرادوا النجاة لأنفسهم :

. . . .

. . . .

ومن يومها و « الأولاد » لم يلتقوا : . ولم يتكلموا : : إلا عندما رأوا أنفسهم مقيدين بإحكام شديد ، فى الظلام ، إلى حائط السلك الصلب ، لقد رأوا بعضهم فجأة ، وفرحوا ، لكنهم عجزوا عن تبادل العناق : : أو مجرد لمس الأيدى ولكنهم كانوا قد تمكنوا من الهتاف وفى لحظة واحدة : :

ونفس واحد . . اجتاحهم من أصابع الأقدام وحتى شعر الرأس . :
واختلطت لهفتهم بشوقهم بخجلهم ، وعارهم ! . .

أراد كل منهم أن يؤكد لزملائه ، أنه لم يقل شيئا ، وأنه لم يضعف ،
لكن الحراس كانوا قد قيدوهم ، وحالوا بينهم وبين مجرد تبادل النظرات
الصامتة التي كان فيها كل شيء يريدون قوله :

— إنهم يعرفون فضيلة الصمت . . الصمت التام . . ويدركون محاذير
البوح بأى شىء . . مهما حدث . .

لذلك أحس « عصام » بالمهانة عندما صرخ « أنا » ، وجعل «الجعفرى»
يفرح ويظن أنه سيعترف . . وتمنى أن يعرف زميلاه أنه لن يعترف . .
لن يقول شيئا . . وأنه — فقط — كان قد تعب من الضرب ولم يعد يحتمل
وأنه خاف أن يضعف . . فقال أنه سيعترف لمجرد أن يكسب وقتا . :
دقائق . . يستريح فيها من التعذيب . . وبعدها . . يعود أصلب مما كان .:
لكن كيف يعرف زميلاه هذا . . كيف ؟ !

وتمادى « عصام » فى تصنعه الأغماء ، ليكسب دقائق أخرى ، عله
يسترد بعض قواه ، لكن . . بوز حذاء « الجعفرى » ، صدم عظامه بعنف
فصرخ . . وتقلب فزعا . . وفتح عينيه ، فرأى فردتى الحذاء ضخمتين
بجوار أنفه تماما . . وعجز عن النظر إلى أعلى ، كان خائفا من « الجعفرى » ،
من عينيه القاسيتين ، تماما مثل عينى أبيه « فتوح أفندى » ناظر المدرسة
الابتدائية بالبلدة .

أهل البلد — كانوا — يقولون : أن أباه رجل طيب ودود ، لكنه
هو يعرف الحقيقة ، لقد كان هو أيضا يظن أنه كذلك ، لكن ما أن ماتت

أمه – وبكى عصام للذكرى التى ضخمتها آلامه – وأحس أنه يتيم ، ظن أن أباه سيعامله بحنان الأب والأم معا ، لكنه فوجىء ذات ليلة ، وكان عائدا من اجتماع بنادى الطلبة بالبلدة . كان يناقش فيه مشاكل عمال النظافة بالبلدة : وضعف أجورهم واضطرارهم لقبول بعض الرشاوى الصغيرة . . وكلها عينية مثل : كيلة أرز ، أو طاجن لبن رائب . . ليلتها كان عصام متعبا ، وفوجىء بوالده مع امرأة غريبة ، وأول الأمر تجمد مكانه . . صرخ . . ربما . . فزع . . ثار وشتم ، ربما . . إنه لا يدرى بالتحديد ، غير أنه وجد أباه يصفعه على وجهه عدة مرات وفى نفس الوقت تمكن من رؤية وجه المرأة . . وعرف أنها « أم بسيمة » – التى زوجت ابنتها بسيمة لخيمر تاجر الحمير ، وجعلتها ضرة لزوجته الأولى « أم عديلة » – – وها هى ذى تمرغ كرامة زوجها – تاجر الشطة والكمون فى القرى المجاورة ، فى فراشه هو : مع أبيه « فتوح أفندى » الأرمل الوقور . . الذى ظنه « عصام » – رجلا عالما ، يستحق ما حققه من « انتصارات » وظيفية وعقارية ، و . .

ليلتها أعاد « عصام » النظر فى علاقته بابيه ، وناقش كل ما حدث منذ وعى الحياة فى سن مبكرة . . منذ خمسة عشر عاما . . أو عشرين . . عندما كان والده مدرسا ابتدائيا يجوب القرى من قبلى لبحرى ، قبل أن يستقر به المقام فى بلدتهم ، حيث ما لبث أن رقى إلى ناظر مدرسة . .

وتساءل عصام :

– فى عشرين سنة . . صار ناظرا . . وزادت أملاكه من فدانين إلى عشرين . . كيف ؟ ! . .

سؤال لم يخطر ببال عصام قبل الآن ، لكنه فى هذه اللحظة بالتحديد . .

الثوانى القليلة الخاطفة التى سمع فيها صوت الجعفرى يأمر معاونيه بحمله إلى غرفة « الإنعاش » . . خطر السؤال :

–كيف ؟ ! . :

اجتاح السؤال خلايا مخه التى تحاول أن تتماسك وسط الهول المخيف ، وعندما وجد نفسه مجبرا على السير مجرورا من ذراعيه بقوة حارسيه — فى طرقات ضيقة مظلمة . . ويصعد درجات حجرية متآكلة . . . ويهبط درجات أخرى . . حاول أن يعرف :

— كيف تمكن والده فتوح أفندى من أن يصبح ناظرا .. ويملك عشرين فدانا .. فى ظل قوانين الإصلاح الزراعى والوظيفى ومن أين لك هذا .. ؟!

— لكن ..

نسى « عصام » السؤال والجواب ، عندما قذف به الحراس فى « حمام الإنعاش » .. فلسعته المياه الثلجية وجعلته يشهق ، ينتفض بقوة التيار الكهربائى المختلط بالماء البارد .. الشديد البرودة .. وصرخ ! ..

... ...

حاول « عصام » القفز من « حمام الإنعاش » لكن أيدى الحراس تكفلت بإيقافه تحت « الدش » البارد اللاذع .. ثم .. امتدت يد أحدهم وأغلقت الماء « البارد » وفتحت الماء « الساخن » .. وبعد ثانية ، دقيقة .. أحس كأن ألسنة من النيران تنهش جلده ، شعره ، جلد رأسه ، وجهه ، عينيه ، عنقه ... كل جزء فى لحمه وأعصابه وعقله وقلبه .. وتحول صراخه

إلى عواء ، يستغيث بمن فى الأرض والسماء .. وشهق كمن يغرق وأخذ ينهار حتى التصق بالبلاط .. وتحول عواؤه إلى حشرجة أشبه بخوار ذبيحة أمام دار « أبو عوضين الجزار » الذى اشتهر فى البلدة كلها وفى القرى المجاورة والمحيطة بها ، أنه تاجر الذبائح « الوقيع » من الماشية التى تصاب فى حادث أو بمرض ! ..

... ...

فى اللحظة التالية وجد عصام نفسه يهتز .. يرتعش .. ينتفض .. يرتفع عن البلاط ملليمترات ويهبط بعنف ، مخبوطا فى بلاط الزنزانة ، ولمحت عيناه من خلال الإرهاق والدموع والورم .. أسلاكا كهربائية فى يدى أحد الحراس .. ولسعته أطراف الأسلاك فى بطنه .. فى صدره .. فى عنقه .. ثم أحس بها بين فخذيه .. ورغم عجزه وضعفه فقد صرخ فى عواء مجنون .. كان محاصرا فى ركن .. وليس أمامه غير الفزع أو الموت ! ..

وقال عصام :

ــ أنا حتكلم .. حاقول ! ..

... ...

... ...

لكن حمام الإنعاش استمر يأخذ مجراه طوال الليل ، دون أن يعيره أحدهم أدنى اهتمام ، ودون أن يظهر « الجعفرى » !

وكان « عصام » على ثقة من أن « الجعفرى » سيرحمه من أيدى هؤلاء الحراس لو أنه جاء الآن ، واستمع إلى اعترافات تفصيلية .. أصبح عصام

يحلم بأن يجد وقتاً يلتقط فيه أنفاسه ليقولها .. فقط بشرط أن يكفوا عن تعذيبه و ..

خطرت له أشياء كثيرة .. وكلمات أكثر .. لا يذكر الآن كيف ومتى وأين عرفها :

— أعتقد أنني عانيت الآن أكثر مما عاناه المسيح نفسه فى سنوات .. سأعترف ، سأقول كل شيء .. سأوقع .. أبصم بأصابع اليدين والقدمين على كل ما يريده الجعفرى .. إننى أحب الحياة .. أريد أن أعيش .. كلهم فعلوا هذا .. أبى نفسه فعلها .. ضاجع « أم بسيمة » على فراشى .. بعد وفاة أمى بأسابيع .. ولا شك أنه كان ضمن أصدقاء « بلطية » الجميلة التى أعرف طعم النوم الشهى معها و ..

لسعته سيجارة فى بطنه .. اكتشف فجأة أن « الدش » الساخن الملتهب توقف .. كان قد توقف لكنه لا يذكر متى حدث هذا بالضبط .. فأخذ يرقب الحارس وهو يطفىء سيجارته بعناية وببطء .. فى جلده .. عند « صرته » تماما .. وعجز عن النظر إلى وجهه ..

... ...

وفى اللحظة التالية ...

وجد « عصام » نفسه ينقلب على بطنه ، انحنى حارسان قويان وقلباه على بطنه ، وألصقا وجهه بالبلاط ، وأحس — لا يعرف كيف — بساقيه ينفتحان إلى آخر مدى .. و .. وجد نفسه — رغم التعب الذى يشل حركته — واعيا تماما لكل ما يحدث له .. لكل ما يفعلونه به .. نزعوا بنطلونه .. ثم .. ثم .. وتمنى لو يموت ! ..

وضحك الحارسان .. لم يشعرا بالخجل مما فعلاه .. وتبادلا تدخين سيجارة ملفوفة .. كان السجين منصور قد أهداها لهما .. وتضاعفت نشوتهما فرقصا وصفقا .. وتبادلا كلمات بذيئة .. وداسا بأحذيتهما الثقيلة على مؤضرة عصام العارية و ...

وضحكا بوقاحة .. وغادرا الزنزانة ! ..

***

عندما استيقظ « عصام » وأدرك أنه مازال على قيد الحياة خطر له سؤال : « هل أنا .. هو أنا .. هل ما حدث .. حدث فعلا ؟ .. »

وتدريجياً بدأ يرى بلاط الزنزانة .. جدرانها .. نافذتها العالية وأصابه الدوار .. كمن يهوى فى بئر سحيقة وأحس بالعار يختلط بدمائه .. بلحمه .. بجلده .. وغص حلقه بغثيان شديد تقيأ وصرخ ! ..

وحاول أن ينهض .. لكنه سقط على ظهره فازدادت آلامه وصاح بكل ما فى وعيه المرهق من بقايا إحساس آدمى :

— يا من أنت فى السماء .. وفى كل مكان .. أين أنت ؟ ! .. يا من أنتم خلف حروف الكلمات تختفون وتتشدقون بالشعارات وتلوكون الأوهام الغيبية .. أين أنتم أيها السادة .. وماذا تقولون الآن لو أنكم هنا منطرحون على بطونكم على البلاط والكلاب تمتطى ظهوركم كقوم لوط دون حياء أو خجل ! ؟

... ...

....

صار صوت « عصام » مكتوما .. لم تعد الكلمات تخرج من فمه الدامى.. المتورم فقضم لحم يده ! ::

فى الأساطير القديمة ، قرأ ذات يوم ، أن رجلا حكم عليه القضاة بالحرق لأنه قال رأيا أزعجج السلطات ، فأشعل النار فى إحدى يديه ليظهر لهم عدم اكتراثه بحكمهم الجائر .. وكذلك فزعت « فستا » ربة للطهارة عند قدماء الرومان .. عندما حاصر عشرون ألف رجل عذارى المدينة ونساءها وهتكوا أعراضهن ! ::

***

سمع عصام أخيراً ، مزلاج الزنزانة يغلق من الخارج بإحكام ، فعرف أنه صار الآن وحيداً ومع ذلك عجز عن فتح عينيه ! ::

كان خجلا من نفسه لحد الموت ، وازداد يقينه بأنه عاش سنوات تافهة ، رغم ما ظنه من بطولات صنعها ، ومن نذالات ارتكبها و :: أدرك أن الشقاء الإنسانى لن ينتهى ، على عكس ما كان يظن :: وما كان يصور له خياله .. وتساءل « عصام » :

— وما قيمة الأفكار التى قرأها .. ما فائدة ما أحبه فى أقوال كل من : هيجل ، سان سيمون ، أوجست ، بوذا ، وغاندى ، وموسى ، وعيسى ، ومحمد ، وعمر ، والأفغانى ، وابن خلدون ، وعرابى ، والنديم ، وهربرت ماركيوز ، وسلامه موسى ، وغيرهم من الذين كان العقل عندهم مع اختلاف فى كثير من التفاصيل — قوة كونية راقية توجه كل شيء نحو غاية :: نعم .. لماذا أتعب عقله بقراءة هؤلاء وغيرهم ؟! :: ما هى الفائدة ! ::

طاف بعقل عصام سؤال مفاجيء له :

— هل قال المفكرون — حقاً — كل آرائهم وهم فى حالة هروبية ؟!

وصارح نفسه :

— إن الحقائق تفقد توازنها بداخل عقلى ! ..

وفى اللحظة التالية كان يضحك بمرارة ، عندما تذكر « ابن تيمية » الذى قال :

— ما يصنع السجان بى ؟! . إن سجنى خلوه .. ونفيي نزهة .. وقتلى شهادة ؟! ..

وعلق عصام بسخرية :

— لو أنه كان هنا معى .. الآن .. لفقد الحكمة والشجاعة فى لحظة واحدة ! ..

وأراد عصام أن يؤكد لنفسه :

— إن الانسان ليس فى استطاعته أن يكون حرا إلا إذا كان مستقلا بالقدر الكافى .. وقوياً بالقدر الكافى أيضاً ..

لكنه أحس بسخافة كل الآراء التى خطرت له ، أو قرأها .. ولسعته جراحه دفعة واحدة ، قبل لحظة كان الخدر يسرى فى خلايا جسمه بفعل التعذيب البشع ، والآن .. انتبهت كل حواسه ، وأدرك أبعاد المهانة التى حدثت له .. لعقله .. لعرضه .. وأصابت رجولته فى الصميم .. فتمنى

لو يرى الجعفرى الآن ، وفورا ، ليبصق فى وجهه قبل أن تخونه أحقاده و تتوارى مرة أخرى جبناً وخوفاً ورعباً ..

... ...

... ...

فى اللحظات التالية ، فوجىء بعواء بشرى ، فيه ملامح مؤكدة من صوت « وليد » و « يوسف » كان الصوت مألوفا لديه .. لكن العواء المفزوع جعله لا يعرف بالتحديد : أيهما حان دوره !

وانكمش « عصام » وأجبر نفسه على توقع ما سيحدث له بعد لحظة.. أو ساعة .. وأخذ ينتظر .. والفزع يجتاحه من كل الجهات ، وفشل تماماً فى تخمين الخطوة القادمة ! ..

— ملحوظة :

كان السجين « منصور » بوجهه الممصوص يقبع الآن بالقرب من مكتب الجعفرى يتلهف على إشارة الانطلاق إلى زنزانة وليد أو يوسف أو عصام ! ..

٣ ـ الملفات السرية

« ... ما أجمل الدنيا إذا نظرت اليها برغبة وأمل » و .. أغلق « الجعفرى » صفحة البخت فى الجريدة ، وأشعل سيجارته ودخنها باستمتاع ملحوظ .. وقال لنفسه بثقة :

ـ لن أسمح لهؤلاء الكلاب أن يعكروا صفو حياتى لأكثر من هذا .. وبدأ يقرأ التقارير السرية :

الملف الأول :

الاسم : وليد الزناتى خليفة .

جهة الميلاد : منية النصر ـ دقهلية .

السن : ٢٥ سنة .

المهنة : طالب بكلية الآداب ـ قسم تاريخ .

المسكن : مدينة الطلبة .

علاماته المميزة : طويل ، نحيل ، اسمر ، أنفه مدبب ، عيناه سوداوان ويشوب بياضهما اصفرار طفيف من أثر مرض بالكبد ، شعره أسود ناعم ، تفاحة آدم تبرز فى رقبته بشكل ملحوظ ، مقاس حذائه ٤٣ ، قدماه

« فلات فوت » الأصبع الكبيرة فى قدمه اليسرى مشوهة الظفر . ريفى اللهجة والبيئة .. ورغم حرصه على أناقته فملابسه رخيصة الثمن عموما .

نشاطه : وهو فى ابتدائى كان انطوائيا خاملا ، وبحكم أنه — الابن الذكر — الوحيد لأسرته كان مدللا وما زال فى أذنه اليمنى آثار ثقب « الحلق » الذى اعتاد الفلاحون وضعه فى آذان أبنائهم « الحيلة » ، لكنه فى المرحلة الثانوية أظهر نبوغا ملحوظا و . . كان ترتيبه الأول على زملائه دائما . . وأصبح عضوا فى فريق « البنج بونج » و « كرة السلة » و « الكرة الطائرة » و « فريق التمثيل » و « جماعة الخطابة » . . وذلك بتشجيع من أحد مدرسيه ، وكان يدعى « عوض رياض » وهو أصلا من المدرسين الذين تم الاستغناء عن خدماتهم بعد اشتداد المقاومة ضد ثكنات الإنجليز فى القناة وأحيلوا للعمل بمدارس الأرياف ، وكان لهذا المدرس ميول تحررية أدت إلى نقله فيما بعد إلى الواحات .

وكان « وليد الزناتى خليفة » يواظب على المطالعة ، فقد وجدنا فى مكتبة المدرسة عدة كتب عليها توقيعات باسمه كاملا بجوار ملاحظاته على هوامش هذه الكتب ، وفيما يلى مجرد أمثلة على هذا :

(أ) فى رواية « أبو الهول يطير » كتب أنها كتاب إنشائى عن السياحة ! .

(ب) وعلى أول صفحة من رواية « عودة الروح » كتب هامشا يقول : « لو أن الخطب الإنشائية حذفت من هذه الرواية ، لكانت أحسن ألف مرة .. »

(ج) وفى رواية عصفور من الشرق ، كتب ملحوظة أخرى تقول : « المؤلف يقول : أن الشعب العظيم لا يصنعه غير الألم العظيم . . وهذا صحيح . . لكنه لم يحدثنا عن آلام الشعب الذى أجبر على حمل صخور الهرم المخيفة

ليبني أكبر مقبرة في التاريخ . . هل يصدق أن الشعب يمكن أن يبني الهرم ويحمل الأحجار على ظهره طواعية ؟! . . إنها عبودية مطلقة ، وليس هناك شعب عظيم يقبل مثل هذه العبودية إلا في حالة واحدة وهي أن يكون مقتنعا.؟ ولأن الاقتناع يأتي عادة بعد مناقشات وخلافات . . ودون خوف أو بطش ، فلا أصدق أن الشعب العظيم اقتنع ببناء الهرم طواعية ، لأن الفرعون لم يكن يسمح لأحد بمناقشته . . وعلى كل حال فهذا أمر يحتاج مني قراءات كثيرة في كتب ما زالت مجهولة لي . » وأحب أن أجد إجابة مقنعة لهذا السؤال :

ــ كيف نحت المصري القديم تماثيله الخالدة بروح الفن المتألقة ونقش عليها لغته وأخباره ... وفي نفس الوقت يقبل أن يبني مدفن الهرم بنفس الإتقان دون أن يسجل احتجاجه على ظلم الفرعون . . أو على الأقل يخبرنا بعدد الذين ماتوا من القهر ؟ ! . .

(د) وعلى صفحات كتاب « الأيام » وجدنا ملحوظة أخرى يقول فيها « وليد الزناتي خليفة » : « أن أهم ما في هذا الكتاب أنه يؤكد أن الإنسان يستطيع أن يفعل ما يريده لو ملك إرادته . . »

. . . وفي آخر صفحة من « الأيام » كتب « وليد » : « وإرادتي كيف أملكها . . إنني ما زلت صغيرا . . والحياة من حولي بشعة . . إنني أمام أمر من اثنين : إما أن أحلم . . وإما أن أموت ! . . »

وفي الجامعة كان « المتهم » واسع النشاط ، فقد كان عضوا في أغلب الأنشطة الرياضية والثقافية ، وكانت له صداقات كثيرة ، سيرد ذكرها في الملحقات الخاصة بهذا الملف ، ويعنينا هنا الإشارة إلى النوعية المريبة لقراءاته في مكتبة الجامعة :

(أ) فى كتاب « مدخل إلى فلسفة التاريخ » وجدنا أن « وليد الزناتى خليفة » يناقش مؤلفه « و . هـ . وولش » . وقد وضع خطوطا باللون الأحمر تحت السطور التالية فى صفحة ١٦٦ :

« إن أحدا لا يستطيع تجنب شعور معين بالامتعاض عندما يلاحظ أفعال الناس ، التى تعرض على المسرح الكبير للعالم ، فالأفراد يظهرون الحكمة هنا وهناك ، ولكن نسيج التاريخ الإنسانى ككل يبدو وكأنه منسوج من الحماقة وتفاهة الأطفال ، وغالبا من الآثام الطفيلية وحب الدمار . . ونتيجة لذلك ، أصبحنا فى النهاية حائرين فى معرفة ما هى الفكرة التى نصوغها عن نوعنا البشرى » .

وهنا كتب « وليد الزناتى خليفة » متسائلا :

– إن الآراء تبدو مثيرة حقا للدهشة ، ولكن . . لو أن التاريخ كما يصوره هذا أو ذاك من الفلاسفة بهذه البشاعة المخيفة ، فلم لا يعترفون بشجاعة أنه لولا العناية الإلهية ، والبرهان الأعظم وحكمته ، لغمرنا الطوفان من جديد . . ومن هنا تبدأ الأهمية الكبرى لرسالة الرسل والأنبياء والحكماء . . ومن هنا أيضا أختلف مع الذين يريدون منا الوصول إلى التشكيك فى عظمة وحكمة الخالق ، بهدف تأليه الزعماء وحدهم ! . . »

أشعل « الجعفرى » سيجارته الثالثة ، والرابعة ، وأخذ يدخنها بملل وقرف ، إن رغبته فى ترك هذا الملف الملىء بالتفاهات صارت طاغية .. لكنه أوصى نفسه بالاحتمال ، لأنه يحب أن يكون « حذرا » و « عالما » ببواطن الأمور ، هكذا على الدوام ، وإذن . . فلن يترك كبيرة . . أو صغيرة . . عن هؤلاء الأولاد الكلاب ، إلا وفحصها بذكائه الخاص ،

ليتمكن من محاصرتهم بالاتهام . . ويحصل على الاعترافات كاملة ، وذلك أمرهام بالنسبة له هو . . كما هو هام بالنسبة لرؤسائه أيضا . . وأطفأ سيجارته بعصبية شديدة ، ونظر فى ساعته ، لقد بقيت ساعتان على لحظة لقائه بصاحبته « سهير » . . هكذا طلبت منه . . ولا داعى للإحراج أو المناقشة . . هكذا اعتاد هو . . واعتادت هى . .

و . . .

عاد يقلب صفحات الملف رقم واحد :

الحالة الاجتماعية : مات والده « الزناتى خليفة » فى حادث غامض بأرض « وهبة باشا » بالبلدة . . ويقال أن ثعبانا لدغه فى غيط الأرز ، لكن الثابت من حكايات أهل البلدة ، أنه كان أجيرا مشاغبا ويثير زملاءه من الأنفار . ويحرضهم على العراك مع ناظر التفتيش ، وبالتحرى الدقيق ، ثبت لنا أنه كان يتربص لقتل « وهبة باشا الكبير » ، ولكنه قتل قبل أن ينفذ جريمته وترك زوجته الأرمل التى ماتت مؤخرا فى الحريق المجهول الذى دمر البلدة منذ عام تقريبا . . .

. . . أما أخته الوحيدة . . . وشهرتها « أم خالد » فاسمها الحقيقى « أمينة الزناتى خليفة » وهى زوجة الشيخ تهامى ، واعظ البلدة وهو وفدى . . وقد سبق اعتقاله فى أوائل عام ١٩٥٦ ، بتهمة إيواء الهاربين من أحكام صدرت ضدهم ، وأيضا لاتهامه باعاشة بعض أسرهم . . وقد أفرج عنه بعد أن ثبت لنا — حسب توجيهات عليا جاءتنا — أنه رجل فى حاله ، ويدعو للرئيس فى كل خطبة وصلاة . . والمؤكد الآن أنه كان وقتها محببا أو مقربا من أحد أصدقاء « الرجل الكبير فى إدارتنا » . . ولهذا الشيخ ولد واحد اسمه

« خالد » :. وهو تلميذ فى المدرسة الابتدائية ، وتربيه الآن « بلطية » المهاجرة الشهيرة بالبلدة : . بعد أن ماتت أمه « أمينة » متأثرة بجراحها فى حريق البلدة المشار اليه آنفا : : وبهمنا أن الشيخ « تهامى » قد نسى اهتمامه المعهود بوليد الزناتى خليفة ، ولم يعد يشعر بأنه ولى أمره ، ومسئول عن تربيته ورعايته بعد أن انشغل فضيلته بأمور « بلطية » ، ويبدو أنه مصر على إصلاح حالها وإعادتها إلى « حظيرة الإيمان » وإن كان لم يتزوجها بعد ، إلا أنه يعاشرها الآن فى بيت واحد — حسب رواية شهود العيان ! . . »

؟؟؟ ؟؟؟ ؟؟؟

علق الجعفرى منتشيا :

— أولاد الزانية ! : :

و ؟؟؟ واصل قراءة ملف وليد ؟؟؟

؟؟؟ ؟؟؟ ؟؟؟

؟؟؟ ؟؟؟ ؟؟؟

الأخطاء : هذا ، وقد أحصى مندوبنا فى كل مكان ، عددا من الأخطاء التى يمكن الإفادة منها ، والضغط بها على وليد فهو على علاقة وثيقة بامرأة .. أو فتاة — لا نعرف بعد — تدعى « نادية » تحدث عنها فى مذكراته الخاصة ، وهى مرفقة بملحقات هذا الملف ، ومنها نذكر المثال التالى ، الذى يبدو أنه مسودة خطاب كتبه لها :

— حبيبتى نادية ؟ ؟ أمنيتى الغالية . ؟ أن حبنا المتجدد ، هو الذى يجعل ما بينى وبينك من علاقة عاطفية تزودنى بالثقة فى أن كل خطأ سيتم إصلاحه ..

وأنت تعرفين أنى أحبك . . أحبك دونما أى خجل ، فأنت طاهرة ، نقية ، قلبا وعقلا وجسدا . . ويكفى أن قطرات الندى أخذت عذوبتها من طهارتك وعذوبتك أنت يا أمنيتى وأحلامى . . .

. . . إلى آخر مثل هذه التخاريف التى ملأ بها صفحات مذكراته الخاصة المرفقة بهذا الملف وإن تكن هذه الفتاة أو المرأة ما زالت لغزا مجهولا لنا . . .

. . .   .

. . .   .

— والجدير بالإشارة أن المتهم وليد الزناتى خليفة على علاقة وثيقة بالراقصة « سهير » المعروفة وأنه ذهب إليها كثيرا فى « العوامة » و . . .

توقف الجعفرى مفزوعا . . إعاد قراءة الفقرة الأخيرة عشر مرات . . « وهو على علاقة وثيقة بالراقصة » « سهير » المعروفة وأنه . .

— الكلب ابن الكلب . . . كيف ؟ !

. . .   .

رفع سماعة التليفون وطلبها . . . قالت الخادمة أن سيدتها نائمة . . فصرخ :

— أيقظيها فورا . .

وبعد دقيقة . . دقائق . . كان يسألها :

— منذ متى وأنت تعرفين الولد « وليد » ؟

ولسعته ضحكاتها المثيرة . . . وسألته :

– تفزعني الآن لتحدثني عن غيرتك العبيطة .. شيء غريب ! ..

هم « الجعفرى » أن يشتمها ، أن يذكرها بأنه هو الذى جعل لها اسما وسعرا فى عالم « الكبار » ، لكنه تراجع ، وتصنع الهدوء .. وعاد يسألها :

– أتعرفين يا حلوة .. أن صاحبك وليد ... متهم بمناوأة الحكم !

– غير معقول ! ..

– وأنه كان يستغل نقودك وسيارتك فى الإعداد لتنفيذ مؤامرة خطيرة ؟! ..

– كذب ...

– وأنه كان يطبع المنشورات فى شقتك .. وعوامتك ؟ ! ..

– كذب ... كذب ...

– وأنه يا سهير هانم .. على وشك أن يعدم هو وشركاؤه ؟ !

– أنت مجنون يا جعفرى بك ! ..

– سأريك يا حلوة .. من أكون .. يظهر إنك نسيت الجعفرى !

– عوامتى .. وكل جزء فيها .. وكل زائريها .. يعرف جيدا من تكون يا .. جعفرى ! ..

وأغلقت التليفون بعصبية .. فازداد غضبه واستدعى معاونه الصول عبد الحق .. وأمره بعنف :

– معاملة خاصة جداً للمتهم وليد .. أتفهم ؟ ! ..

– أمرك يا فندم ..

وانصرف المعاون مسرعا دون أن ينتبه له الجعفرى الذى استغرقه التفكير وأربكه.

.:. كان يعرف جيدا أن « الرجل الكبير في إدارته » ، يزور « سهير » فى عوامتها كلما أراد ذلك وأنه كان يصحب معه الصفوة الخاصة من أصدقائه ، وكان يعرف أيضاً أن (سهير) قادرة على تشويه سمعته أمامهم . . . بل هى بالتأكيد قادرة — إذا أرادت .. يكفى أن تعلن لهم ما اتفقا — هو وهى— على إخفائه . . . لكنها تفكر فقط بغريزتها الشرهة وبهمها أن تقول لهم أنها تتسلى برجولته العاجزة ... و ... ضرب الجعفرى زجاج مكتبه بقبضته فكسره وجرح أصابعه . . ثم نهض واقفا . . أخذ يدور حجرته كالمضروب على دماغه ، وأشعل سيجارته من الفلتر ، وزام ... وقال :

— سيعرفون جميعا أينا أكثر رجولة .. أنا أم هم ! . .

... ...

أحس بالندم لأنه انساق لشهوته المجنونة العمياء ودفع سهير إلى ليالى الكباريهات فترة ثم استأجر لها من « المصروفات الخاصة » عوامة فاخرة وشقة مريحة ،وأعدها لتكون شهر زاد الليالى الخاصة التى كلفوه بإعدادها.. وتصيد لها بعض الأرامل والزوجات المرفهات من ذوات الطموح الملون المبهرج .. لكن « سهير » فاقتهن جميعاً .

وفجأة ...

تذكر الجعفرى شيئاً ، لعن نفسه لأنه نسيه بعض الوقت . . أن سهير لابد أن تكون شريكة فى هذه المؤامرة التى تجره معها إلى بحر من الظلام والغموض ، أو ليست هى ابنة الفدائى الذى حارب الإنجليز والملك بالقنابل والمسدسات فى غارات ليلية تثير الخيال .. إن أباها مات مؤخرا .. منتحراً.. كما تقول الصحف لكن الجعفرى يعرف الحقيقة ، فقد طلب المجنون

مقابلة « فلان الفلانى المهم » وناقشه بحدة فى مذبحة الجيش فى اليمن وسيناء وبعدها قيل أنه انتحر .. !

أما أخوها « منصور » الذى عرف ذات يوم بين رجال الجعفرى السريين بأنه « العقرب » فها هو فى ساحة القلعة يمارس عمله حسب أوامر الجعفرى .. يتجسس على زملائه المعتقلين ، عن طيب خاطر ولا يكف عن كتابة الاعترافات بما لا يخطر على بال .. حتى أن المشكلة التى تؤرق الجعفرى منه أنه أصبح محترف اعترافات وتقارير !

وفى مرة أشار « الجعفرى » إلى أخته سهير فأنكر « منصور » صلته بها .. ورفض مقابلتها فى المرة الوحيدة التى جاءت فيها لزيارته .. ورفض أن يعامل معاملة خاصة ، بعد أن اسودت الدنيا أمامه بهروب زوجته بطفلتيها .. وقد حاول الانتحار مرتين لكنه كان يجبن عن إكمال قتل نفسه .. وصار يفرط فى عرضه مقابل سيجارة .. أو بصلة ناشفة يشتهيها بنفسه المائعة على الدوام !

... ...

توقف الجعفرى .. أوقف نفسه عن اجترار معلوماته الدقيقة عن « سهير » وأسرتها ، لأنه يعرف أنه لا جدوى من إرهابها بشىء .. بأى شىء :: فهى تعرف كل ذلك أكثر منه ، ولكنها لا تهتم .. ولا تحترم أى شىء ، بل وغيرت اسمها رسمياً فى شهادة الميلاد .. ويوم فعلت ذلك بالتحديد :: وتنكرت لأسرتها ، فرح الجعفرى ، واعتبر ذلك نصراً كبيراً لذكائه فى « غسل مخها » !

لكنها ، الملعونة .. صاوت أقوى منه الآن .. نفوذها على الجميع أمر ظاهر وواضح .. وأنوثتها دائما مشتهاة ! ..

وأكد الجعفرى لنفسه ، أنه رغم ذلك لن يتراجع .. وليحدث ما يحدث ..

... ...

انطلق من حجرته ، شديد السخط والغيظ ، فأفزع الحراس فى الطرقات واقتحم « غرفة الإنعاش » وأخذ الكرباج من يد أحد الحراس .. وشرخ وجه « وليد » .. وبطنه .. وفخذيه .. بشراسة فازداد صراخه ، وانهار على بلاط الزنزانة المبقع بدمائه .. و

أحس الجعفرى بالنشوة تسرى فى دمه .. داخل عروقه وشرايينه وجسده السمين ، وأخذ يرقب دماء « وليد » .. وجسده النحيل الجريح العارى .. بلذة اجتاحته من رأسه إلى أصابع قدميه داخل حذائه الأسود المفلطح اللامع .. وأخذ نفسا طويلا من سيجارته .. ورأى للحظة خاطفة .. جسد « سهير » عاريا بين ذراعيه واشتهى شفتيها .. ثدييها .. وصرخ فى أعوانه هربا من عجزه الفاضح :

– يا نسوان ! ..

ثم أضاف وهو يستدير خارجا :

– هكذا يكون التأديب ! ..

... ...

عاد إلى مكتبه ، ناشرا المزيد من الفزع فى قلوب الحراس عبر الطرقات المظلمة .. وما أن جلس على مقعده الهزاز حتى أغلق ملف « وليد » ونحاه جانبا بقرف .. وفتح ملف « يوسف » وهو يقول بحقد شديد :

— سيعرف الكلاب أى هول يعده لهم الجعفرى ! ..

● **ملحوظة :**

بعد لحظة خطرت له فكرة ، فدق الجرس بعنف ، واستدعى الصول عبد الحق وأمره بأن يرسل الولد « منصور » إلى زنزانة « عصام » . . . ثم نظر إلى الصول نظرة أفزعته . . . وجعلته ينصرف مرعوبا . . ليطلق كلب الصيد . .

٤ ـ بقية الملفات السرية

« . . إذا لم يكن لديكم تاريخ فاخلقوه ، وإذا لم تكن لديكم ثقافة فاخترعوها .. إن السؤال يدور الآن على كل لسان ويجب أن تعثروا على الجواب بسرعة فضائية فالزمن لن يتوقف » . .

... ...

... ...

لقد وجدنا هذه العبارة موضوعة بين قوسين ، وتحت كل سطر منها خط باللون الأحمر فى إحدى صفحات رواية أفريقية اسمها « هذه الأرض » لكاتب يدعى « كونى أووتار » وبجوار تلك الفقرة — السالفة الذكر — كتب المتهم يوسف ملحوظة تقول :

« إن عملية خلق التاريخ ، واختراع الثقافة يمكن أن تكون جراحة مستعصية أحيانا .. أو مذبحة . . إذا أفلت الزمام من الأيدى والعقول . . وعلى كل حال .. لم لا أحاول التعبير عن ذلك فى لوحة ؟ ! »

... أعاد الجعفرى تقليب الملف رقم « ٢ » من بدايته :

الاسم : يوسف حنا يوسف .

السن : ٢٤ سنة .

جهة الميلاد : بورسعيد .

الحالة الاجتماعية : يتيم الأب ، وحيد أمه ، وفقد شقيقته وأطفالها أثناء التهجير ، خاله كان من الفدائيين الذين لعبوا دورا سريا هاما فى بورسعيد ضد قوات الغزو الإنجلو — فرنسى ، ويقال أنه أسهم فى اختطاف « مور هاوس » بطل الحادث الشهير فى حرب عام ١٩٥٦ ، لكن خاله هذا مات فى ظروف غامضة فيما بعد . ويوسف خطيب لمن تدعى « هدى جرجس » التى تعمل حاليا معلمة فى مدرسة منية النصر الابتدائية المشتركة .. حيث هاجرت مع أسرتها ووالدها المصاب فى الحرب ، كما أنها ترعى « أم يوسف » التى لا تنطق منذ اعتقل ابنها .

المهنة : طالب بكلية الفنون الجميلة ، ويمارس الرسم بالصحف من حين لآخر ، يعيش من أجر رسوماته .

المسكن : يقيم فى إحدى عوامات إمبابة ، مع بعض زملائه الطلبة .

علاماته المميزة : لونه يميل إلى البياض ، متوسط القامة ، شعره يميل للبنى ، عيناه خضراوان ، دقيق الملامح .. رقيق كالبنات ، صوته هادىء حتى فى المناقشات ، وقد رأت إحدى عميلاتنا فى « الوسط الليلى » ندبا غائرا فى ظهره .. وقد أخبرها أنه من بقايا جرح فى حرب ١٩٦٧ ، عندما هاجمتهم طائرة وهم يهاجرون ، لكن الأرجح أنه أصيب أثناء تدريبه على عمليات العنف والاغتيال على أيدى بعض المخربين « وإن كنا نترك لسعادتكم إثبات هذه الحقيقة » ! .

أشعل الجعفرى لنفسه سيجارة أخرى ووضع أحدهم أمامه فنجان القهوة وانصرف فى خفة وسرعة ، تاركا الجعفرى يتابع تقليب صفحات ملف يوسف ببطء .. قارئا ما فيه بعناية شديدة :

... ...

... ...

« وتأكدت عميلة أخرى من صدق ما وصلنا عن نشاط يوسف المريب .. كما أنها تمكنت من نقل مظروف كبير به قصاصات من الصحف والمجلات .. والكثير من مذكراته الخاصة ، وكذلك عدة اسكتشات لبعض رسومه « وهى مرفقة بملحقات الملف » ..

والثابت أنه يعترف فى مذكراته الخاصة بكل آرائه وخواطره العدوانية وإن كان يبدو خبيثا جدا ، لأنه يتحدث عن خطيبته هدى ، لكن كلامه يكشف عن حقيقة نواياه التى يبيتها ضد مصر كلها .. فهو مثلا يقول :

ـ إننى أدعوك ليل نهار ، وأنا وسط أعداء لا أعرفهم ، لقد اتحدوا جميعاً ضدى .. وهجرنى الأصدقاء ، ولم يعد لى أحد غيرك .. إلخ ! ..

ويقول أيضاً :

ـ إن الإنسان الحقيقى الذى أحلم بإنجابه يا حبيبتى ـ عندما نتزوج ـ هو الذى يصنع لنفسه أجنحة كالنسور ليحلق بك دائماً نحو السماء ... تاركا هذه البذاءة التى تشل الحياة من حولى ... إلخ ! ..

وما أكثر ما ستجدون سعادتكم فى أوراق المتهم يوسف الملحقة بهذا الملف ..

وقد أبلغنا أحد من نثق فى معلوماتهم — وكان وقتها قد تمكن من الحصول على عمل مؤقت بالكلية — أن يوسف حنا يوسف كان يثرثر دائماً مع زملائه الطلبة والطالبات حول الوضع العام للبلد . . . وكانت له آراء خطيرة وهدامة ، وهذه المعلومات بالذات أكدتها لنا « إحدى عميلاتنا » وكانت تعمل موديلا لتدريبات الرسم بالكلية ... وقالت فى تقريرها « أن يوسف ... كانت له آراء تحريضية » .. لذا لزم التنويه .

... ...

... ...

توقف الجعفرى عن القراءة لحظة ، تجرع خلالها قهوته دفعة واحدة ومضغ البن بلسانه وجذب نفسا طويلا من سيجارته حتى جعلها تتوهج وقال لنفسه :

— ومع ذلك ... فالمؤكد أن الرأس المدبر لهؤلاء الكلاب الثلاثة هو « وليد » .. إنه من النوع الخطر ،لكن يوسف هذا .. لا يقل خطرا عنهم.. سيندمون على إزعاجى .. مؤكد سيندمون .

صمت الجعفرى ، صمت طويلا طويلا ، وحاول أن يرتب أفكاره ، ليصطاد « الأولاد » . . وينهى المسألة كلها ، ليطمئن على آماله هو ..

... ...

— ملحوظة :

كانت آمال الجعفرى خاصة جدا وغير معلنة لأقرب المقربين إليه ولولا ما تكشف فيما بعد فى المحاكمات ، لما قدر لنا أن نعرف ن آماله

كانت كبيرة إلى هذا الحد وكانت محسوبة .. خطوة بخطوة فقدكان يهمه أن يستمر رضاء كل الكبار عنه ، نعم كلهم فقدكان حريصا على لعبة التوازن والموازنة ، فهو لا يغضب أحدا ولا يرضى أحدا على حساب الآخر ، إنه مؤقتاً – وكما تثبت اعترافاته – كان خادمهم المطيع ، حتى « س ... » المشاكس – كان الجعفرى كالخاتم فى أصبعه رغم أنه من النوع المتعب ، فقدكان يحلو له دائما افتعال المؤامرات التى يزعج بها السلطات ومن ثم يجبرها على الوثوق به لقدرته على كشف هذه المؤامرات وتأمين ظهورهم .

والجعفرى كان دائماً طوع بنان « س ... » فى مثل هذه الأمور الخاصة جداً . . فهو يرتب له المؤامرات المزعومة ، ويعد له المتهمين واعترافاتهم وأيضاً الأسلحة والمفرقعات التى كانت ستستخدم فى المؤامرة و . .

كان الجعفرى دائما يسند (س .ه.) بل إنه يذكر الآن وهو يضحك ذلك الفلاح الذى كان قد حضر من قريته ومعه جوال أرز لابن أخته – الذى اعتقل فى إحدى تلك المؤامرات الوهمية – وعندما وقف ذلك الفلاح أمام باب الشقة الملغمة من الداخل بالأعوان فوجىء بمن يقبض عليه .. وعلى الفور كتب الجعفرى فى « أدلة الجريمة » أن الجوال كان مملوء بالمسدسات والقنابل وبه قليل من الأرز لتمويه على رجالنا اليقظين الذين كانوا يتتبعون هذه المؤامرة الخطيرة منذ بدايتها ... إلخ ! ..

لكن « س ... » وغيره ممن يثقون فى الجعفرى لم يعرفوا ولن يعرفوا أن هذه الخدمات لايقدمها الجعفرى لله ، أو من أجل سواد عيونهم ، وإنما هو ينفذ كل شيء بحساب وبدهاء ، و نه جعل هذه « الخدمات » ، ودون علمهم جميعا مجرد جزء من خططه الخاصة لوصوله إلى « الهدف » .. الذى من أجله يعيش .. .. ضحك الجعفرى و حس بالزهو وقال :

— ولم لا .. ألست أنا أذكى منهم جميعا .. وأقوى منهم جميعا .. وأستحق أن أكون فوقهم جميعا ؟ ! ..

وخبط رأسه براحته — وبرفق شديد — وأضاف :

— إن دماغى لايوزن بذهب العالم .. وسأريكم جميعا أن آلاف الأقدام من شرائط التسجيل التى تسجلونها للمواطنين المهمين وغير المهمين .. والليالى الحمراء التى ورطتم فيها بعض المنشقين .. كل ذلك فى يدى أنا الجعفرى .. وسأستعملها ضدكم أنتم فى الوقت المناسب ! ..

وضحك الجعفرى، وأنتشى إعجابا بنفسه ، إنه يسجل لخصومه وينصب الفخاخ لمنافسيه ، ولكنهم — فى زحام لعبة الصعود نسوا جميعا أن « الجعفرى » وحده .. هو الذى يعرف كل شىء وأنه وحده الذى لاتسجيلات له ولا دليل ضده . . يالك من عملاق ياجعفرى ، رغم سخرية الكبار منك فى شكل دعابات . . وهزر — ورغم نداءاتهم لك على الدوام بـ « القزم الماكر » .. سترون عما قريب أن الجعفرى عملاق وأنتم الأقزام وأنه الأحق برئاسة الثورة والبلد كلها ! .

وصرخ يستدعى أعوانه .. وأمرهم :

— أريد يوسف حنا يوسف .. حيا .. أتفهمون ! ..

ثم صمت محدقا فى أعوانه الشاحبين — رغم سمنتهم وعافيتهم الواضحة .. كانوا فى رعب شديد منه ، فأحس بفرحه يجتاحه من جديد ، ووثق بنفسه أكثر وأعجب بذكائه أكثر وأكثر .. ود لو أن زوجته وافقت مرة واحدة على اقتراحه بالحضور إلى مكتبه فى أية ليلة أو أى نهار : لترى كم هو مخيف ومرهوب الجانب وأنه .. فى « دار محمد على باشا » هذه أكثر عظمة من كل الولاة والسلاطين عبر التاريخ ! ..

و ...

فوجىء الجعفرى بالصول عبد الحق يتكلم ، رآه يفتح فمه .. فعاجله بسؤال أرعبه :

فانخرس الرجل .. وحاول التخمين بمصيره ، فلسعه لسان الجعفرى :

– انطق يا بجم .. تكلم ! ..

– كنت يافندم .. أود أن أقول لسعادتك أن .. المتهم يوسف حالته سيئة جداً .. و ه..

فرقع صوت الجعفرى :

– عالجوه .. استدعوا الطبيب .. أريده بعد ساعة واحدة .. هنا .. واقفا على قدميه .. مفهوم ؟ ! ..

وأدى عبد الحق وبقية الأعوان التحية فى سرعة وخضوع .. واختفوا من أمامه .. فجلس سعيدا بنفسه ، وأخذ ينقر على مكتبه بقلمه الأحمر السميك .. وقال :

– الجعفرى .. الجعفرى .. اسم سهل الحفظ وسيكون رائعا فى كل الأغانى وفى كل الهتافات .. ..

... وأخرج من خزانة مكتبه زجاجة خمر ، وبلع منها جرعتين وأعادها إلى مكانها ، وأشعل سيجارته ، واسترخى فى مقعده .. وواصل حديثه مع نفسه :

– لقد كان الأنفار فى عزبة جدى ينشدون اسم الجعفرى فى كل الانتخابات – وضحك – كانت العائلة ممثلة فى كل الأحزاب بعناية : فمنها

الوفدى ، ومنها السعدى ، والدستورى ، والإخوانى ، والشيوعى أيضاً .. لقد كان جدى متنبها للأغلبية ، ولم يهمل شأن الأقلية فى يوم من الأيام . رحمه الله .. كان مستعدا لكل طارىء ، ولأى تقلب ، ويوم أراد أبى — رحمه الله أيضاً — أن يدخلنى كلية الطب ثار الجد العظيم ، وتحرك على فراش مرضه . وقال :

— لو تعرف كم دفعت للملك وحاشيته مقابل لقب الباشوية ونظير توظيفك فى الديوان الملكى .. لاحتقرت نفسك لأنك تريد ابنك « الجعفرى الصغير » مجرد طبيب .. إنك غبى ، و .. تغيرت حياتى من لحظتها :. وتم إعدادى لهذا اليوم .. لهذه الساعة .. لهذه اللحظة التى أعيشها .. قويا ، جباراً ، مرهوبا .. عالما ببواطن الأمور وصانعا للأعاجيب أيضاً ! ..

وغنى لنفسه « ياجعفرى ياحبيب الملايين » وضحك وقال : « إنا أقوى من ناصر .. أنا حميه » !

مزق رنين التليفون أحلامه بشكل مباغت .. ففزع .. إن من يتصلون به على هذا الخط قلة ، أقل من أصابع اليد الواحدة فانتفض واقفاً .. شد سترته ، لبس الكاب .. حاول أن يتماسك وهو يضع السماعة فى سرعة خاطفه على أذنه ، وقبل أن يقول بخضوع يتقنه :

— أفندم ؟ ..

... سمع صوتها المثير الدافىء .. يهمس :

— لن أتعشى معك الليلة يا حبيبى .. لأننى مدعوة فى « القبة » ! ..

... ...

كان الجعفرى قد جلس ، واستراح فى مقعده ، وخلع الكاب وفتح فمه بابتسامة حلوة ، وسأل زوجته فينى بمكر :

– هي التي دعتك يا روحي ؟!

فضحكت في دلال مثير .. وقالت :

– تعرف أنه هو الذي يدعوني دائماً ! ..

ضحك الجعفري بخبث شديد وقال :

– يا بختك يا حلوه بالرضا السامي .. ادعي لي .. أنال ما تنالينه من عطف واهتمام !

وقهقه بعصبية ، فشل في مداراتها أو إخفائها ، بكلماته الفارغة التي يقذفها في أذن زوجته .. وانتهى الحديث فاترا بقوله :

– سأعود آخر الليل بصيد ثمين أسليك به .. وأعدك بشرفي أنه سيكون مثيرا جدا .

وضحك .. مستخفاً ظله ، لكن زوجته كانت قد ركنت سماعة التليفون على فراشها ، وانشغلت بإكمال زينتها .. ووقفت أمام المرآة ، فبدت شقراء شهية وثوبها الشفاف يكشف عن مفاتنها المثيرة .. وراودتها لثوان لحظة ندم على ضياع عرش السينما العربية منها ، وربما السينما العالمية أيضاً ، بعد أن كادت تقفز قفزتها الحاسمة بمساعدة « فلان الفلاني » المخرج والمنتج الذائع الصيت الذي انكمش على نفسه كالفأر ، وأنهى عقده الذي كان ينص على احتكار نشاط « فيفي » لمدة خمس سنوات ، وهي نفس المدة التي حددها بذكائه الفني ليجعل مخرجي هوليوود يلهثون وراءها .. ولم يجرؤ على المطالبة بمقدم الأجر الذي دفعه مع عربون صداقة مناسب « عربة بيجو زرقاء » .. وفي رواية أخرى أنها « مرسيدس مستعملة

قليلا » ... عندما جاءه ذات يوم مندوب الجعفرى الخاص ، وكان ذلك فى أعقاب حفل غنائى اشتركت هى فى تقديم نجومه على المسرح ، وأمره بالابتعاد عنها فورا وبدون مناقشة ، فامتثل المخرج والمنتج فى صمت شديد وذعر أشد ! ..

... ...

بعدها بساعات قليلة ، كانت فيفى قد أصبحت زوجة للجعفرى وودعت حياة العوامة الوحيدة الغامضة فى مكانها الهادىء بشط النيل ، وصارت زوجة مثالية — كما يظن الجعفرى — لكن أعوانه الذين كلفهم بحماية زوجته من بعيد ، كانوا يعرفون كل شىء وكانوا يخافون إبلاغه بتصرفاتها المشبوهة وسهراتها الماجنة ! ..

... ...

... ...

وخرجت الزوجة الشقراء، مسرعة ، فرغم ادعائها الوقار أمام وصيفتها كانت كل خلية فى جسدها ، تشتهى ، تتلهف ، تترقب ، تتعطش لأحضان الرجل القوى الذى يعرف كيف يشبعها ... وخاصة بعد أن يلقى أوامره — تليفونيا — لزوجها الجعفرى بأن يظل يقظاً ويداعبه بقوله :

— أنت تعرف أيها القزم الماكر ، أننا .. لولا يقظتك وذكاؤك لأصبحنا مسخة أمام الكبار .. ولرمونا للكلاب المسعورة ، عندك تنهشنا — وعلى فكرة — أنا معجب بك للغاية ، ثم وهو يأخذ الشقراء فى أحضانه ويتحسس جسدها المثير الساخن بشراهة : لك أعجابى الخاص بمقدرتك المدهشة على استخدام المصروفات الخاصة .. هه ! ..

وعند الجملة الأخيرة ، كان الجعفرى يشعر بوخزة فى رأسه .. فى جنبه .. فى صدره .. كان « الرجل الكبير فى إدارته » يصفعه على قفاه بهذه الجملة بالتحديد «مقدرتك المدهشة على استخدام المصروفات الخاصة..» فالجعفرى يغرف من الأموال الخاصة والسرية بشراهة لا تعلن عنها فقط التاكسيات العشرة التى تعمل فى شوارع القاهرة .. فما خفى كان أكثر .. وهم يعرفون عنك هذا بالتأكيد يا جعفرى .. لكن لا تشغل بالك ، فالأمور ستسوى عما قريب أما إذا حدث ما لا يتوقعه فماذا تكون تكسياته إلى جوار ما يغرفونه غرفا من مصانع البلد — من شتى المنتجات المحلية والمستوردة — بلا حساب ! ..

... ...
... ...
... ...

بعد ساعة كان « يوسف » محمولا على نقالة ، أمام غرفة الجعفرى .. والحراس والاعوان لا يجرءون على الدخول به إليه .. فهو قد أمر باحضاره حياً .. على قدميه .. ولكن ، ها هو لا يزال حياً حقاً ، لكنه على نقالة .. لا لأن الطبيب أصر على حمله برفق ، وإنما لأنه كان عاجزاً عن الحركة .. كان مجرد نفس بطىء بطىء بطىء .. يتردد خافتاً وسط كومة من اللحم والعظام الجريحة .. و ..!

عجز الجميع عن مواجهة الجعفرى ، حتى الطبيب الذى وجد من واجبه أن يكون بجوار « يوسف » عن إيمان برسالته ، وعملا بأوامر الأعوان أيضاً ، أحس بالخوف لخوفهم من الجعفرى .. وحاول أن ينشغل بالاطمئنان على نبض « يوسف » لكنه ما لبث أن قال محتجاً — رغماً عنه :

– إنه فى حاجة عاجلة إلى نقل دم ...

و .. لفهم صمت ثقيل ، وفجأة لمعت عينا يوسف ، فظهر لونهما الأخضر مصبوغاً بلون الدم القاتم ، و . . رفت ابتسامة على شفتيه الزرقاوين .. كانت شبح ابتسامة .. أحس بها الطبيب ، ولمحها الصول عبد الحق .. فهمس فى سره ، وأصابعه تلمس شعر وعنق يوسف كأنما بغير قصد :

– صبرا جميلا يا ولدى ! ..

وفتح باب غرفة الجعفرى أخيرا ، رأوه أمامهم بقامته الصلبة القصيرة ووجهه الوسيم الصارم ، وعينيه القاتمتين الجارحتين ، وسمعوه يقول :

– ما هذا ... أنا لست جزارا يا كلاب !..

ثم خاطب الطبيب بصوت ودود ، لا يخفى أوامره الصارمة :

– أكمل علاجه يا دكتور .. فأمره يهمنى جداً ! ..

وفى ثانية كان قد أغلق الباب فى وجوههم بعنف ، وهو يحاول أن يرتب المسألة فى ذهنه على النحو التالى :

– أيهم أهم ؟! أيهم العقل المنظم للعملية ؟! .. أيهم الكلب الذى دبر وخطط ؟! .. عصام ؟ يوسف ؟! وليد ؟! ..

ظل الجعفرى وقتاً غير قصير يزن الأمر فى رأسه ، لكنه ما لبث أن أحس بالضيق وأدرك أن « أولاد الكلاب » قد أهانوه بصمتهم واحتمالهم ..؟

بل أهانوه أكثر مما يجب .: أكثر مما يحتمل صبره .. فتوعدهم بما لا عين رأت ،ولا أذن سمعت من العقاب والإذلال..وقال من بين أنيابه :

– سنرى يا أولاد الزانية .: سنرى ! ؟؟

... ...

... ...

... ...

... ...

● **ملحوظة :**

كان « منصور » جالساً باسترخاء شديد فى زنزانة عصام .: يدخن سيجارته باشتهاء ويهرش شعره الأشعث تارة ، ويداعب شاربه الذى اختلط بذقنه غير الحليقة تارة أخرى ، وهو ينظر بعينيه الزائغتين فى وجه عصام الذى كان عاجزاً عن الحركة :

قال له منصور :

– تحمل يا ولد ... إذا أردت أن تظل رجلا .: وخذ حذرك منى .. لا تثق بى ... فسأحاول إغراءك بالاعتراف ! ...

وبكى منصور فى صمت وقال : « هل تعرف معنى الاعتراف ؟! »

لكن عصام لم يسمعه .. وكان لايزال فاقداً وعيه .. فأشفق عليه منصور ! ..

٥ ـ اثنان .. فى زنزانة

« إننى يا ولدى ، أعلم أولاد الناس كل هذا :: وأقول لكل من يلوذ بى من الأهالى أن لا مساومة على الحق، وأحلم بأن يكفوا عن دفن رءوسهم فى رمال الأشياء السماوية الغامضة لكل البشر : إن الله يقين أولا .. وأنا أسعى على الصراط المستقيم لكى أجعل أهل البلد يرفعون هاماتهم لأعلى .. وإذا هم فعلوا ذلك فسأعرف أن عقول الناس أصبحت حرة وأنهم عندئذ سيهبون الأرض معنى عظيما ، أو ليست هذه حكمة قريبة من فلسفة الذين تحبهم يا ولدى ؟! .. »

... ...

... ...

صرخ عصام فى أبيه « فتوح أفندى » .. لم يكن هناك مفر من أن يصرخ :

– هذه مخادعة ، وأنا حقاً شديد الأسف إذ أقول لك هذا : إنك تحدثنى بلسان صاحبك « الشيخ تهامى » :: واعظ البلدة الذى لقنكم كلمات ذات رنين ، لكنها جوفاء .. خالية من أى فعل حقيقى ، لكن .. لماذا يا أبى .. لماذا .. ؟! ألا يكفيك ما حدث : لقد حجبت عنى نفسك .. وعلمتنى – فقط – أن أكون جباناً مذعوراً .. ألا يكفى هذا ؟! ..

وقف فتوح أفندى غاضباً :: كان قد وقف منذ صرح ابنه عصام ، لكن ظل صامتاً .. كلمات ابنه سمرته مكانه ، وعجز عن الخروج من الحجرة ، عجز عن ارتداء طربوشه الكالح المعلق — الآن — فى أصابع يديه أمام بطنه الأكرش قليلا :: وتدلت نظارته الطبية ذات الإطار المذهب ، على أنفه .: واحتقن وجهه المكتنز فصار قاتما ممروضا ! .:

وعاد عصام يحاصره :

— لقد مرت سنوات طويلة ، وأنت تفعل ما تريد ، وتقول ما تريد دون أن تشركنى فى شىء ، حتى دراستى الجامعية اخترتها لى أنت بمزاجك الخاص ، كنت تحلم لى بدراسة الجغرافيا ، وكأنك فشلت فى اكتشاف قارة مجهولة ، أو عجزت عن فهم لغز الطقس « الحار جاف صيفا :. الدافىء ممطر شتاء .. »

صمت عصام لحظة خاطفة ، حاول خلالها ابتلاع ريقه الجاف وعاد يقول :

— ما ذنبى أنا . لقد أجهضت أحلامى :. كنت أريد دراسة الاقتصاد والعلوم السياسية ، ومع ذلك .:. عندما حان الوقت لكى تشركنى فى بعض همومك الخاصة بالأملاك والعقارات :: فانك تكتفى فقط بتبرير تصرفاتك غير المفهومة لى ، وحتى فى تبريراتك تستند إلى أفكار غيرك .:. وليتك كنت مؤمناً بها ، إذن لتعلمت أنا الإيمان بشىء هام على يديك ! ؟ ؟ :

... ... :.: ::: :.: :..

احتج « فتوح أفندى » بعصبية وغضب :

— استغفر الله لى ولك يا عصام .. لقد حاولت أن أجعلك رجلا ملء الأسماع والأبصار .. ولم أبخل عليك بمال أو سهر !

... ...

وقف عصام وسط حجرته ، التى يستأجرها على سطح إحدى العمارات العالية بحى الزمالك ، وحدق طويلا من بابها المفتوح على الفضاء .. عبر النيل — حيث الثياب المغسولة مدلاة على أسطح بيوت « بولاق القديمة » .. وانسحبت عيناه عن النيل ، إلى العمارات المجاورة فى الزمالك ، ورأى امرأة عارية أمام نافذتها البعيدة .. وخلفها رجلها أو صديقها ، يداعبها ! ..

استدار إلى أبيه ، وقال بأسى .. بصوت أعياه التعب والإرهاق :

— أموالك يا أبى ؟ .. يبدو أنها لا تكفى لدفع إيجار شقة صغيرة أحس فيها بآدميتى ! ..

... ...

صمت لحظة ، أشعل خلالها سيجارته ، ثم أضاف :

— ألا تلاحظ يا أبى .. أن حجرتى ليس بها نافذة .. وأن علاقتى بالعالم كله وبالأشياء .. والهواء .. والشمس ، يتحكم فيها هذا الباب السميك الذى يخلو أيضا من أى ثقب .. ولو أغلقته لتحولت الحجرة إلى زنزانة رهيبة ، انظر .. ها هو مغلق الآن ، ألا تشعر باختناق .. ها نحن قد أصبحنا اثنين فى زنزانة ، فقل لى — بالله عليك — كم من الوقت تحتمله هنا .. وأنت وحدك .. وحيدا .. يتيم الأم والأب ؟!

... ...
... ...

ازداد فزع فتوح أفندى ، بل زلزله الفزع ، فكر أن يصفع ابنه ليعيده إلى صوابه ، لكنه خشى عواقب تسرعه . . فقال بعتاب لاذع محاولا تجاوز العاصفة :

– إلى هذا الحد يا ولدى ، إننى حزين لعقوقك ! . .

فقال عصام بصوت يخنقه الألم :

– لقد عشت عشرين سنة . . أحاول أن أستجمع رجولتى لكى أقول لك هذا . . وأكثر منه . . لكن السنوات مرت وأنا أحلم أن أناقشك . . أتكلم معك . . ابنا لأبيه . . كما يجب أن يكون العلاقة بيننا ! . .

– أنا أبوك يا ولد . .

– وأنا ابنك . . .

– أجننت يا ولد ؟ . . .

– ليتنى أجن يا أبى . . ليتنى أصاب بالغباء . . بالعمى . . بالصمم . . فربما لو حدث لى شىء من هذا لفقدت القدرة على الشعور بالقرف الذى يمرر حياتى كلها ! . .

... ...

... ...

طال الصمت الذى حل بغتة . . وتبادلا السجائر ودخناها واحتسيا شايا وأكلا بعض الفطير الذى صنعته جدته فى البلدة أو ربما صنعته «أم بسيمة» أو «بلطية» جميلة الجميلات . . والله أعلم مقدار العرق والحليب المغشوش والدقيق والملح الحرام الذى خلطت بعجينته هذه الفطائر ! . .

وأراد « عصام » أن يستعيد الفرصة لاستمرار حديثه إلى أبيه . . عله يتمكن من تصفية الأمور المعلقة كلها الآن . . عله يكتشف أنه هو : المخطىء . . فسأل :

– أظنك جئت لأجل خاطر سيدنا الحسين ؟ ! : .

وابتلع فتوح أفندى طعامه وقال بحذر :

– وخاطرك أنت والسيدة زينب أيضا ! . :

... ...

فكر « عصام » لحظة ، أيصارح أباه بأنه يعرف أيضا أنه جاء لزيارة بعض بائعات المتعة فى القاهرة ، وأنه برغم عدم بوحه بهذا الأمر . . إلا أنه واضح جلى . . وأخيرا قال :

– أتعرف يا أبى . . المأساة . . إننى الآن ، لست حكيما . . ولكننى لست جاهلا ، ومن هنا فاننى أسعى إلى استكمال ما بى من نقص . . ولكن المؤلم أننى أشعر بأننى مجبر إجبارا على احترامك . . والخوف منك . .

– هذا واجب يا ولد .. واجب لم يكن يناقش على أيام شبابنا نحن .

– لكننى أحلم أن أمارس احترامى لك عن حب . . عن صداقة . . وسيحدث هذا حتما عندما أحس بأبوتك صريحة ومعانة إنك تحبنى – لا شك فى هذا – لكننى لا أشعر بهذا الحب . .

– كيف يا عصام . . كيف تقول هذا ؟ أفق لنفسك يا ولدى !

– إنك لم تسألنى منذ جئت أمس : : لماذا أنا شاحب . . لماذا أنا عصبى ؟ ألم تر يا أبى أننى مريض . . متعب . . محزون العقل والقلب ! . .

– رأيت وتألمت يا ولدى ! . .

– لكنك لم تعلن لى ذلك ! . .

ولم يعلق الأب . . فأضاف عصام :

– أعرف أن كل أب يريد أن يرى ابنه قويا . . شجاعا . . ليشعر أنه أنجب رجلا يسنده عند الشدائد . . ولكن لماذا تنسون دائما أننا كأبناء نمرض فى أجسادنا وأرواحنا وعقولنا وقلوبنا . . إننا بشر ضعفاء وأشقياء ! . .

وغمغم فتوح أفندى مفجوعا :

– لقد حلت بك علل خبيثة يا ولدى ! . .

فقال عصام ، وهو يشعل لنفسه سيجارة :

– إن حياتى هنا لا تطاق . . كنا فى البلدة يعرف بعضنا بعضا جيدا نحن والجيران . . نتبادل التحيات والسؤال عن الصحة والأحوال والأولاد . . أما هنا . . فكما ترى . . الحياة اليومية لا تستند على معرفة بحقيقة الموجودات ، والعواطف الإنسانية ما هى إلا خداع وتضليل . . والإنسان المخبول بالمثل العليا . . يخلط على الدوام الحقيقة بالوهم ، ولعل هذا يفسر هذه المشاهد المفعمة باللذة الحسية عند شرفات ونوافذ البيوت المجاورة . . . انظر يا أبى . . إن العلاقات الجنسية تحدث فى عز النهار دون حياء أو خجل . . أما غير ذلك من علاقات إنسانية فلا وجود معلنا لها ! . .

... ...

... ...

قال فتوح أفندى :

– إذا رغبت فى حل مشاكلك فإنى أزوجك حالا بمن تشاء من بنات الناس الأكابر ! . .

وضحك عصام . . كانت ضحكاته ممرورة . . ودخن سيجارته حتى آخرها . . وفعصها بأصبعه فى المطفأة . . ثم قال :

– المأساة تكمن فى عدم الوضوح ، لا أحد يفهمنى . . وأنا لا أفهم أى أحد . . وكل شىء غامض . . مخيف ! . .

قال الأب :

لم تقل رأيك فى ... الزواج ؟ ! . .

قال عصام :

– الزواج . . لا أصلح له . . لا يصلح لى . .

– قد يحل مشاكلك ؟ ! . .

– لا . . لأنه وسيلة لابتكار شكل أنضج وأرقى من المخلوقات كما يقول الحكماء . . وأنا مخرب الآن من الداخل ومن الخارج . . لكن لا أحد . . ولا أنت . . يشعر بانسان يتألم كالكلب هنا بين هذه الجدران الضيقة . . اننى منذ كبرت أحيا فى زنزانة حتى عندما كنت فى البيت الكبير معك . . جعلتنى امبراطورا مهابا بين الأهل والجيران . . لأننى ابنك الوحيد . . لأننى امتدادك العظيم . . حامل الألقاب والأختام الخاصة بأمجاد العائلة العريقة التى لم تحدثنى حتى الآن عن أصلها وفصلها . .

أشعل فتوح أفندى سيجارة لابنه ، وأخرى لنفسه . . إنه لم يشاركه

التدخين قبل اليوم . . لكن الهياج الذى يجتاح ابنه جعله لا يناقش أمر تدخينه السجائر بهذه الشراهة . . أخذ نفسا من سيجارته . . وقال متصنعا الهدوء :

– أحلم على الدوام بأن تكون أنت يا ولدى عائلتى وامتدادى وبدايتى وانتهائى أيضا . .

قال عصام :

– لكنك لم تقل لى من أين جئنا . . ولما ذا اسمك فتوح عبد الدايم الهمشرى ، ما هى الجذور ؟ . . وهل كانت تضرب فى بطون الحجاز ؟ أم فى النوبة . . أم فى الشام . . أم فى استانبول . . أم فى بلاد الفرس ، أم فى روما ، أم فى بريطانيا ، وفرنسا ؟ ! . . أريد أن أعرف . . من أين جاء جدك عبد الدايم ؟ . . وكيف عاش الجد القديم « الهمشرى » ؟ ! . . وهل هو الأصل والبداية ؟ . . أم أنه كان مجرد حلقة فى سلسلة طويلة طويلة . . وأنه حتما سيصبح نسيا منسيا بمجرد أن أتزوج أنا – إذا تزوجت – وأنجبت لك حفيدا يكون مطالبا فقط باسمه ثلاثيا ؟! ...

صاح فتوح أفندى :

– كفى يا ولد . . ماذا تريد منى ؟ ! . .

استدار عصام لأبيه قائلا :

– الحقيقة . . ما لديك منها على الأقل . . على أفهم . . على أعرف ، من أكون . . وإلى أين أسير ؟! . .

– إنك تخرف يا ولد . . ولا شك فى أنك مريض . . ولابد من عرضك على طبيب !

وابتسم عصام . . وقام يصنع له ولوالده كوبين من الشاى . . ثم قال :

— أتذكر يا أبى يوم تعاركت بلدتنا مع جيرانها بسبب . . أبى زيد الهلالى . . و دياب ؟ . .

قال فتوح أفندى . . متوجسا إحراجا جديدا :

— أنت تعرف طبعى يا عصام . . اننى لا أحب العنف . . فهو يخرب البيوت وأنا رجل تربية وتعليم ! . .

— إنك يومها . . لم تتحرك لعمل أى شىء على الإطلاق . . بل وأجبرتنى على البقاء فى الدار . . أمرت أمى وجدتى بغلق الأبواب والنوافذ بالترابيس حتى لا أخرج . . وحتى لا يدخلوا ! . .

— الحياة غالية يا عصام . .

— والواجب أغلى يا أبى ! . .

— أحمل الفأس وأضرب مثلهم . . مثل الجهلة ؟! . .

— بل تحمل علمك . . تعيدهم إلى العقل وللدين كما يقول صاحبك . . الشيخ تهامى ! . .

— إننى أعلم أولادهم بالعافية . . ويتعاركون معى بسبب ذلك . .

— لأنهم جوعى . . وأولادهم لهم أجور تنفع إذا عملوا فى الحقول ومطلوب منك أن تجعلهم يحسون بفائدة علمك . .

— إنك تحملنى فوق طاقتى يا ولد . .

- .. لو أنني يوما كنت رأيتك تهدئهم . . تحول بينهم وبين جرح بعضهم وإسالة دمائهم . . لكنت قد تعلمت منك شيئا نافعا حقا . .

- إنهم متعصبون لأبي زيد .. ودياب .. جهل مطبق ! . .

- بسببك وبسبب غيرك .. لأن الخلافات بين الفلاحين طالت من ألوف السنين ، إنهم يتشاجرون على الري والمحراث وماكينة الطحين وفي السوق .. ودائما يتدخل تجار الصلح وكتاب العرائض لحل المشاكل ، لابد من المحاكم ليكسبوا أكثر . . وتظل النزاعات دفينة في نفوس المساكين حتى تنفجر لسبب أو لآخر . . قد يكون ثأرا لكرامة أبي زيد من أعوان « دياب » . . أو انتقاما من عشيرة الزناتي لشرف « السفيرة عزيزة » . . إنها كما ترى لعبة التحزب : وفدى ، سعدى ، دستورى ، ملكى ، أهلى ، زمالك ، شيعى ، سنى . . دائما كان البشر هكذا . . منذ اقتتل قابيل وهابيل . . ومنذ صنع نوح سفينته الشهيرة واختار المحظوظين للنجاة وترك غيرهم . . وكانوا الأغلبية . . للطوفان ! ..

- لا تكفر يا ولد . .

- والأقوى دائما ينجي الجبناء والسلبيين من الغرق . . بشرط أن يستغيثوا بقوته وجبروته . . هكذا كانوا جميعا . . أما الأسباب الحقيقية للمأساة . . فها أنذا أعاني منها . . ويعاني منها كل الأبناء وكل البنات . . إننا جيل حرم حتى من الأبوة الصريحة الشجاعة . . التي تسمح لي بأن أناقشك . . وأناقش من هم دونك وإن كانوا أهم وأقوى بحكم مناصبهم . . لقد حرمتني من شجاعتي يا أبي . . أيرضيك هذا ؟ ! . .

... ...

... ...

صمت عصام . . صمت . . لم يتحرك من فراشه ، وتحدث والده ، فلم يعلق . . لأنه أصبح يكرر التبرير والتعلل بالحجج الواهية . . وعندما خرج والده لينام عند أحد أقاربه فى شبرا ، لم يحاول عصام أن يثنيه . .أو يستبقيه ! . .

... ...

مرت أيام . . شهور . . وبعدها ، وصلته رسالة مطولة وعنيفة من أبيه ، ولم يرد عليها . . ولم يمزقها . . فأخذها الذين جاءوا لتفتيش مسكنه قبل أو بعد . . اعتقاله . . هو لا يدرى ، فقد حدثت أشياء كثيرة منذ تلك اللحظة البعيدة . .البعيدة . . التى كان قد نسيها عصام . . ولم يتذكر بالتفصيل مشاحنته الصاخبة مع أبيه « فتوح أفندى » إلا عندما وضع « الجعفرى » أمامه رسالة أبيه المطولة . . العنيفة . . التى يتهمه فيها صراحة . . وبتوقيعه هو « والده فتوح عبد الدايم الهمشرى » أنه « ولد ملحد . . وأنه يشرك بالله » وأنه ابن ضال وأنه لا يعرف أن للأب احتراما مقدسا و « أن إخوان السوء قد أفسدوه . . »

و ... ...

– يا ولدى العاق . . ارجع عن غيك ، أفق لرشدك ، واعرف أن الله يقبل توبة الخطائين أمثالك .. وقد قال النبى صلى الله عليه وسلم :

« كل ابن آدم خطاء . . وأحب الخطائين إلى الله التوابون . . »

وفى الحديث القدسى :

« يا عبادى إنكم تخطئون بالليل والنهار . . وأنا أغفر الذنوب جميعا فاستغفرونى أغفر لكم . . »

وأنصحك — إذا كنت ابنى عصام الذى أعرفه ، بأن تكف فورا عن السير فى طريق الغواية الذى تسير فيه مخدوعا بأفكار كاذبة ، وأوهام خادعة ، وأنا أعرف أن الحياة مليئة بأسباب الفتنة ودواعى الغفلة ، لكن اعلم أن عملك ، بل أعمالك السيئة على كل لسان الآن فى البلدة . . وأخشى ما أخشاه أن تلقى بنفسك إلى التهلكة . . وهذا مصير لم ولن أحبه لك و . .

... ...

... ...

سأله الجعفرى بخبث شديد :

— هه . . ماذا تقول يا عصام ؟ . . لقد شهد شاهد من أهلك . . وأى شاهد . . أم تراك ستقول أن والدك . . لا سمح الله . . كاذب ؟ ! . .

... ...

... ...

صدم عصام بالسؤال ، كان يتوقع شيئا مثله ، لكنه لم يتصور أن يتحول خطاب والده . . إلى وثيقة إدانة له . . إن المسألة فى النهاية بين أبيه وبينه . . مسألة عائلية . . لكن الجعفرى قد شهر الخطاب فى وجهه . . دليل اتهام . . فاندهش . . فجع . . ازداد وعيه بالقهر . . وحاول أن يجد شيئا مناسبا يفعله . . يقوله . . عله يعبر عن رأيه بوضوح شديد فى الجعفرى . . . وأبيه أيضا . .

وطال الصمت . . والانتظار . . والترقب . . والحذر ! . .

... ...

... ...

● **ملحوظة :**

تذكر عصام فجأة . . ذلك السجين المجهول الذى رآه معه فى الزنزانة . .
وحاول أن يتذكر اسمه . . لكنه فشل . . كانت الأشياء مشوشة فى رأسه ،
لكن . . لقد ظل ذلك الرجل يتحدث طول الوقت كأنه يهذى . . وحاول
عصام أن يتأكد مما إذا كان قد قال شيئا لذلك السجين الغريب المريب أم لا . .
وملأه الشك وزاده ألما . .

٦ ـ الخيـــانة

تمنى عصام لو قدر على كسر عنق الجعفرى السمين ، لو شوه وجهه الأشقر الملىء بالدم القذر .. لو دفع أصابعه فى عينيه القاتمتين الماكرتين .. لو هشم أسنانه البيضاء اللامعة .. لكنه انتفض على صفعة من يد ثقيلة زلزلت قفاه ، وجعلته ينكفىء على وجهه ويصطدم بحافة مكتب الجعفرى.. وسالت دماؤه ببطء .. هذه المرة .. فما أقل ما تبقى فى جسمه المضروب من دماء .. !

والذى أدهشه حقا ، أنه نهض واقفا هذه المرة وحده ... وكان مهتزا أول الأمر .. مرعوبا .. لكنه كان واقفا الآن يحدق فى وجه الجعفرى دون أن يخشاه .. كان يحس بانبثاق ينبوع شجاعة مفاجىء بداخله ، كان قد تمكن من استحضار « زينة » من وجدانه ... من نخاعه ... من قلبه ... من نسيج عقله وخلاياه ... « زينة » الحلوة .. الرائعة ... الخمرية .. الشهية النظرات .. السوداء العينين ، الأنثى التى اجتمعت فيها جاذبية ألوف النساء وعذوبة ألوف البنات وجموح ألوف الزوجات وطموح كل البشر..

ـ زينة إننى هنا ... انتظرك على الدوام ! ..

ـ ... ...

– لماذا تصمتين أيتها الحبيبة الغالية :. ؟ !

كانا يومها يسيران على شاطىء النيل ، ومن بعيد : : : من الشاطىء الآخر : : يأتيهما صوت فيروز ممزوجا بهمس الموجات وصدقها :

« سألونى الناس عنك يا حبيبى » :

« كتبوا المكاتيب وأخدها الهوى » .

« بيعز على أغنى يا حبيبى :. » .

« ولأول مرة ما بنكون سوا ::: » :

« سألونى الناس عنك سألونى :: » :

« قلت لهم راجع عوا تلومونى :: » :

« غمضت عيونى خوفى للناس : : » :

« يشوفوك مخبى بعيونى ! .. » :

« ولأول مرة ما بنكون سوا : : » :

::: ::: ::: ... ...

– زينة حبيبتى . . أين أنت ؟ . : ألا تكفين عن جنونك ؟ : : إنك تعرفين أن حياتى لن تتماسك بغير وجودك معى .. ؟ !

قالت له .. يومها :

– لماذا لا تكون واقعيا يا عصام ؟ . . أنت تطلب منى المستحيل :. إن أهلى لن يغضبوا إذا داومنا على اللقاء سرا ، طالما أحافظ على عملى وأعود إلى البيت وفى حقيبتى ثمن الطعام ! ::

::: يومها طال الصمت بينهما ::: ثم قالت :

ــ إما أن تتزوجني ::. وإما أن نفترق ! ..

حاول عصام أن يشرح لها وجهة نظره في الزواج وإنجاب الأبناء الأقوياء :. لكنها ظلت صامتة .. ومن الشاطىء الآخر عاد صوت فيروز :

« مهما تأخر جاى :. »

« وما بيضيع اللى جاى »

« على الغفلة بيوصل »

« من قلب الضوء ... »

« من خلف الغيم .. »

« وما حد بيعرف .. »

« هللى جاى :. كيف يبقى جاى .. »

« وما بيتكسر إيمانى ..

« ولا بيتعب إيمانى ! .. »

... ...

وأطفأ الجعفرى سيجارته فى شفتى « عصام » .. فلم يصرخ ، بذل جهداً كبيراً وتماسك .. لم يجد شجاعته ليبصق فى وجهه ، سال بصاقه على شفتيه ولم يرطب « اللسعة » :: وتحمل صفعات قاسية ، واحتمل ركلات الأعوان من خلفه :: وحاول أن يتذكر اسم السجين المريب بزنزانته . : !

– أتعرفين يا أجمل البنات والنساء .. لقد خانني فتوح أفندى :: ورفض أن يعلمني الشجاعة ، وها هي رسالته دليل إدانة :. حيث لا جريمة .: بل والمطلوب اعتراف بجريمة ضد الوطن .. اضحكي يا زينة .: يا جميلة .: وتأملي الدنيا بعينيك السوداوين .. واختزني ما شئت من الإغراء والأنوثة في جسدك الشهي . . لكن . . لا تظني للحظة واحدة . . أنني يمكن أن أنساك .. ؟

وتذكر ما جرى له في الزنزانة .. والتهب شعوره بالاحتقار ::

واستيقظت شجاعته ، عندما مارس لأول مرة – منذ جاءوا به إلى هنا – قدرته على الاحتمال . وتدريجيا .. تماسك « عصام » . . وببطء . . ببطء .. انتصب ظهره .. وببطء أكثر .. أحس بأصابع يديه ثقيلة فضمها .. استطاع أن يضمها .. وتحكم في وعيه . . في حركته ، فازداد فرحه ، وأضاءت بسمة شاحبة وجهه الجريح الذى كان الآن أزرق اللون :: مليئا بالكدمات و ..

حاول أن يتذكر آخر مرة رأى فيها وجه « زينة » .. صديقته التي التقى بها في مدرجات الكلية .. وأحبها ، وعرف أنها تعمل في المساء « مضيفة سياحية » واهتم بمشاكلها العائلية وأعبائها الأسرية ، واقتنع بحبها . لكنه كان شديد الغيرة عليها .. فهي « من النوع الشهي .. » و « متى افترقنا » :: إنه لا يذكر الآن .. وحاول أن يتذكر .. كان شديد الرغبة في لقائها :: في احتوائها بين ذراعيه .. والبكاء على صدرها ..

وتذكر اسمه .. إنه « منصور » .. الفدائي الذى اكتفى بإطلاق الكلمات

والثرثرة على المقاهى :: حفيد أحد المناضلين أيام عرابى ، وابن أحد الثوار المنتحرين حديثاً .: وجليسه فى الزنزانة و ..

كان الجعفرى يقف أمامه الآن ، يحدق فى عينيه بتحفز ، وأدرك أنه على وشك أن يباغته بضربة – كالمعتاد – فى بطنه ، فقال بملء صوته الواهن .. وبرجولة أدهشته .. وأغضبت الجعفرى :

– ماذا تريد منى بالتحديد ؟ ! ::

« انكمش السجين منصور فى ركن الزنزانة ، وحاول إغراءه بسيجارة لكنه طارده بالسؤال : ماذا تريد منى بالتحديد ؟ » .

لمدة ثانية .. دقيقة .. عجز الجعفرى عن رد الفعل ، إلا أنه استدار إلى الحراس وصرفهم باشارة من يده..وجلس إلى مكتبه وأخذ يرقب «عصام» الذى لم يكن الآن مرعوبا أو محاصراً .. وإنما كان « فى حلاوة الروح » كما يسمى الجعفرى هذه الحالة التى تنتاب بعض « المتهمين » فباغته بلهجة ودود :

– اجلس يا عصام استرح !

فانحط عصام على أول مقعد أمامه ، وأحس بآلامه تجتاحه دفعة واحدة وقد فقد « بنج » التعذيب تأثيره على جراحه وأعصابه و ..

فكر الجعفرى فى أنسب أسلوب للاجهاز على «عصام» .. وتذكر ما تعلمه من أساتذة « فن التعذيب فى أمريكا » : أن تدمير الإنسان أمر متشعب ، فاذا أردت أن تستغل الإنسان وأن تتحكم فيه .. فلا بد من تدمير

مقاومته .. شلها أولا .. ثم تدميرها .. لابد من القضاء على وعيه .. على ثقته بنفسه .. على اعتداده برجولته .. بعقله .. بذكائه .. وإلغاء شخصيته تماما .. وإذا أردت أن تنجح فى ذلك فلا بد من البدء بحذر .. عامله كأنه طفل ، أعده إلى ذكريات السن المبكرة واقتحمه بليونة ولباقة و .. اقض عليه بعد ذلك بضربة قاصمة ! ..

« ... لقد أقسم السجين منصور أنه لا يريد لعصام غير مصلحته وأدرك عصام اللعبة .. »

فلم يعد يهتم بالنظر إلى عينى الجعفرى ... الذى كان يقيس المسافة بينهما قبل توجيه الكلمة القاضية .. فقد كان « عصام » مشغولا الآن بآلام لا تطاق .. لكنه كان عازما على أن يعتاد ممارسة مقدرته على الاحتمال .. فاستعان بالصبر .. وواجه نفسه بسؤال :

– هل أنت الآن يا « زينة » حرة حقا .. ويمكنك أن تعيشى أو تموتى بالطريقة التى تريدينها .. كما قلت لى ؟ أم أنك فى بعض الأحيان .. وخاصة فى مثل أوقاتى العصيبة هذه – تشعرين بأنك عاجزة عن الحركة .. وتساورك خيبة الأمل .. وتضطرين لعمل أشياء لا ترغبين فى عملها .. وتجبرين على البقاء فى زنزانة مع سجين يصر على استدراجك إلى الفخ :

تذكر – فى لحظة خاطفة كلدغة ثعبان – آخر لقاء وآخر نظرات مع زينة .. كان ذلك فى عوامة إمبابة .. فى غرفة صديقه « يوسف حنا يوسف » و ...

« أغمض عينيه ذعرا .. كان السجين منصور يقسم له أن الإنكار لا يفيد هنا .. لكننى ما زلت متماسكا رغم أن الجعفرى حطم كل أحلامى ... » .

وسمع صوت الجعفرى :

— خانتك مع صديقك .. الذى خانك هو الآخر .. لقد رأيت أنت كل شىء بنفسك .. ولا تسألنا من قال لنا ذلك .. ربما وليد الذى اعترف بكل شىء .. ربما يوسف الذى اعترف هو الآخر ... وربما أحد عملائنا — أو إحدى عميلاتنا — الموثوق فى « تقاريرهم » و .. ربما هى « زينة » نفسها ؟ !

حسم « عصام » موقفه ، صمم على أن يجرب مغامرة جديدة للفكاك من الحصار الدنىء . . أراد أن يجعل « الجعفرى » — ولو للحظة عابرة — يعرف أنه — هو السجان الشرس — يمكن أن يصاب بالفزع . . أن يشعر بالضآلة . . . أن يعانى الحيرة . . . ولم لا . . إن هناك كثيرين مثلك يا عصام ... يشعرون الآن بوطأة القهر . . وهناك كثيرون مثلك أيضاً ، ضاعت حريتهم الشخصية تحت الضغط المتزايد . . بعضهم فى سباق الحق ، وبعضهم فى مسابقات تسلق المناصب ، وبعضهم بين هذا وذاك . . مثلك يا « زينة » ! . .

و . .

قال « عصام » فجأة بصوت حرص على أن يجعله صارما قدر المستطاع :

— إننى مصغ إليك يا جعفرى . . بيه . . ماذا تريد منى . . ولماذا تطلق عميلك الغبى ورائى فى الزنزانة ؟ ! . .

قهقه الجعفرى .. فرقعت ضحكاته الساخرة اللاذعة القاتلة ، فى أذنى عصام ، لكنه لم يبال .. لقد وصلوا معه إلى المنتهى .. فماذا بعد ؟ ! . .

و ...:

أعطاه الجعفرى سيجارة . فكر « عصام » فى رفضها — احتقاراً له — لكنه كان « خرمانا » ، وفى نفس الوقت كان يريد أن يكسب مزيداً من الثوانى .. الدقائق .. لا بأس ، وليكن يقظا لألاعيب الجعفرى الذى أشعل له بنفسه السيجارة ، ودخنها بشراهة . . وأحس أنه جائع . : وتذكر أنه من أيام لا يأكل إلا شيئاً ضئيلا قاتما لا يعرف له طعما .. أو اسما ..

وتذكر أن السجين منصور عرض عليه أن يحضر له طعاماً جيداً ونظيفاً ...

وتذكر أول سيجارة دخنها خلسة من وراء أبيه « فتوح أفندى » ، كان ذلك فى جلسة مع « وليد » وبعض الأصدقاء الصغار ..قبل أن يصل «يوسف» مهاجراً مع المهاجرين من بور سعيد . وحاول أن يذكر آخر سيجارة دخنها ، كانت مع « بلطية » .. لا .. كانت مع « زينة » لا . . لا . . مع بلطية مع بلطية .. ها هو ذا يتذكر تفاصيل الليلة التى انتهت باعتقاله . .

كانوا عائدين من « حصة محو الأمية » . . فرحين بأنه هو . . تمكن من تعليم « مخيمر — تاجر الحمير »كيف يكتب اسمه بخط واضح قليل الالتواءات والتعاريج .. ورسم « يوسف » صورة مخيمر على جدار الجامع كعادته فى رسم صور الذين تخلصوا من أميتهم .. وفى حفل صبيانى مرح . . هللوا .. ورقصوا .. غنوا .. وقذفوا ختم مخيمر ، فى البحر الصغير وشربوا شايا مع « الغجر » الرحل .. الذين يقطنون الخيام على شط البحر الصغير : . وفى آخر الليل هرول إلى بلطية . . وشرب معها البيرة ودخن السجائر وأمتعها وأمتعته .. وحكى لها عن حبيبته القاهرية «زينة»وضاحكته بلطية :

– أغار منها .

قال لها عصام :

– هى مثلك تماما .. لكنها ما زالت طالبة بالجامعة .. وتعمل أيضاً . . حلوة مثلك .. دافئة مثلك .. شهية مثلك ، صريحة مثلك ، لكنها تصر على الزواج ؟ !

ولامته بلطية :

– الزواج سترة لمن فى سنها ؟ ! . .

– لن تفهمى .. لأننى لا أفهم نفسى ؟ ! ..

و ..

وليلتها اعتقل « عصام » وأجهضت كل أحلامه ، وظن أنه لن يجد الوقت ليفهم لماذا خانته « زينة » مع .. يوسف .. و ..

فاجأه سؤال الجعفرى :

– أين كنت .. يا سيد عصام ؟ ..

وانتبه عصام .. أحس أنه غاب أكثر مما يجب ، عن كل الأشياء البشعة المحيطة به لمدة سنوات . . وتبادلا النظرات بحذر شديد ثم باغته عصام بسؤال .

– تريد أن تعرف أين كنت حقا ؟ ! . .

تضاحك الجعفرى وقال بخبث شديد :

– أعتقد أن كل إنسان منا يحتاج أحيانا إلى صديق يثرثر معه !

قال عصام والألم يمزق قلبه :

– كانت لى صديقة غالية .. اسمها . . لا . . لن أقول لك اسمها .. كنت أقول لها على الدوام « يا ابنة الشمس والنار » سأسير إليك على درب طويل .. على نغم الحق والعدل .. وستكون شفتاى مغلقتين . . ولن أستطيع أن أغنى الأغانى القديمة .. ولكن .. كل شيء قد انتهى .. ذهب .. تبدد فى لحظة جنون ..

فصاح الجعفرى مدعيا الاهتمام :

– خانتك !

وانتفض عصام واقفا .. وقال بحقد شديد :

– لا أعرف ماذا أقول لك . . إنك تفجر أحزانى . . تثيرنى . . بطريقة غير لائقة .. لقد كنا نسير ونحن نيام .. كان بعضنا يسير بخطوات بطيئة .. وبعضنا يلهث.. وبعضنا يهرب .. لكننا كنا نياما ... إلى أن وجدنا أنفسنا هنا ... وفى داخلنا حزن يتحدى كل إغراء ! . .

وقهقه الجعفرى ، وقال بخبث أشد :

– اسمع يا عصام .. ليس عندى وقت – لسوء الحظ – لأضيعه فى سماع تخريفاتك وهذرك السخيف .. دعنا من كل هذا .. اصغ لى جيدا.. ففى ذلك مصلحتك ! ..

وصمت لحظة عبث خلالها بملف عصام ، ثم قال :

– لن أطيل عليك .. لأنك ربما كنت فى حاجة إلى كل دقيقة لتخرج

من هنا وتستكمل بحثك عن « زينة » . . هه . . افهمني جيداً . . . فهذه فرصة العمر أعطيها لك و ... دعنا نبدأ من جديد .. ولنكن أصدقاء ! . .

وعاد يصمت لحظة .. وجذب نفسا من سيجارته ، ثم قال :

– لقد أعددت لك الاعتراف كاملا . . وما عليك إلا أن توقعه وأن تقنع زميليك الطائشين بأن يوقعاه معك .. إذا أردتم النجاة بجلدكم ! ..

و . .

ضحك عصام . . وجد نفسه يضحك . . ورد المباغتة بأحسن منها ، عندما قال للجعفري :

– لكنني أحب أن أسجل اعترافاتي الحقيقية .. وبخط يدي فلم أتعبت نفسك في تزييف اعترافات كاذبة ؟ ! ..

فقال الجعفري بفرح نسي إخفاءه :

– إذن ستتكلم ؟ ..؛ عين العقل يا عصام .. عين العقل يا ولد ؟ . .

فقال عصام بعناد أكثر :

– نعم سأتكلم يا جعفري .. بيه ، سأقول كل شيء ! ..

فأمر الجعفري باحضار أوراق . . وقلم . . وآلة تسجيل . . وسأل عصام :

– قهوتك سادة .. والا مضبوط ؟ ! ..

فقال عصام :

– على الريحة ؟ ..

وابتسم وبذل جهداً مضاعفا ليحتمل آلامه المبرحة .

ثم خطر له أن الأرض تغطيها الآن – وفى هذه اللحظات السخيفة – بقع الدم . . وأنه ستسيل دماء أكثر قبل تحقيق الوعد الذى همس به فى أذن « زينة » . . وناقشه مع أصدقائه . . واشتاق إلى « زينة » . . لا يعرف هل خانته أم هو الذى خانها . . وأين ذهبت يا ترى . . و . .

أعطاه الجعفرى سيجارة أخرى . . وأعد الأعوان الأوراق لتسجيل الاعترافات ، لكن عصام ظل يمارس لعبة مسلية للغاية وهى أن يبادل الجعفرى النظرات الحذرة . . وأخيراً قال :

– هل آخذ الأوراق والقلم معى . . إلى الزنزانة . . لأكتب بحرية أكثر ! . .

وفكر الجعفرى لحظة ، ثم سمح له بذلك . . وأضاف :

– خذ حذرك . . إننى عند وعدى . . بفرصة العمر . . لكن عقابى سيكون فوق كل ما تتصور إذا . . .

وقال عصام بلا مبالاة :

– أعرف . . أعرف ! . .

وهمس لنفسه .

– آه لو تعلم يا جعفرى الكلب ما سأقوله ؟ ! . .

... ...

... ...

● **ملحوظة :**

استدعى الجعفرى ، السجين منصور وضربه على قفاه بمودة ثم أمر له بعلبة كبيرة من السجائر وكوب شاى ، وقال : لا أصدق ما حدث . . ثم أمر بحبسه فى زنزانة « وليد » ! . .

٧ ـ جواب حب

. . كانت الصورة عارية تماما . . وصريحة أيضا . . الإثارة كلها فى عينيها السوداوين . . والإغراء فى شعرها المنثور كأشعة الشمس وضوء القمر حول وجهها وعلى كتفيها . . والشوق كل الشوق فى شفتيها المنفرجتين عن أسنان كاللؤلؤ . . والأنوثة فى عنقها وصدرها وبطنها وانسياب فخذيها واستدارتهما ، والعطش كل العطش يشع من كل خلايا جسدها الفوار بحيوية كأنه الحياة ذاتها . .

. . هكذا . . وبنص الكلمات ، وصف أحد المراهقين لوحة « جواب حب » . . الفنان « يوسف حنا يوسف » . . الطالب بكلية الفنون الجميلة ، وتنبأ له فى السطر الأخير بأنه « فنان السنوات القادمة » . . لكنه — هذا المراهق — لم يترك توقيعا يرشد « الجعفرى » إليه ! . :

و . . . .

قلب الجعفرى صفحة أخرى من الملحق الثالث بملف يوسف وقرأ كلمة لأحد الطلبة ؛ على منشور به نفس اللوحة « جواب حب » :

— إن أهم ما فى لوحة « جواب حب » . . ليس الصدق الفنى الملحوظ فى كل ألوانها وخطوطها والتنغيم الأصيل بينهما وبين خلفية الصورة فقط ، بل الأهم فى رأيى هو تلك الكلمات الساخنة التى نسخها « يوسف » فى ثنايا

اللوحة . . وعلى ذراعى وكفى وساقى وقدمى وبطن وصدر وعنق وجبهة الفتاة العارية التى أبدعها خيال هذا الفنان ، وعلينا أن نتأمل هذه الكلمات جيدا ، لنقرأ ما بين سطورها . . بل وما فى باطن أحرفها النارية أيضا ... لكن هذا الطالب لم يترك سوى كلمة « طالب معرفة » كتوقيع على المنشور ! . .

... ...

كان الجعفرى الآن أكثر توترا ، وأشدعنفا فى بحثه ملفات « يوسف ».. وتحديد موقفه بدقة من « القضية » فى هذه الساعة المتأخرة من الليل ! . .

كان يجلس فى فراشه ، فى ثيابه المنزلية الأنيقة ، وحيدا فى حجرة نومه.. وأمامه زجاجة الشراب وبعض الأطعمة الخفيفة ، والسجائر المختلفة الماركات الأجنبية . . و . .

كان يعانى الآن من زهق شديد وقرف من « أولاد الأبالسة » ومن غياب زوجته ... فعاد إلى ملف « يوسف » وملحقاته ، وفتح حرزا وأخرج منه فيلما ملونا قصيرا . . ووضعه فى آلة العرض الخاصة بغرفة نومه وأطفأ النور ، وأدار الآلة وحدق فى الشاشة .

كانت الصورة العارية أمامه الآن بحجم مضاعف عدة مرات ... كانت واضحة فى كل التفاصيل ، وفى لحظة اشتهى البنت ، ثم تذكر أنها مجرد لوحة وتساءل :

—كيف رسمها الكلب بهذه الدقة ؟ ! . . خطيبته هدى ليست جميلة مثل هذه البنت . . لقد رأى صورها فى الملف . . وقرأ التقارير الخاصة بها ، إنها سلبية ، أرنبة مذعورة بمعنى أدق ، فكر فى استدعائها مرة لكنه

أجل المسألة ، أحس بتفاهة دورها فى « القضية » . . إذن : كيف . . وأين ومتى التقى « يوسف » بفتاة استلهم منها هذه الصورة ؟! . .

وسرعان ما انتبه إلى انتهاء الفيلم ، فأعاد عرضه ببطء ، ثم ثبت الصورة ، وقام يقرأ الكلمات المنقوشة على جسد البنت :

....

على قدميها : « لا تهتمى به . إنه القزم الذى يرقص لسيده ، إنه هو البهلوان الذى يفرح به قلب سيده . . لكنه سيظل قزما مثل كل الأقزام من أمثاله وأمثال سادته ! »

وعلى فخذيها : « يا أيها الملاح فى مياه القرابين ، هات لها أحسن السفن . . وأسرع . . إن النهار يولى . . وينبغى أن يجىء نهار أعظم ... فهى قد ولدت لزورق الصباح الدائم ! ... »

وعلى بطنها : « كفى . . لا تحملى إلا الرجال . . من أصلب الرجال . . فالشجاع هو الذى لا يدعك تسمعين للغربيين . . ولا يدعك للشرقيين . . إنه لا يترك مقاديرك لمن هم فى أواسط الأرض . . لأنه يحلق بك بين النجوم كالنسور »

وعلى صدرها : «افتحى قلبك على الدوام لأولادك البسطاء ... وعلميهم أن يفتحوا قلوبهم لبعضهم بعضا ... حتى لا يختزنوا الأحقاد أو الخوف . . ويتعلموا على صدرك لغة المكاشفة ! . . »

وعلى جبينها : « إن الوهن يحل بنا كل يوم ... والذكاء يخبو فاحترسى ... خذى حذرك من قتلة الأحلام ... يا عين حور ... ! »

امتعض الجعفرى : : وأشعل لنفسه سيجارة ، وحدق فى شعر البنت . . كان فوق . . وبين خصلات شعرها الطويل المتطاير فى عرض وطول الأفق خلفها وحول كتفيها . . كلمات كثيرة . . منثورة بطريقة « عشوائية » — كما بدت له — وحاول أن يقرأها : الموسيقى ... صليل السيوف ... تتلاحم « الحصار » الخصوم ... « الليل إذا يغشى . . » وجه حبيبى يهدى الحيارى .. « والتين والزيتون » إياك أن تبدى شيئا ... « هذا البلد الأمين » ... كيف أستطيع أن أعطى الحب . . « فك رقبة » .. العالم يزداد عنفاً وقد مللت هذا . . و « لم أك بغيا . . » . . « تشرق الشمس من عينيك » ... إنه أمر لا أرتاب فيه ؟ ! ... وبخط كبير واضح لا التواء فيه كتب عند الأفق « يا أبى الذى فى السماء النجدة ! »

....

نفخ الجعفرى من شفتيه نفسا حانقاً مليئاً بالقرف والضيق ... وتمشى ببطء أمام الصورة المثبتة على شاشة العرض ... وحاول أن يرتب أفكاره ، ثم أعياه التفكير . إن هؤلاء الأولاد . . أشرار فعلا . . إنهم نوعية غريبة مختلفة تماما عن الذين اعتاد التعامل معهم ... إنهم فى حاجة إلى جهاز كامل من العلماء فى التشريح والنفس والتاريخ والرسم . . وال . . إنه فى ورطة حقيقية هذا ما أحسه بصميم عقله وقلبه . . و . .

ابتلع كأسه دفعة واحدة . . وعرض لنفسه فيلما ترفيهياً من مجموعته الخاصة التى يحسده عليها معارفه من الكبار ... أصدقاء الليالى الماجنة . . واستمتع حتى أعماق أعماقه وهو يتابع المشاهد الوقحة . . وامتزجت النشوة بدمه وأسكرته وهو يرى ما يفوق الوصف من مشاهد العرى : . و ...

::::: ::::: :::::

فى مرة ... ربما كان ذلك بعد زواجه من « فيفى الشقراء » بأيام . . بأسبوع . . بشهر . . أعلنت « فيفى » تبرمها بعجزه الجنسى ، وفى مرة أخرى صارحته بضيقها من حياتهما معا . . فقال لها :

– لقد عرضت نفسى على أكبر الاخصائيين فى أوربا وأمريكا ... أثناء بعثاتى إلى هناك . . وضحك وقبلها – قالوا لى أن أجازة طويلة من عملى المرهق ، كفيلة بحل كل مشاكلى الجنسية ، وأنا – يا حياتى – أتمنى ذلك ، لكن المسئولين يرفضون حصولى على أجازة حتى لمدة يوم واحد ... أنت تعرفين – يا حياتى – إن عملى هام جدا . . تعرفين أيضا أن « الادارة » لن تفلح فى عمل شىء لحماية الأمن العام بغير وجودى أنا . . لذلك أرجو أن تحتملى ... إننى لا أبخل عليك بشىء ... وأحاول أن أعوضك عن كل شىء بوسائل أخرى تمتعك ... أليس كذلك ... ؟ !

ثم انكفأ على فخذيها يلعقهما بلسانه باشتهاء مباغت أفزعها ، وجعلها تنهض وترتدى ثيابها ، وهى تقول ، لمداراة انفعالاتها واضطرابها :

– لنذهب إلى السينما ... ؟!

وليلتها شاهدا فيلما ممنوعاً لأقل من ١٦ سنة ، وعادا متعبين ، وآخر الليل همست له :

– إننى مدعوة لقضاء آخر الأسبوع فى عزبة « فلان الفلانى » . .

فقال راضيا :

– كنت أتمنى لو أننى جئت معكما . . لأهرب من حياتى المملوءة بالمؤامرات وتوتر الأعصاب ... وعلى كل ... أتمنى أن تجدى الوقت المناسب لكى تمرحى وتعيشى حياتك يا حلوة ! . .

وادعى اليأس والقنوط من الحياة ، فأثار – كما أراد – شفقتها وجعلها تنسى تورطها فى زواجه ، وقالت له :

– لا تقل هذا ... إننى فخور بك ... وكل صاحباتى يغرن منى بسببك ويحسدننى عليك ... إنك الجعفرى وكفى ! ...

وتمددت ثقته بنفسه وازداد غرورا ، وقال :

– إننى لا أفكر فى هذا يا فيفى . . لأنك أغلى ما عندى . . إن عملى وظروفه الخاصة والسرية والخطيرة ... كل ذلك يمنعنى كثيرا عنك لكن... عندما تكونين بجوارى فى مثل هذه الليلة الحالمة ... لا أفكر إلا فى دفئك .. وأضمك هكذا إلى صدرى ولا أعبأ بشىء سواك .. إننى – وصدقينى – أعشقك .. وإذا كان الجميع يخافون منى فاننى لا أخاف إلا من شىء واحد .. وهو أن أفقدك ... فأنت أهم وأغلى شىء فى حياتى ... وكل شىء يهون أمام أنفاسك هذه التى ترسلينها فى وجهى وأنت نائمة كقطة أليفة وفى حضنى ، وأنا ساهر بجانبك كالكلب الأمين .. وبمجرد أن تستيقظى أختبىء فيك . . أختبىء فى وجودك . . وألقى بنفسى فيك .. إننى أعيش خلالك .. فيفى .. هل تتخيلين حياتى بدونك ؟ وعاد يلعق فخذيها باشتهاء . . وأصابعه تغوص فى لحمها وتثيرها وتجعلها تزداد ضيقا . . وتمنت لو تقول له أن أغلب كلماته التى قالها الآن كانت فى حوار بعض الأفلام التى شاهداها مؤخرا معا. لكنها قالت بامتعاض :

– هناك شىء – فى النهاية – يجمع بيننا .:. ويحول دون أن نفترق ! ...

و ...

....

ونام الجعفرى – مرهقا – قبل أن تعود زوجته ، « فيفى الشقراء » من العوامة ... حيث كانت تستمتع – الآن – لأقصى درجة بالحب والرقص واللهو مع صديقها العفى القادر على إشباع كل جوعها وإطفاء عطشها الطاغى ! ... و ...

لم يكن أحد يقدر على التخمين – فى هذه اللحظة – بما يدور فى رأس الجعفرى . الذى يغط فى نوم عميق – وما يدبره « للأولاد الثلاثة » الذين جعلوه – ربما لأول مرة فى حياته – يحس بالضآلة ؟

● **ملحوظة :**

كان السجين « منصور » يثرثر الآن فى سكون الليل . . مع « وليدالزناتى خليفة » . . كان يحكى له بعض مغامراته النسائية ... ويضحك ، ثم انهار باكيا ، وقال : « لقد كنت فى حياء العذارى قبل اعتقالى .. كنت أحلم بالبقاء بجوار زوجتى الحلوة لأرقب حملها يعلو .. يعلو .. وينمو .. انتظارا للحظة الميلاد والأبوة ... لابد أنها أنجبت بنتا جميلة وسمتها وفاء ... لابدأن اسمها وفاء ... فقد حلمنا بذلك كثيرا ...

وصمت منصور . . فسأله وليد :

– ولماذا اعتقلوك ؟ ! ...

فضحك منصور .. وقال : لأننى ألقيت بيانا هاما فى حديقة الحيوان ؟؟ وقهقه وسأل وليد : وأنت . . لماذا اعتقلوك ؟

وانتبه وليد وأدرك أن منصور يجرجره إلى فخ مريب ، فصمت ؟

٨ ـ نادية .. ذات العينين العسليتين

كان لها أصدقاء كثيرون . . هكذا عرف « وليد » من « نادية » منذ تعارفا . . وكان ذلك مبعث غيرته على الدوام . . . حدثها فى الأمر مرات عديدة . . . وقال لها :

— لو كان لك صديق واحد . . لهان الأمر .. لكنهم كثيرون !

ويومها ضحكت « نادية » وبدت أكثر شبابا .. وتألقت عيناها العسليتان الغامقتان ، كان ينجذب إلى عينيها ، ويرى أن لونهما يثير الانتباه . . . : كان يحلو له أن يتابع لونهما العسلى الفاتح نهارا ، والغامق ليلا ، اللامع فى الظلام ، المتألق بكل ألوان السحر والجاذبية عندما يضمهما الفراش فى منزلها . . . !

صارحته نادية :

— إننى أرملة يا وليد . . أتفهم ما تعنيه كلمة أرملة . . مات زوجى هناك مع غيره فى مجزرة ممر متلا . . وكنت فى حياته « سيدة اجتماعية » وكان لنا أصدقاء ... ولم اعتد الانطواء . . ولا أحتمله ! . .

وليلتها قال لها وليد :

— إننى على استعداد للزواج منك الآن . . فورا ! ..

فأخذته فى أحضانها ، وقالت :

— لا أحب لك ذلك ! . .

وصمتت . . فأثارت دهشته وغضبه ، و قال لها :

— لا أصلح لك . . تقصدين ؟ !

فنظرت إليه بعينيها الآسرتين وزمت شفتيها الدسمتين .. وبدت بوجهها الحمرى المستدير وأنفها الدقيق ، وشعرها « الأسمر » الناعم أكثر إثارة رغم جديتها الواضحة فى تلك اللحظة ، وقالت :

— افهمنى يا وليد ، إن أية إنسانة عاقلة تتمنى الزواج منك . . . فأنت شاب طموح . . وممیزاتك تفوق الحصر والخيال فى هذا الزمن . . لكن المشكلة فى أنا . . إننى لا أصلح لك ! . .

— لا أفهمك يا نادية ! . .

— لأنك لا تعرف عنى شيئا ! . .

— إننى أعرف شيئا واحدا هو أننى أحبك ! . .

وصمتا لحظات طويلة . . دخنا خلالها سيجارتيهما . . واحتسيا بعض الشراب .. وأخيرا قالت نادية :

— لقد أحببت زوجى لدرجة أننى كنت أعتقد أنه لا شىء فى الدنيا يقدر أن يفرق بيننا . . لكن . . ها هو قد مات . . وهأنذا قد هزمت وطعنت فى كبريائى . . وثقتى بنفسى ! . .

— كل شىء يمكن حدوثه . . وكل جرح يمكن علاجه ! . .

— هذا صحيح .. لكن .. ما تبقى منى . . لا يصلح لك.. لا يرضيك.. لا يكفيك . . إننى عطشانة . . هل تشرب معى كأساً !

وملأ كأسها . . وأشعل سجارتها وجلس بجوارها دون أن يتكلم . . .
فقالت :
– تعديت الثلاثين من عمرى بكثير . . على أبواب الأربعين ! . .
فداعبها وليد :
– سن النضج . . كما يقولون ! . .
ضحكت نادية . . وقالت :
– إن المشاكل تثقل عمرى . . وحياتى كلها . . هناك أقساط وفواتير . . ومصاريف أسرة . . لابد أن أدبرها كلها . . وأصدقائى يعينوننى على الوفاء بالتزاماتى . . . والوقت غير مناسب للتخلص منهم . . . ثم . . . إنها تركة عمرها عشرون سنة . . منذ مات أبى . . . منذ صرت مسئولة عن أسرتى . . منذ أن تزوجت من المرحوم الذى كان محبا للترف . . والحياة السخية . . لكنه عندما اغتيل فى سيناء . . كان رصيده فى البنك قد نفد من زمن . . و . . ماذا أحكى لك يا وليد . . دعنا من هذا الشقاء . . واغنم من الحاضر لذاته . .
وضحكت وبكت ، وقالت أنها عطشانة . . . وشربت . . حتى ثملت ونامت فى حضن وليد . . طوال الليل ! . .

. . . .

. . . .

كان وليد يعتقد – طوال الوقت – أن «نادية» . . طفلة بالنسبة لأصدقائها القادرين على دفع ديونها وإعاشتها فى ظروف الهزيمة . . . وكان يرى أنها ضحية مؤامرة دنيئة دبرت لها سرا لاحتوائها وامتصاصها على الدوام . . . فالجميع يحرصون على إذلالها ، وإجبارها على الركوع . . والتجويع سلاح سهل إشهاره فى وجهها كلما بدت محاولة تمرد على البذاءة المحيطة بها . . .

هكذا كانت « نادية » فى نظر « وليد » على الدوام . . وكانت أيضاً تبدو نضرة . . متفتحة . . سخية العطاء . . لكنه لم يكن مستعدا للاعتراف بفشله فى إنقاذها . . كان يكن لها أحلاما كثيرة . . يتعجل إنهاء دراسته الجامعية ليحصل على الوظيفة من أجلها هى لكنه اعتقل فى منتصف الطريق . .

لم يكن هناك مفر من أن يصارح نفسه الآن ، فى ظلام الزنزانة المخيفة بفشله ، وبضياع « نادية » منه . . وازداد شقاؤه ، وضرب بلاط الزنزانة بقبضته ، ولعن الأيام السوداء وهتف . . هتف من قلبه وعقله بلا صوت — حتى لا يسمعه السجين منصور :

— نادية ، يا عين حور . . يا معبودتى وبدايتى ونهايتى ! . .

ود لو يحكى لها عن القهر الذى تعرض له هنا . . ود لو أخبرها بما فعلوه به . . برجولته . . ود لو اعترف لها بأنه متعب . . ويخشى ألا يحتمل المزيد . . ود لو أنها جاءت إليه . . تسللت عبر النافذة الحديدية الضيقة فى سقف الزنزانة ، مثل بريق النجوم الشاحبة فى قبة السماء . . ود لو أنها الآن بجواره . . تمسح جراحه وتشفى روحه من يأس يجتاحها . . ود لو منحته جرعة شجاعة هو فى مسيس الحاجة إليها الآن ، ود لو رأى عينيها العسليتين الغامقتين الزاهيتين بشتى ألوان البهجة والحياة . .

كان ذلك يوم . . . .

....

فى الحفل السنوى بالجامعة . . كان فى عامه الأول بالجامعة . . والقاهرة معا ... عندما تعارفا . : شدت انتباهه بجمالها وبساطتها واهتمامها بتهنئته بحرارة عن أداء دور « هاملت » ، كان يؤدى الدور أمام إحدى زميلاته

الممتازات ... وكانت « نادية » هى شقيقة زميلته « سامية » التى لم تعد هى « أوفيليا » بالنسبة له منذ ذلك اليوم ، فقد أسرته « نادية » ..

....

....

أخبرته « نادية » – فى إحدى الأمسيات – أنها تمارس حياتها دون رقيب ... أسرتها تثق بها إلى آخر مدى ... صديقاتها يقلن عنها أنها « صاحبة الفضيلة » أو ... المتحدث الرسمى باسم الفضيلة على ظهر الأرض . . وقالت أيضا :

– ليس معنى ذلك أننى ملاك يا وليد ... إننى امرأة ... على كل حال لكننى لست كما تظن أو تتوقع ، إننى لا أتاجر بأنوثتى .. إننى من مصر أتفهم هذا ... أملك سيارة ... لكننى لا أدخن فى الطريق العام مثلكم يا رجال .. ولا أمارس حريتى كما أشتهى ، ولا أعرف الشقق المغلقة ، شىء مفزع . :. هه ! ... لست مثالية ... لكننى لا أدعى الاستشهاد ، وكنت أود أن أظل عذراء حتى اللحظة التى التقيت فيها بك أنت ... لكن ... لسوء الحظ ... التقينا بعد أن كنت قد صنعت لنفسى . .. أو صنع لى الآخرون حواجز هائلة من المشاكل ... لن أقدر على تخطيها بمفردى . . . وأنت وحدك لن تقدر على إنقاذى ! ...

....

وفى مرة قال لها وليد :

– « نادية » ... هل تأتين معى لزيارة أهلى فى الريف ... إن خروجك من ليالى القاهرة ، سيفيدك ... النهار فى قريتى ساطع ... نظيف ... رائحة

الأرض ستملأ وجدانك بالثقة والأمل ... ستغسل أحزانك ... جربى ؟:.

فقالت له :

ــ أحلم بالعيش فى الريف ... أحلم بالانطلاق تحت الشجر وسط الحقول ... والاستحمام فى الترع ... ولكن ... هل تجرؤ حقا على اصطحابى معك إلى قريتك ؟ !

هم أن يجيب ... لكنها أسرعت تضيف :

ــ لا تتسرع ... ماذا ستقول لهم ؟ ! ... صديقتك ؟ ! ...

عشيقتك ؟ ! .. زوجتك ؟ ! ... إنها مأساة يا وليد فى كل الصور ! .. :

....

....

وفى مرة ... قالت له بصراحتها المعهودة :

ــ النساء الناضجات مثلى ... لا تروق لهن مصاحبة الشبان فى سنك ... إنك وسيم إلى حد ملحوظ ... وتبدو كعشيق مأجور ! ...

وقاطعها وليد بعنف :

ــ ألاحظ ميلك الشديد للابتعاد عنى . هل مللت ؟ ! ...

وغضبت منه ... وغضب منها ... وافترقا ... شهرا ... ثم التقيا فى عربتها « البيجو الزرقاء » ... فى طريق الهرم ... فى طريق الفيوم ... ولم يعاتبها ... لكنها صارحته :

لا أريد أن أثقل عليك بمشاكلى ، دعنى ... وتفرغ لدراستك ومستقبلك ! ...

وصارحها :

– أنت مستقبلى ! ...

قبلته ... وقالت :

– لا تنس هذا ... وعموما ... عليك أن تفهم ... إننى فى حاجة إلى ألوف مثلك لإنقاذى من ورطتى الاجتماعية والسياسية ! ...

ضحك « ليد وقال :

– الاجتماعية مفهومة ... لكن ورطتك السياسية ... صعبة حبتين !

فقالت :

– ألم يقل كتابك الذين تعجب بهم... أن الإنسان حيوان سياسى بطبعه وإننى – تبعا لذلك– لا أعيش معزولة من مشاكل العالم وكلها...سياسية... أليس كذلك ؟ ! ...

وأضافت :

– ثم ... إن زوجى استشهد عام ١٩٦٧ لأسباب سياسية ... قد تخصنى أو لا تخصنى لكنه قتل ... وهأنذا أعانى من هزيمته . . . ألست أنا . . . السياسة ذاتها ! . . .

و ... ضحكا ... وحزنا ... وتبادلا القبلات ، والمواساة ... وازداد عطشهما ليوم ملىء بالأمن والأمان ... و... ....

....

قبيل اعتقاله بأيام ،.. رآها لآخر مرة ... تعشيا معا ... وأخبرها أنه جاء إليها بسيارة « سهير » فأعلنت غيرتها ، فأخبرها أنه لن يحدثها فى التفاصيل إلا بعد عودته ، وأنه يطلب منها الدعاء ليعود سالما . . . بعد أن ينفذ « المهمة » . . .

سألته « نادية » بقلق :

– أية مهمة ::: يا وليد ؟ ! ...

قال :

– مهمة ... سرية ؟! ...

سألته ضاحكة :

– فتح عكا ... مثلا ؟! ...

ابتسم وقال :

– تقريبا ! ...

هللت وصفقت وملأت له كأسه ... وقالت :

– إذن فأنت ستفتح عكا ... عظيم ! ... أوصيك خيرا بسيناء ! ...

وبكت ... امتزجت دموعها بضحكاتها بدخان سيجارتها بأنفاسها معا فى قبلة الوداع ... وتمنى لو صارحها بالأمر الذى كلف بتنفيذه فى مكان مجهول له حتى الآن ... لكنه تماسك ... و .....

لم يكن يعرف أنه لن يراها بعد الآن ... ليته كان يعرف أنه الفراق الطويل، إذن لاحتواها فى حضنه للأبد ... لالتصق بها ... وظل بجوارها ... لكن ... لقد قالت له فى آخر اللقاء الأخير :

– إنك ما زلت طفلا يا حبيبى ... أراك متعبا ... إنك فى حاجة إلى قسط وافر من النوم لتستريح ... لتسترد عافيتك ... ليكتمل نموك ... أنك تبدو وكأنك ولدت أمس ... عمرك يومان فقط ::: أليس كذلك ...؟

وضحكا ... وقال لها :

– إلى اللقاء ! ...

سألته .

– متى ؟! ... لا تتأخر يا وليد ! ...

و . .

آسف يا حبيبتى ... معذرة يا ناديتى ... أيتها الغالية ... لقد تأخرت عليك ... لكن ... بالرغم منى ..

وحاول منصور جره إلى الحديث مرة بعد مرة ... سأله : فيم تفكر يا رجل ... فلم يجبه ... قال له نكتة فلم يضحك ... قدم له سيجارة فلم يأخذها ... و .....

....

....

فى السادسة صباحا ، كان الجعفرى يقتحم طرقات المعتقل متجهما أكثر مما اعتاد ... فأثار فزعا مضاعفا فى نفوس الحراس والأعوان ...

وفى الساحة الواسعة بدار محمد على باشا ، وقف بين أشجار الكافور الطويلة ، وأخذ يرقب طابور الصباح وانتعش عندما رأى المساجين عراة يلهثون فى طابور طويل ، وخلفهم تجرى كلابه المسعورة المدربة على نهش اللحم البشرى ، وإثارة الفزع والرعب فى قلوب العراة الذين يلهثون أمامه الآن ، معلنين عن جبروته وسطوته للملأ أجمعين ...

وبعد دقيقة واحدة استدار إلى مكتبه ، دون أن يلقى بالا لهؤلاء المعتقلين الذين تمكن ببراعته من إجبارهم على الاعتراف بصحة التهم التى نسبها إليهم ، وجعلهم مجرد أدلة جديدة على براعته الفذة فى إنهاء القضايا الخطيرة ...

و ...

ضغط الجرس ، واستدعى الصول عبد الحق ... الذى يظن أنه يمكر عليه بتماسكه ، ومبالغته فى الشراسة مع المعتقلين ، لكن الغبى لا يعرف أن « الجعفرى » – « كاشفه » – ويعرف تماما طبيعته ... بل إن الجعفرى يحتفظ به – ضمن أعوانه – لأنه يعرف جيدا ، ضعفه الشديد أمام المضروبين ، وأبوته العبيطة تجاههم ... وهو بذلك يعتبر إحدى الورقات الرابحة فى يد الجعفرى ... فهو يحتاج إلى « اصطناع » جو من الرأفة بالمعتقلين ، وهو أصلا عاجز عن ممارسة هذا القدر من الحنان ، ولا يحب أن يبدو ضعيفا أمام المتهمين ... مهما كانت الأسباب ... والصول عبد الحق قادر على ممارسة هذه اللعبة ، و ... لهذا استدعاه ...

و ... ما أن وقف أمامه ، بقامته النحيلة التائهة تحت بدلته المتهدلة ... حتى بادره الجعفرى بكلمات ودود ... فاطمأن « الصول » قليلا وامتثل للأوامر بصمت شديد ...

– لا تفارق وليد ... اليوم ... أريدك معه لحين صدور أوامر أخرى ... ولا تنس أن الكلب منصور هناك ! ...

فانتصبت قامة عبد الحق ، وهتف بأدب شديد :

– تمام يا أفندم ! ...

واستدار ... وبالخطوة السريعة ، غادر الغرفة ... وانطلق يجتاز الطرقات المظلمة ، وما لبث أن تمهل ، وجفف عرقه الذى نشع بغزارة من مسام وجهه وعنقه وشعره ... برغم برودة الجو .؟.

وأمام باب زنزانة « وليد » ... توقف « الصول عبد الحق » ، منشغلا عن الحرس الذى أدى له التحية ... لقد أفزعه السؤال :

– ماذا يقصد « الجعفرى » بذلك ... هل تراه لمس شيئا ... هل عرف أننى ... ...

وتلفت حوله بقلق ، وداهمه خوف اجتاحه من كل الجهات ولم يعد قادرا على التخمين بمصيره ! ...

و ... عندما دخل من باب الزنزانة – رأى « وليد » يصلى ، وهو جالس القرفصاء ، مستندا إلى ركن الزنزانة ... وسمعه يتلو :

– بسم الله الرحمن الرحيم ... « كلا إن الإنسان ليطغى ، أن رآه استغنى ، إن إلى ربك الرجعى ، أرأيت الذى ينهى عبدا إذا صلى ، أرأيت إن كان على الهدى ، أو أمر بالتقوى ، أرأيت إن كذب وتولى ، ألم يعلم بأن الله يرى » ...

....

أمر « عبد الحق » السجين منصور بالانصراف فورا ... ثم ... وقف خاشعا ، وظل فى صمته حتى أنهى « وليد » صلاته ... و ... لم يتكلم حتى رحب به « وليد » :

– أهلا ! ...

اقترب منه « الصول » وتمنى لو عانقه ، لو أخذه فى حضنه ، لو قال له أن يحتمل ... وأن يصبر ، وأنه ... هو ... عبد الحق ... يود لو فعل شيئا له ولزميليه ... ولكل زملائهم المهانين فى القلعة لكنه ... أضعف من نملة هنا و ... ...

اخترقت زقزقة عصفور من طيور الجبل ، جدران الزنزانة ، و ... وصلت إلى عقل وقلب «وليد» ... فتعلقت عيناه بنافذة السقف ... وحاول أن يرى السماء ... النور ... الشمس ... نادية ... عيون نادية ... وجهها الوضاء و ... ...

فى مشهد بانوراما ... عريض ... عميق ... خاطف ... رأى بلدته ... رأى أباه ... « الزناتى خليفة » ولم يكن قد رآه منذ كان طفلا وعرف أنه مات مقتولا ... ورأى جدته المومياء فى ركن الدار ... ورأى أخته أمينة ، وابنها خالد ... وزوجها الشيخ تهامى و ... بلطية ... ومخيمر ... و ... كان الرجال فى بلدته يخرجون يوميا فى غبش الفجر إلى الحقول ... ويعودون ليلا ... فلا أحد منهم يرى داره فى النهار أبدا ... كانت أيامهم جميعا تنقضى فى أرض المالك الكبير دون أمل فى أجر يكفى حاجة البطون ، وكان إذا اشتكى أحدهم ... وجد من يقول له من رفاقه الأجراء :

— هذه قسمتنا ! ...

إنها إجابة غامضة ... غير كافية ... لكن .

— لماذا يجوعون فى بلدته ؟ ! ...

سؤال لم يجبه أحد عليه ... كان يعرف أن الكبار يعرفون الأجابة ... أبوه الزناتى خليفة كان يعرف ... وقتل ... والشيخ تهامى كان يعرف ...

وسجن ... وفتوح أفندى الناظر يعرف ... وجن ... هرب إلى تنمية أملاكه وعقاراته .. و « بلطية » عرفت الاجابة فصارت أشهر الجميلات فى البلدة ... و ...

فى مرة قال لها :

– أتعرفين يا نادية ... فى الأجازة ... أقنعت الأنفار – أنا وعصام ويوسف – بالإضراب عن الذهاب إلى أراضى المالك الكبير ... فلم يذهبوا ... ظلوا جالسين عند شريط السكة الحديد شرق البلدة ... ويأس ناظر الأملاك وأعوانه من إغرائهم ... وأصر الأنفار على زيادة أجورهم ... لكن ... عندما عادوا إلى دورهم ... ظهرا ورأوا أولادهم جوعى ... وزوجاتهم حزينات ... وقدور الطعام خاوية ... انهاروا ... وعادوا للعمل صاغرين ... أشد انصياعا ... أكثر صمتا ... أكثر إذلالا ... إنهم لم يروا بيوتهم وأهلهم وأولادهم نهارا إلا فى ذلك اليوم ! ...

« ... إننى أنزف بشدة ، لو كنت أتوقع إنى سأقاتل كل عشاق نادية ... لتعلمت المصارعة منذ ولدت » .

و ... أخذته نادية فى أحضانها ، وأودعته سرها الخفى ... الأزلى ... كنزها الغالى ... ومن يومها ... امتزجت روحاهما ... وتجاور قلباهما ... وعقلاهما ... وازدادا حبا وصدقاً معاً ...

سأله « الصول عبد الحق » :

– هل أنت بخير يا ولد ... يا وليد ؟ ! ...

كان يريد أن يقولها « يا ولدى ... » لكن مهمته كانت غير ذلك ، عمله غير ذلك ، عيون الجعفرى تحاصرهما الآن من كل الجهات ، هو يعرف ذلك جيدا ، فحاول أن يأخذ حذره ... وحاول أن ... يعد « وليد » للاعتراف بكل ما يريده « الجعفرى » ! ...

● **ملحوظة :**

«كان كلب الصيد ... منصور ... قد اختفى وراء بعض مخلفات المعتقل بالقرب من اسطبل الخيل ، وأشعل لنفسه سيجارة أخذ يدخنها بلذة مع أحد الحراس الأشداء وهو يثيره ببعض الحركات والحكايات ! ... »

٩ ـ المطاردة

::: وقف « يوسف » أمام مكتب الجعفرى ::. كان مصلوبا على ذراعى حارسيه الصارمين ::: كان يحاول أن يتماسك :.: كان يقابل تهديدات. الجعفرى بصمت عنيد :. . كانت كل عبارة يسمعها تبدو فخا منصوباً له .: فظل صامتا . .: جراحه تنزف ، وعطشه يحرقه :

وباغته الجعفرى :

ـ وليد اعترف .:. عصام اعترف ::: وخطيبتك هدى عرفت كل شيء ::: وقالت ما لا يخطر ببالك ! . :.

ترنح يوسف :. . انهار على ركبتيه ، ظل معلقا من ذراعيه فى قبضتى حارسيه ونكس رأسه ، وحاول أن يتلو صلاة عاجلة ، لكنه همس بآلامه :

ـ يا يسوع ::: لم أعد أحتمل ::: أقول لك الحق ... إننى لم أعد أحتمل .:. أرسل لك صيحاتى وتوسلاتى ليل نهار .:. فلماذا لا ترد ؟ .:. يكفى فقط أن تمد يدك بالنور فتنقذنى :. . تنقذنا كلنا ... فلماذا لا تمدها ؟.:. أنت يا يسوع تكره الشر ::: تحب الخير والمحبة والبشر :. . فلماذا تريد لنا هذه المجزرة ؟! :::

كانت خواطر يوسف تزدحم بالتساؤلات ... بالاستغاثات ... لكن ... ما من مجيب ... لا شيء غير الصمت المخيف ... ومن حين لآخر تنهال عليه الصفعات وتدمى جراحه ... أمس توسل لحارسه ليعطيه جرعة ماء ... كان العطش يحرقه ... يمزقه ، أمره الحارس :

— اشرب من جردل البول ! ...

حاول يوسف أن يجعله يفهم ... إنه لا يبول من يومين ... والجردل فارغ ... فسخر منه الحارس ، وقال له :

— هوهو ... انبح كالكلب ... وأنا أسقيك يا ابن الفاجرة ! ...

وضحك الحارس ... ودعا زميله ليتسلى معه ... وبكى يوسف بغير دموع ... و ... لولا أن « الصول عبد الحق » ظهر فجأة لجن يوسف من العطش ، لقد أمر له عبد الحق بجردل ماء يوضع فى زنزانته ... و ...

— هدى ... خطيبتك ... عرفت بقصة عشقك الرائع لزينة ... صاحبة صديقك عصام ! ...

وقهقه الجعفرى ، وقال بكثير من السخرية والإهانة :

— أهذه مبادئكم الثورية ... تخطفون بنات بعضكم ... تخونون فتياتكم ... يا أولاد الكلاب ... قل ... تكلم ! ...

ورسم يوسف صليباً متعرجاً فى الهواء برموش عينيه ... وطال بحثه عن بعض الأمن والطمأنينة ... لكنه لم يفلح إلا فى ممارسة الاحتمال فى صمت ... فى ضعف ... وهو يردد :

– يا أبى الذى فى السماء ... يا أمى العذراء البتول ... أعينانى ... أنا ابنكم الضعيف ... لم أعد قادرا على الاحتمال ! ...

ثم ... ...

حدق فى وجه الجعفرى مرغما ، وهو يقول لنفسه بفزع يثقب قلبه ويهز أعصابه ... يزلزلها :

– ماذا يصيبنى من جديد ... أى شيطان أنت يا جعفرى ... وإلى أين تريد أن تقذف بى هذه المرة ؟ ... ترى من أى مادة قذرة صنعت أيها الحيوان ... كيف تستطيع ممارسة كل هذا القدر المخيف من التعذيب؟...و...

حاول أن يرى لون عينى الجعفرى ... القاسيتين القاتمتين ، لكن الجعفرى لاحقه بأكذوبة أخرى :

– هل تعرف أن هدى تزوجت من ... أسبوع واحد فقط ؟! طبعاً لك أن تخمن لماذا فعلت ذلك ؟! ... و ... ...

ترنح يوسف من جديد ... وعجز عن رفع نفسه من ركوعه على ركبتيه ... ظل مصلوبا من ذراعيه فى قبضتى حارسيه ، و ... عاجله الجعفرى بضربة تحت الحزام ، عندما قال ساخرا :

– لقد قالت « هدى » أنها كانت مخدوعة فيك ... وأية فتاة عاقلة مثلها ، كان لابد أن تهرب منك عندما عرفت حقيقتك القذرة ... لقد كان من حقها أن تعرف كل ما كنت أنت تفعله فى عوامة إمبابة مع أصحابك وصديقات أصحابك ... لقد التقت هدى بزينة ... ورأت رسوماتك المشوهة لها ... وعرفت فى النهاية كم كنت تحبها حقاً ! ...

ليس لصوت البحر اسم واحد واضح يعطى معانى البحر والموج والهياج والمد والجزر والغضب والغرق والموت ... والغربة والفراق والوحدة والأعماق السحيقة والأفق البعيد الغامض والشط الرملى المستسلم لزحف الأمواج ... و ... شخبطات الطفولة ومرح الشباب والجرى والنوم ومداعبة الموج للجسدين العاريين يسبحان حتّى حدود الخطر ... وعند البراميل تعانق يوسف وهدى وتواعدا على إعلان خطبتهما فوراً ... و ... من بعد ... كان صوت الراديو – فى يد إحدى المراهقات على البلاج يغنى :

« كيف أستطيع أن أعطى الحب ...

« بينما الحب شىء لم أحصل عليه أبداً ...

« كيف أخطو بقلبى للأمام فى أمر أرتاب فيه ؟ ...

« كيف تكون لى أحاسيس ... وقد أنكروا كل أحاسيسى ...

« أنت تعلم أن الحياة قد تطول ... فلنكن أقوياء ...

« والعالم يزداد عنفا ... وقد ملأت هذا ...

« كيف أستطيع أن أعطى الحب ...

« بينما الحب شىء لم أحصل عليه أبدا ... ؟! ... و ... .

ضحكت هدى وقالت وهى ترش وجهه بالماء فى دعابة مرحة :

– أنا أعرف ... أنا أعطى الحب ! ؟..

وضحكت ... امتزجت ضحكاتها الرائعة ... بوشوشات الموج ومرح المستحمين بقهقهة يوسف الخالى البال ... ووعدها فى نهاية المطاف :

– سأحمل على كتفى حزمة من البوص ... وأركب قاربى ... أسافر إلى أهلك وأقول ... كما قال العاشق القديم : « اعطونى الآن هدى ... حبيبتى ... لنبنى عشنا معا ! ... »

واجتاحتهما الفرحة الغامرة من كل الجهات وتعانقا وتواعدا على أشياء كثيرة جميلة سيفعلانها بمجرد عودتهما إلى الشط ... و ... باغتتهما صفارات الإنذار من حراس البلاج الذين رفعوا الرايات السوداء بطول شاطىء بورسعيد ... و ... أفزعهما الحزن وامتلأت عيونهما بالقلق والترقب ... و ... ...

قال الجعفرى :

– لابد أن تعرف أن موقفك أنت بالذات خطير ... كل الأدلة التى تجمعت عندى تشير إلى دورك الخطير فى المؤامرة ... ثم إن صاحبك وليد ... وصديقك عصام ... قالا عنك ما لا يخطر لك ببال ؟ و ...

تمنى يوسف ... تمنى من يسوع والعذراء ، أن يخرسا الجعفرى ... أن يشلا لسانه ، ليكف عن جلده بأكاذيب أو حقائق مخيفة ، تشرطه من الداخل بقسوة تفوق قسوة الكرابيج التى شرطت جلده ومزقته ونثرت دمه وجعلته يقف الآن عاجزا عن الصياح ... عن البكاء بدموع شحت ينابيعها بداخله ... إنه فى هذه اللحظة الساحقة ، عاجز تماما عن الرجاء ... عن الاعتراف بأى شىء ... فظل منهارا صامتا ، وازداد تشتت ذهنه ، وفقد القدرة على فهم أى شىء فأغمض عينيه واستسلم لصوت الجعفرى وهو يطارده من كل الجهات على إيقاع خطواته المتربصة :

– أنت فنان موهوب يا يوسف ... وإن تكن لوحاتك لا تعجبنى لأنها غامضة كئيبة ... سوداوية ... لكن لماذا ... هه ... أحب أن أعرف الأسباب ؟! ...

....

– أنا لا أحب من يصمت إذا سألته ... فخذ حذرك ... وأجبنى يا ابن الكلب ... أليس الفن صدقا – كما تقولون ؟ ... أم أنه تجارة ... تهريج ... ومؤامرات ؟! ...

أسرع الجعفرى قائلا :

– لا تجب ... اصمت الآن ... واستمع إلى ... هذا أمر ...

وأشعل لنفسه سيجارة ... أخذ يدخنها باشتهاء ، ثم أضاف :

– لقد تحولت لوحتك التى اسمها ... اسمها ... آه ... اسمها « جواب حب » ... إلى منشور سرى ! ... صوروها وطبعوها بعلمك طبعاً – ولا تنكر هذا – وأرسلوها إلى دور الصحف والنقابات وتجمعات الطلبة والعمال ... لتعلن رأيك الغبى فى نظام حكمنا ... و ... هكذا ... تمارس نشاطا هداما ... ما هو رأيك فى كل هذا ؟! ... إنى على استعداد لفهم موقفك ... إذا صارحتنى بكل شىء ... لابد أنهم خدعوك ... واستغلوا موهبتك العظيمة – حقاً – كفنان ؟! ... من هم هؤلاء ... من هم الذين جعلوك – دون علمك طبعاً – لعبة فى أيديهم ، لتحقيق أغراض هدامة ... افترض عدم معرفتك بها ... وافترض أيضاً ... عدم موافقتك عليها ... هه ! حبال النجاة أمدها إليك فلا تجبرنى بحماقتك على إغراقك فى التهمة كلها ... بمفردك ؟! ...

كانت هدى تحلم باليوم الذى ترى فيه لوحة « جواب حب » وقد رأت النور ... وقد خرجت من عقل وقلب يوسف إلى الورق فكم حدثها عنها... عن مكانها البارز فى أول معرض يقيمه بعد تخرجه فى الكلية ... عن الشهرة والمجد اللذين ستحققهما – لها معا – لوحة « جواب حب » ...

و ... كانت « زينة » أيضاً تشجعه على الدوام لإتمامها ... لقد حدثها عن مصدر الوحى بالفكرة ... عن خطيبته « هدى » ... وضحكت « زينة » وقالت :

– « هدى » تلهمك الفكرة ... وأنا يكفينى أن أساعدك على تنفيذها ولم لا ... إننى لا أحلم بامتلاكك أنت ... أحلم بعصام فقط لكنه لا يفهمنى ... وأنت ... ليتك كنت بدلا من عصام فى قلبى ...

كانت « زينة » فتاة غريبة الأطوار ... قالت له مرة :

– رغم أنوثتى التى أتباهى بها ... فاننى أكره الشراهة ... إن العيون الشرهة تفزعنى ... لكننى أيضاً أحترم الرجل الذى يعترف لى بالحيوية و ... يرغبنى بشكل مهذب ! ...

وسألها يوسف ، وعوامة إمبابة تتأرجح تحت أقدامهما ... على إيقاع رقصاتها المرحه :

– هل تعديننى بمكافأة سخية إذا أنجزت « جواب حب » ؟! و ...

أدارت « زينة » مؤشر الراديو الترانزستور على المحطة الأجنبية وغنت مع المطربة ... التى تتأوه فى أغنيتها الساخنة :

« خذنى :..

« قبلنى ... ضمنى إليك ...

« لكن برقة من فضلك :..

« إننى :.. هشة ... ضعيفة ...:

« برفق ... ضمنى ! ... و ... ...

صارحته زينة ... وهى تحتسى شرابها :

– أتعرف يا يوسف ، وأنا فى العاشرة .:: كان لأبى صديق فى الثلاثين أو الأربعين ... اتفق معه أبى أن يعلمنى الموسيقى :.: لأكون جاهزة لتحقيق أحلامه فى برامج الاذاعة والتليفزيون ... وشركات الاسطوانات... لكن فى الدرس الأول ... فى بيت صديق أبى ... فوجئت به يضمنى بشراهة ... ويتحسس جسدى بأصابعه و ... غرس أصابعه فى لحمى :.. كانت تصرفاته فاضحة جداً ... وكذب على يومها ... ودندن بأغنية عبد الوهاب القديمة : « تعالى بين أحضانى » ... ثم قال :

– أنا مثل أبيك ! ...

كان يرغبنى لكنه كذب على وأفهمنى أن ما فعله بجسدى ، مجرد « عواطف أبوية » !! وضحكت « زينة » وعادت ترقص ... وتهز جسدها الرقيق فى البنطلون البنى ... وخلعت « البلوزة » ولمع العرق بين نهديها النافرين ... وطوحت رأسها الذكى فنثرت شعرها الأسود الناعم الطويل على كتفها وصدرها ... وملأت لنفسها كأسا آخر من زجاجة الشراب التى اشترتها بنفسها ليوسف وأعطته كأسا وجلست بجواره ... وقالت :

— أتعرف يا جو ... إننى معك أشعر ببساطة الدنيا وسخفها أيضاً ... إننى أطمئن إليك ... أصارحك بكل شيء ... لماذا ؟! ... لا أعرف بالضبط ... لكننى لا أخجل أبدا منك ! ...

و ....

صفعه الجعفرى على وجهه ، وأدمى أنفه وفمه ، وركله الحارسان و ... أعيد عليه السؤال ببطء وبصوت واضح :

— من هم الذين رسمت لهم لوحتك « جواب حب » ... ليحولوها إلى منشور هدام ... أجب ؟! ... و ....

صاح يوسف ... وجد نفسه قادراً على الصياح :

— « جواب حب » لم تكن عندى ... لم أملكها أبداً منذ رسمتها ! ...

وسأله الجعفرى بحقد شرس :

— أين كانت ... لا أفهم ألغازك يا ابن الفاجرة ... قل ! ...

و ... قال يوسف :

— رسمتها ... فى بيت صديقة ... وتركتها لها ...

وقهقه الجعفرى ... وضربه ببوز حذائه فى مؤخرته فعوى ... مستغيثاً بيسوع ... ونفخ الجعفرى دخان سيجارته فى وجهه الدامى وقال :

— ألم أقل لك أنك أغبى من رأيت ؟ ... إننى أكره الفئران الغبية أمثالك ... المهم ... أخبرنى فوراً ... من هى هذه الصديقة التى أسرتك بعطفها وجعلتك تترك لها لوحتك القذرة ؟! ...

و ... صمت منتظرا « اعتراف » يوسف ... لكن انتظاره طال ... فقد ظل يوسف منهارا ... غارقا فى صمت ثقيل ... قبل أن يجبره حارساه على البوح بالاسم ... قال :

— « سهير ... » ... و ....

فزع الجعفرى ، فشل دقيقة كاملة فى ضبط أعصابه ، والتحكم فى مشاعره ... وسأل قبل أن يسترد تماسكه :

— « الراقصة ؟! ... »

هز « يوسف » رأسه ... مجيباً ... بصمت ... فدار الجعفرى حول نفسه ، كالمضروب على دماغه ، وعاد إلى مكتبه وحدق فى ملف « يوسف » وملحقاته بسرعة واضطراب ... فوجده يخلو من أية إشارة إلى « سهير » ؟

— لماذا ؟ ... ولمصلحة من تلعب هذه اللبؤة ... ومن هم الذين وراءها ، وماذا تريد منه ... ماذا تريدون بى ؟! ... و ....

كف عقل الجعفرى عن التفكير ... أجبر نفسه على عدم التفكير ثانية واحدة ... دخن خلالها نفساً خاطفاً من سيجارته ، ثم أطفأها بعصبية زائدة و ... بغضب شديد أصدر أمره :

— اهتموا به جيداً ... مفهوم ! ... و ....

انصرف الحراس بيوسف على الفور ، إلى غرفة الإنعاش ... و .....

فى اللحظة التالية ، كان الجعفرى يدق رأسه بقبضته ، وهو يحاول أن ينظم أفكاره ليصل إلى ... إلى ماذا ؟! ... إنه لأول مرة فى عمله ، يشعر أنه ليس وحده ... فى كل أعماله السابقة كان وحده ... يحقق ... ويبحث ... ويضع أدلة الاتهام ويطبخ القضايا ، ويعد المتهمين ويعرف الأحكام قبل

صدورها و ... لكنه الآن ... فى متاهة ... ويشعر بأنه قد صار ألعوبة فى أيدى البعض الذين يعبثون به ... ولكن ...

— من هم ؟ ... ولمصلحة من بالتحديد يلعبون به ومعه ؟ ...

هذا ما يجب أن يعرفه بسرعة ، وقبل ان يفوت الوقت ويصبح فى آخر الأمر عاجزاً حتى عن الندم ، أو الاعتذار ...

وكان فى يده خيط واحد ... عليه أن يلعب به بحذر شديد حتى لا يتمزق وتتوه منه المسألة كلها و ... أمر — تليفونياً — باحضار « وليد الزناتى خليفة » على وجه السرعة ، وأخذ يستعد لاعتصاره جيداً ...

● **ملحوظة :**

فى مكتب الصول عبد الحق ... كان السجين منصور يبكى متوسلا ليتركه ... لكن الصول ظل يضربه بيديه وقدميه دون أن يتكلم غيظاً وغضباً ! ...

١٠ ـ ليلة الاعتقالات

نشرت صحف القاهرة ، هذا البيان :

« ... كان طلبة الجامعة يحاولون الخروج إلى الشارع ، لكن الحصار كان محكما من كل الجهات ، حفظا على الأمن العام ومنعا من استغلال الحركة الطلابية ، لكنهم اقتحموا قاعة المؤتمرات الكبرى بالجامعة ، وملأوها عن آخرها بالمناقشات الصريحة ، ثم تدخل البعض بالصراخ والتحريض ، وحاول بعض الأساتذة والعمداء تهدئتهم ، لكن بعض المجهولين اعتدوا عليهم بالضرب وأخرجوهم بالقوة ، مما يتنافى والروح الجامعية ، وقد صعد شاب غريب إلى المنصة وألقى خطابا أثار به الجميع فخرجوا إلى الطريق العام واصطدموا بقوات الأمن المركزى ، وجرحوا عشرات منهم ، وتمكنوا من اجتياز كوبرى الجامعة ، وفى نفس الوقت كان طلبة جامعة عين شمس قد تحركوا ... وفى ميدان التحرير التقوا ... رافعين الشعارات والنداءات من أجل الحرب لاسترداد سيناء والإفراج عن زملائهم المعتقلين ، وعلقوا بعضها على المنصة الرخامية فى الميدان ، وحاول رجال الأمن تفرقتهم بقنابل مسيلة للدموع ، فثاروا وحطموا وأحرقوا بعض عربات الترام وواجهات بعض المحال و ... ... » .

....

توقف الجعفرى عن القراءة ، ودون أن يرفع عينيه عن الملف المفتوح أمامه ، سأل «وليد » :

– لماذا تحتفظ بهذه القصاصات فى أوراقك الخاصة ؟ ! . . .

قال وليد ، وهو يحاذر من ضربات حارسيه ... المفاجئة :

– إنها قصاصات من صحف القاهرة ! . . .

فقال الجعفرى بغضب :

– أعرف هذا جيداً ... فكف عن المراوغة ... وأجب ... أتفهم ؟!

فقال وليد :

– لماذا تغضبك الصراحة ... إننى أقول لك الحقيقة ! . . .

فركله حارساه ، و ضرباه حتى أخرساه ...

قال الجعفرى :

– منذ متى وأنت تعرف الراقصة ؟ ...

لم يذكر اسمها ... كان ذلك يزيد من ثورته وغضبه وقلقه ... لكن وليد أفزعه بقوله :

– منذ استأجرت أنت لها ... عوامة النيل الفاخرة ، ووضعت تحت تصرفها السيارة « البيجو » ... وبهذه المناسبة ... لماذا اخترتها من . . اللون الأزرق ؟ ! ...

....

كان الجعفرى قد صار أمام وليد الآن ، فضربه بحد يديه ... ضربات

مؤلمة فى عنقه ... فى صدره ... على رأسه ... على أذنيه ... ولم يتركه إلا بعد أن انهار تماما على الأرض ... فوق السجادة الفاخرة المفروشة بألوانها الزاهية والغامقة بطول الحجرة الفسيحة وعرضها ...

و ....

عاد إلى مكتبه شديد الغضب ، وهم أن يفرغ مسدسه فى رأس وليد الملتصق الآن بالسجادة ... لكنه تذكر أن هذا الكلب لديه أسرار كثيرة لابد من انتزاعها أولا . . . ليكون على علم بما يدبر له . . . ليعرف ماذا يريدون منه هو ... ليخرج من الحصار الذى يشعر أنه يدبر من حوله . . . بعلم « سهير » ... ومن هم وراءها ...

و ....

اتصل بزوجته ... وقال هامسا :

– فيفى ... لا تنتظرينى على الغداء ... ورائى عمل كثير . . . هه ...

وقهقهت « فيفى » ... وأعربت عن ضيقها وحزنها لأن أعماله الكثيرة تحرمها منه على الدوام ... و ....

كان يعرف أنها كاذبة ... كان يعرف أنها تفرح لذلك كثيراً ... لأنها تستمتع عندئذ بوقتها مع أصدقائها وصديقاتها . . . وأدرك أنه قد أخطأ بزواجه من « فيفى » ... لكنه لن يصلح الخطأ الآن ، ليصل أولا إلى أهدافه الخاصة ، ويصبح قادراً على كل شىء ... ثم يتخلص منها ومن كل أعدائه دفعة واحدة . . . إنه لا يحب أن يكون أمام الكبار من أصدقاء زوجته

(ذلك الرجل الذى طلق الخائنة !) . . . إن أخلاق مجتمعه لا تسمح له بذلك الآن . . .

و ....

عاد إلى وليد .. وقد أجبره الحارسان على أن يفيق وأن يقف مستنداً عليهما أمام الجعفرى الذى سأله :

— لم تجب عن سؤالى ؟! . . .

وأن وليد أنينا خافتا . . . حاول أن يأخذ نفسه . . . أن ينتبه للمصيدة التى يجره إليها الجعفرى ... قال ليكسب دقيقة أخرى :

— أى سؤال ؟ ! ...

كز الجعفرى على أسنانه . . . بذل جهدا ليتمالك أعصابه المفلوتة وأعاد عليه السؤال :

— منذ متى وأنت تعرفها ؟ ! . . .

....

....

«كان يلقى محاضرة فى نادى الكلية ... كان يتحدث عن التاريخ وأثره فى هبوط وصعود الدول ... كان يحكى عن فكرة الاستعمار وعن المستعمرات العربية والأفريقية والآسيوية التى أسهمت — على حساب حريتها وخيراتها — فى تطوير الغرب والشرق وأمريكا . . . وعن علاقة كل ذلك باجهاض الثورات الفكرية التى كانت تحاول أن تنمو فى أرض المستعمرات . . . كان

يحكى عن العاشق المصرى عبد الله النديم ودوره فى تنبيه مصر لكل ما يراد بها من الجميع ... كان ... وكان ... وكان ... ... »

... وآخر الليل ... بعد انتهاء الندوة ... دعاه صديقه عصام إلى سهرة فى إحدى العوامات . . . ولما رفض ، استعان عصام بيوسف . . وأقنعاه بالذهاب معهما ... وفى الطريق إلى العوامة ، أخبره يوسف أنه سيقدمه الليلة للانسانة التى ترعى مواهبه بسخاء هذه الأيام . . وعندها يتم رسم لوحته « جواب الحب » . .

وفى العوامة ... فوجىء بها ... وضحكت .. وضحك .. . وضحكوا جميعاً . . .

وقالت سهير :

– مفاجأة مدهشة ! . . .

ثم قالت لعصام ويوسف :

– ألا تكفان عن مفاجأتكما اللطيفة أبدا . . !

و ... انتبه وليد ... وانتبهت سهير إلى دهشة يوسف وعصام اللذين تساءلا :

– تعرفان بعضكما ؟ ! ...

ولم يشأ وليد أن يصارح زميليه أنه يعرف سهير منذ مدة . . . وكان يذهب إلى « شقتها » فقط ... ولم يكن يعرف أن لها مثل هذه العوامة الفاخرة ولم يخطر بباله – آنذاك – أن هناك من دبر بذكاء تعريف ثلاثتهم بسهير ... كل ما شغله يومها ... هو مشاركة زميليه وسهير ... لحظة مرح بريئة ... !

و ... ...

جاءه صوت الجعفرى ساخطا :

– لم تجب عن سؤالى ياكلب ... ماذا تظن بنفسك ... هل أرجوك لتتكلم ؟ ...

وقال وليد :

– لقد كلفت بذلك ؟ ! ...

وقف الجعفرى مفزوعا ... بل شديد الفزع هذه المرة ، كمن لدغته حية سامة ، وصار فى خطوة خاطفة أمام وليد ... صدمه فى وجهه ... هزه بذراعيه ... سأله :

– من هم الذين كلفوك ... من الذى أمرك بالتعرف عليها ؟ ! ...

وحاول فى ثانية أن يربط بين ما يسمع وبين أشياء كثيرة صنعها وعلم بها و ... خطر له أن ثمة علاقة بين وجود شقيق سهير معتقلا عنده وبين ما يجرى و . .

– لم تقل لى ... من الذى كلفك بمصاحبة سهير ؟ ! ...

– ... ...

– من هم ... من هو ... ولماذا ؟ ! ...

– ....

ظل وليد صامتا ... يتلقى الضربات ... محاصراً بالسؤال ... ظل الحلم الرائع ماثلا فى تلافيف مخه ... فى أعماق قلبه ... فى دمه ... فى سره الدفين..

حيث كانت توجد « نادية » .:. أمنيته الغالية : : : واستنجد بها : : : دعاها تشهد ما يجرى له :.: كل ما يجرى له ::: وعانبها :

– لماذا لا تتكلمين ::. انتفضى :.: اهتزى ::: إن حركة واحدة شاملة منك كفيلة بقلب الأمور :.: امنعى نيلك عن الجريان :.: أقلبى صحراءك من الشرق ومن الغرب ، نادى الأجداد والآباء والأبناء من داخل قبورهم : : : فى الصعيد وسيناء ودمياط ورشيد وطيبة واصرخى :.:.اصرخى واغضبى::: مالك مستكينة هكذا لدرجة الموت ؟ ! :.. ألا تسمعين : : : ألا ترين : : : ألا تغضبين مثلما غضبت من قبل كثيرا ؟ ! ...

و . . . . . . : : : :

التصق وجهه الآن – وسط بركة من الدماء – ببلاط زنزانته وصار وحيدا ... عاجزا عن البوح بآلامه التى لا تطاق :.: تركه الحراس والجعفرى ، مسحوقا على البلاط ... عاريا .:: وخرجوا .:: فهمس :

– هل هناك أمل فى النجاة بعد كل هذا يا نادية ؟ ! ..:

....

....

فى مرة ، ضمهما لقاء المحبة ، وسط أحد الحقول الخضراء : : . كانا يومها يمرحان .:: يلهوان .. . حافيين . . . ضاحكين : : : واصطادا بعض الفراشات الملونة وأطلقاها من جديد : : : وتقاذفا بالورود : : : واستنشقا الهواء ... وقلدا العصافير ... ورفرفا بأيديهما .:: وتعانقا فى ظل شجرة ، وقال لها بمودة حالمة :

– ما رأيك يا أمنيتي الغالية ... ؟

وسألته بصوت شديد العذوبة صادق المودة ... فياض المحبة :

– رأيي ... في ماذا ! ...

خطف قبلة أخرى من شفتيها الدسمتين المسكرتين ، وحدق في عينيها العسليتين اللامعتين الآن بألوان الطيف المثيرة ... وقال :

– ما رأيك في أن نجرب من جديد ؟ ! ...

فداعبت شعر رأسه الناعم ... الأسود ... الذي يتطاير مع الهواء حول جبهته وأذنيه برشاقة ... وأخذته على صدرها وسألته :

– هل هذا ممكن ؟ ! ... بعد كل ما حدث ؟ ! ...

فقال ... ونبض قلبها يسري في أذنه ... يصل إلى قلبه وعقله :

– يجب أن نجعله ممكنا ... أنا في حاجة إليك ... وأنت أيضاً ... أليس كذلك ؟ ...

وطال الصمت ... وحدقا معا في اتجاه واحد ... وأخيراً سألته :

– وليد ... حبيبي ... هل من الممكن أن يولد شخص في العشرين... الثلاثين ... في الأربعين من عمره ؟ ...

هل من الممكن أن يبدأ حياته وقد فات ثلثها على الأقل ؟ . ..

و .. أن يجلس بين الناس ليختار لنفسه اسما ولقبا من جديد ...

وأن يعيش أيامه وكل ذهنه مشغول بمحاولة العثور على بدايته . ..

كيف كانت ... وعلى أي شكل وصورة يجب أن تكون ... ؟

ولمن عاش ما فات من عمره ::: ولمن يعيش : : : ومن كان يعيش به ولأجله ؟

وليد ::: هل هذا ممكن ؟ ! :::

و ::: :::

طال الصمت بينهما دقيقة ::: ساعة ::: ساعات ::. أياما ::: شهوراً.:: والسؤال ما زال معلقا . : : في وجدان وليد الزناتي خليفة : : : والقهر يسحقه : . . يدفعه دفعاً نحو الموت .:. وهو يردد :

– نادية : . : أمنيتي الغالية : : : امنحيني بعض صبرك : : : أعطيني بعض شموخك الأزلي : : : هبيني الكثير من ذكائك : : : لأتحدث مع الجميع بفصاحتك . . . ضعي في أعصابي كل القوة والصلابة التي نسجت منها شجاعتك . . . وأقبلي إلي : : : أجلسي بجواري : : . ضمدي جراح الجسد فأمرها هين ... هين فقط لو ::: فقط لو : : . شق غضبك جدران اليأس والخوف . . .

و :.... :....

كانت النافذة الحديدية في أعلى سقف الزنزانة ، بعيدة ::: بعيدة ::: ضيقة :.. ضيقة .:. ولكنها لم تحل دون دخول ضوء نجمة بعيدة : : : في أعماق السماء ، ولهث وليد :

– ماء . :. أريد ماء : : : إنني شديد العطش يا ناديتي الغالية : : : بللي فمي ببعض الماء ... العطش يحرقني و :::: ::::

التصق تماما ببلاط الزنزانة ، فاقدا كل وعيه ! ...

... ...

... ...

ملحوظة :

رغم الإرهاق الذى يكاد يشل عصام عن الحركة — فى الزنزانة المجاورة — إلا أنه تحامل على نفسه ونهض واقفاً ، واقترب من السجين « منصور » وأمسكه من صدر ثوبه وسأله بقرف :

— « هل تعرف ما تفعله بنفسك .. وما تريد أن تفعله بنا ... إنك تهين نفسك ... لقد تحولت إلى ... إلى ماذا ؟ ... هل أقول مثل نساء الليل ... إنك الرجل الذى ليس رجلا ... لماذا يا منصور ... لماذا ؟ ! ... »

١١ ــ الاغتيال الأول

صرخ الجعفرى بغضب هائل ، وضرب الدوسيه الأصفر بعنف وقال :

ــ وماذا تقول فى هذه الواقعة أيضا ؟ ... تكلم يا ابن الكلب !

ظل عصام متمالكا أعصابه ، محتفظا بيقظته ، كان يشعر أنه الآن فى أشد الحاجة إلى يقظته ... وقال :

ــ يا جعفرى ... بيه ، قلت لك من قبل أننى طالب منتسب بالجامعة ... وأننى موظف صغير فى مصنع ورنيش ... ومشغول بأكل العيش ... بعد أن منع عنى أبى ... المصروف الضئيل الذى .....

عاد الجعفرى لصراخه :

ــ لن نتحدث عن تاريخ حياتك القذرة كل الوقت ... أتفهم ... أجب عن سؤالى ؟! ...

و ....

صمت عصام لحظة ... فكر خلالها أن يبصق فى وجه الجعفرى ، أن يشتمه ، أن يلعن جدوده ... والذين تركوه هكذا يشوه وجه الحياة دون رقيب أو عقاب ... لكنه كان يعرف أن الحراس حوله فى كل مكان ... خارج هذه الغرفة ... فقال :

— قلت أنى لا أذهب إلى الجامعة إلا مرة أو مرتين فى الشهر ... وأحيانا لا أذهب إلا يوم الامتحان ... وهذا معروف لكل أساتذتى ولعميد الكلية ولحرس الجامعة — وبسخرية لاذعة — ... ولرجالكم أيضا ... بالتأكيد ... فلم لا تصدقنى ؟ ! ...

قلب الجعفرى أوراق الملف بسرعة ، ثم توقف أمام ورقة بها سطران اثنان ... وأعاد قراءتها ... فاستيقظت كل كراهيته لعصام ... وصاح فيه :

— اسمع ، لقد طلبت منى أن أمهلك لتكتب اعترافاتك كاملة ... وتعرف أنى كنت كريما معك لأقصى حدود الكرم ... لكنك خيبت ظنى فيك ... وأثبت أنك نذل حقيقى ... و ...

صمت لحظة ، ثم سخر من عصام قائلا :

— لقد كانت « زينة » على حق عندما مرغت شرفك فى فراش صاحبك يوسف ... يا كلب يا بن الكلب ... !

وصمت يرقب ردود الفعل على وجه عصام ، ولكنه اندهش ... فوجه الولد لا يكشف عن أى انفعال ... إنه لم يهتم بكل ما سمع ... فعاد يقول :

— واضح أنك حيوان ... المهم (وخبط بمؤخرة قلمه الغليظ فوق أوراق الدوسيه) وأضاف :

— أهذه كلمات يكتبها إنسان يدعى أنه اشتراكى ... تقدمى ... ثورى ... يعمل من أجل النقاء الثورى كما تقول يا بن ال ... .. انك لا تستحق أن تظل على قيد الحياة أكثر من ذلك ! ...

... ...

رأى « عصام » نذر خطر داهم فى نظرات « الجعفرى » فأسرع يقول :

– لقد كتبت الحقيقة ... فلماذا تغضب يا جعفرى بيه ؟ ! ...

– الحقيقة ؟ ! ... أية حقيقة يا بن اللبؤة ؟ ! ... أو ليست هذه كلماتك بنصها ؟ ! ...

و ... قرأ الجعفرى من ورقة أمامه ... ما كتبه « عصام » :

– إننى على استعداد لأن أقول كل شىء ... فقط ... قل لى ماذا تريدون منى ؟ ! ... إننى بحق الله والروح القدس وفلسفة الثورة والميثاق وبيان ٣٠ مارس ... وهزيمة يونيو ... لا أعرف ما تريدونه بعد ؟ ! ... و ... .

وقف الجعفرى غاضبا ، وحاصر عصام بكلماته الحانقة الغاضبة !

– ما هذا الهراء يا ابن « الـ . . . . . » أتظننى ساذجا إلى هذا الحد؟...إنك مخطىء فى فهمك لسعة صدرى وكرم أخلاقى معك ... وأظن أنه قد آن أن تعرف من يكون الجعفرى ! ... و ....

لم يتجاهل عصام رعشة خوف اجتاحته ... لا من الجعفرى نفسه ، وإنما من أساليبه وأعوانه وحراسه المتوحشين ... فأسرع يقول :

– يا فندم ... أنا لا أسخر ، إننى أحترم كل الأديان ... وأحفظ كل مواثيق الثورة وليست لى علاقة بأى شىء على الإطلاق ! ...

فقال الجعفرى :

– لو أنك تعرف معنى ماتقوله ، لعرفت أنك تكذب حتى على نفسك... إنك تجهل ألف باء الاشتراكية والثورة ! ...

قال عصام محتجا ... لأول مرة منذ دخل إلى هنا يعلن احتجاجه بصوت عال :

– انني أحفظ فلسفة الثورة ... والميثاق ... وبيان ٣٠ مارس ... وأذكر أيضا ما نشرته الصحف عن « قادة الطيران » وبعض نوادر أبطال مؤامرة الهزيمة ... وعلى استعداد للامتحان فى كل هذا ؟! ...

و ....

هب فيه الجعفرى صارخا :

– قلت اخرس يا كلب ... اخرس وكف عن سخافاتك ...

و ....

أضاف عصام دون أن يبالى :

– لقد حفظت من فلسفة الثورة ، أن لكل شعب من شعوب الأرض ثورتين ... ثورة سياسية وثورة اجتماعية ... تتصارع فيهما الطبقات ...

– اسكت يابن الزانية ... !

وأضاف عصام :

– وحفظت من الميثاق : « أن احتياجات الوطن تتطلب بناء جديدا ثابت الأساس ... صلبا ... شامخا ... وأن التطلع الثورى بكل آماله ومثله العليا يهتم بالبناء الجديد و ... أن الثورة ليست عمل فئة واحدة وإلا كانت تصادما مع الأغلبية و ... أن المحرومين كانوا هم وقود الثورة وضحاياها – انظر الباب الثالث عن جذور النضال المصرى ...

وجاء فى بيان هزيمة يونية عام ١٩٦٧ : « ما أبلغ الحاجة الآن إلى الصبر والحكمة لنكون قادرين على تخطى هذه الفترة الحرجة »

أمره الجعفرى بالصمت ... لكنه أضاف :

— كذلك تعلمت من بيان ٣٠ مارس ... « تحت عنوان المهام الرئيسية » ضرورة العمل على تدعيم القيم الروحية والخلقية ، والاهتمام بالشباب ، وإتاحة الفرصة أمامهم للتجربة و ....

... ...

صفعه الجعفرى على فمه ليخرسه ، ظل يصفعه حتى أدماه ، لكن عصام عاد يقول ودماؤه تختلط بعرقه بدموعه بلهاثه :

— وكذلك علمتنى الثورة مجانا ... وأعفتنى من الرسوم البسيطة التى كنت أدفعها للجامعة ... بعد أن قبلوا شهادة فقر مختومة وموقعة من اثنين موظفين يزيد مرتبهما معاً على ستين جنيهاً و ... كذلك أتاحت لى العمل مساعد عامل فى ورش الورنيش ،وامتلأ صدرى برائحة البنزين واعتدت السعال و ... كذلك حقق أبى مكاسب تفوق الحلم ... أصبح ناظرا ... ويملك حالياً عشرين فدانا ، ولديه مواش كثيرة يشارك عليها الفلاحين والمدرسين ويستثمر ثروته فى أمان و ...

ركله الجعفرى بين فخذيه فانحنى على نفسه ونزف دما كثيرا من فمه وأنفه ... واستمر يقول ، لكن بصوت يسحقه الضرب والألم :

— و ... لابد أن أقول لك رأيى ... ليس فيك ... لكن فيكم كلكم ... لقد كان يجب التفكير فى صيانة أرواح المائة ألف الذين ذبحوا فى سيناء

ولكنكم كنتم فى حاجة إلى مظاهرة عسكرية ضخمة تليق بمقامكم و ....

أوقفه الجعفرى بقبضتيه الحديديتين ، وقال له وعيناه حادتان كطير جارح :

– كل هذا يؤكد خيانتك للنظام الذى يعلمك بالمجان ، وأعطى لأبيك الهايف الشأن كل حقوقه المشروعة ، فهل تخبرنى الآن وفورا عن علاقتك بهؤلاء المخربين ؟ ... أجب ... انطق ... و ....

طال صمت « عصام » ... فقد القدرة على الكلام ، وتمنى لو يموت ... ليضع حدا لعذابه وقرفه من كل الحياة ومن فيها وما فيها من نذالات و ...

جاء الحراس ... وأكملوا التعذيب أمام الجعفرى ، الذى كان يلح فى سؤاله :

– من هم الذين حركوك ضد البلد ... من هم الذين خططوا لك لكى تتآمر ... من هم ... تكلم ... انطق ... !

– لكن ...

كان عصام لا يعى شيئا ... غير مجرد همهمات تصافح أذنيه الجريحتين ... وغير صعود وهبوط لأيدى وأرجل الحراس التى تحطم عظامه بغير توقف ، وأمسكه الجعفرى من شعره وجذبه وقال بحقد لا يوصف :

– لقد كنتم تتآمرون ضد البلد ... وكنا يقظين لكم ... أنت تعرف هذا ... سأجعلك عبرة لمن يعتبر ... وعندما يأتى الوقت ... وأملك قرارى الأول والأخير سأجمع أمثالك من الكلاب وأعدمهم رميا بالرصاص فى ميدان التحرير ! ...

... وظل عصام صامتا ... وتركه الجعفرى لحظة ، عاد خلالها إلى مكتبه وقرأ من ورقة أمامه :

–كانوا يعدون العدة لتدمير مرافق البلد ... إحراق المواصلات و ... قطع التليفونات ، ونسف المبانى ، وخاصة مبنى الإذاعة والتليفزيون فى حالة فشلهم فى الاستيلاء عليه ...وذلك كله بغرض نشر الفوضى فى كل مكان... وكنت أنت شريكا فى هذه المؤامرة الدنيئة التى تخدم أغراض العدو فى حالة الحرب ولولا عناية الله ويقظتنا ، لنفذتم خطتكم القذرة ... وهذا تقرير من أحد رجالنا الأوفياء ، يثبت أنك كنت على المنصة فى الجامعة تهيج الطلبة ، وكنت على رأس المظاهرات تهتف ضد البلد ، وكنت تثير العمال فى مصنع الورنيش وانك جرحت عددا من قوات الأمن ،وأنك استعملت سلاحا حادا فى الاعتداء على أرواح بريئة تقوم بواجبها و ... لابد أن توقع الآن على هذه الاعترافات ... هيا ... إنها فرصة أخيرة إذا أردت النجاة بنفسك ، وأعدك أن تكون شاهد إثبات فى القضية كلها وسيفرج عنك طبعا و ....

طال صمت عصام ... ...

حذره الجعفرى بنفاد صبر :

– وقع هنا بامضائك كاملا وبخط واضح...وقع ياعصام،وأنا أضمن لك النجاة ! ... و ....

أغمض عصام عينيه ... امتزجت فى دماغه المرهق كل عذابات الماضى والحاضر ...و...عندما جاءوا لاعتقاله...كان نائما ...لابد أنه كان نائما ... كانت الليلة عاصفة ... هطلت الأمطار قبل أوانها ، أطارت الرياح أكوام القش من فوق السطوح ... عوت الكلاب وخرجت الذئاب تمرح فى شوارع

البلدة وتأكل الأوز والبط والدجاج المفزوع ... وسرق اللصوص بعض المواشى و...وجد نفسه مرفوعا من فراشه، فى قبضة رجال أشداء مجهولين، ورأى أباه وجدته ملتصقين بجدار الحجرة ... مفزوعين صامتين ... وشعر بالمسدسات مغروسة فى جبينه وظهره وبطنه ودماغه ... ويبدو أنه فتح فمه ليسأل ... لماذا ؟ ... يبدو أنه حاول ، لأنه تلقى ضربة قاسية فى بطنه جعلته ينثنى على نفسه ... ويصمت ، وفى غبش الفجر ، كانت العربة الغامضة تعبر به وبمن معه ... كوبرى البحر الصغير ... محدثة صوتا مسموعا ... ولم يعرف أن زميليه « وليد » و « يوسف » هما القابعان معه ... صامتين مكبلين مثله بالحديد و... ثمة سيجارة تتوهج من حين لآخر فى فم أحد الرجال الغامضين وتضىء ظلام العربة لثوان خاطفة ...

... ...

واقترب منه الجعفرى ... لوح بورقة الاعتراف أمام وجهه وقال :

ياعصام ... افهم ، إننى أعطيك فرصة لتخرج من هنا حيا ... وهى أيضاً فرصة لتخدم بلدك خدمة وطنية جليلة ... افهمنى ، إن توقيعك هنا مسألة لن تضرك ... بالعكس ... ستفيدك ... فى المستقبل ... ستساعدك فى الحصول على شهادة التخرج بامتياز ... وسنعينك فى الوظيفة التى ترغبها و .. ماذا تقول ؟ ! ... لا مانع عندى أبدا أن أجعلهم يرسلونك فى بعثة طويلة تلف فيها بلاد الدنيا لتمتع نفسك بنساء أوربا وخمرها و ... ماذا تقول ؟ ! ...

... ...

... ...

زينة ... حبيبتى الحسناء ... يا عين حور ... يجب أن تعرفى أنك هنا فى ضميرى ... وأننى قد غفرت لك .. فنى زمن الوقاحة ... لا يصح أن أتهمك أنت دون غيرك ... الكل مدان ... الكل مخطىء ... وأنا وأنت من هذا الكل المذنب بغير ذنب ... ولن أقول وداعا ... حبيبتى ... لن أقول وداعا ... فأنت ... حياة الحياة ... رغم ما أصاب روحك من تلوث ... فالذنب ذنب الكلاب الذين يحاصرونك من كل الجهات ... فى الليل والنهار ... و ... لقد كنت أتمنى لو أننى أملك شجاعة أكثر... وصدقا أكثر ... لأنقذك من هذه الدناءات ... لكن ... الآن فقط أعترف لك أنت وحدك ... بضعفى الشديد ... لكننى لم أجبن ... لم أخن ... لم أخطىء ... والخطيئة الوحيدة هى ... أننى لم أتسلح بما يكفى من الشجاعة لمواجهة الأنذال ... لم أعد نفسى كما يجب ... لكن ... لا تيأسى إنك كفيلة – ذات يوم – بانجاب الابن الشجاع الجسور الذى لا يعرف مهادنة ولا مساومة ولا يسمح لنذل مهما كان بالإساءة إليك ...

– وقع هنا يا كلب ، ضعوا القلم فى يده .. أجبروه على التوقيع على هذه الاعترافات ! ...

وقبض الحراس على يد عصام ...وضعوا القلم بين أصابعه لكنهم فشلوا فى جعله يحرك القلم ... كان جسده مرتخيا ... محلول المفاصل ... ممزق الأعصاب ... ساكنا ... ساكتا ... فى برودة الموتى ...

و ....

فى غبش الفجر ... فى السكون الذى يشمل كل الكائنات الحية والجامدة فرقعت عدة رصاصات أفزعت طائرا أبيض صغيرا فوق غصن إحدى

الأشجار العالية بجوار سور القلعة . . . فطار صارخا معلنا للملأ مصرع « عصام فتوح عبد الدايم الهمشرى »

... ...

عاد الجعفرى إلى مكتبه ، وثمة بقع من دم عصام فوق حذائه وثنية بنطلونه . . . وأعاد حشو مسدسه بالرصاص ، ثم ابتلع جرعة كبيرة من زجاجة الويسكى التى يحتفظ بها فى خزانة مكتبه ، وأشعل لنفسه سيجارة دخنها بانتشاء غريب و .. اتصل بعد ذلك بالراقصة « سهير » فى شقتها ولم يجدها ، فطلبها فى عوامتها ووجدها ، فقال لها :

– أعدى شرابا كافيا لسهرة طويلة يا ... حلوة !

و ....

لما ضحكت له فى التليفون ، باغتها بقوله :

– لا تتعجلى المرح ... فستضحكين بعد لحظات ... كما لم تضحكى من قبل ... أعدك بهذا يا ... بنت الـ ! ...

... وتضاحكا ... ثم .... أمر أعوانه بالتحقيق فى مقتل « عصام » أثناء محاولته الهروب من « السجن » فى ....

... وبعد دقيقة كان يتأكد من أنه أعاد حشو مسدسه ، ووضعه فى حزامه و ... انطلق بسيارته السوداء إلى العوامة ! ..

... ...

● **ملحوظة :**

كان السجين منصور بالقرب من الحادث كعادته... وقد أصابه الفزع ... ظل يجرى فى ساحة القلعة الفسيحة ... ثم انزوى مرعوبا فى ركن مظلم بجوار أسطبل الخيل ... وفى عينيه الزائغتين صورة لعصام وهو يؤنبه : لماذا يا منصور ؟ ! ... وسأل منصور : أتريد أن تعرف لماذا ؟ ... : سأقول لك ! ...

١٢ ــ اعترافات منصور

أحب أن أبدأ بهذا السؤال : «واقترب منصور أكثر من البقعة التى اغتيل فيها عصام » ...

– هل مر أحدكم بهذه التجربة ؟ ...

لقد كنا فى محنة حقيقية ، وكنا نحاول بكل الوسائل المتاحة ... أن نفعل شيئاً لنضع حداً لعذاب أهلنا وشقائهم ، وقد أدخلوا أغلبنا سجن الخوف ، و ... أخذوا بعضنا الآخر إلى المعتقلات ! ...

– هل تعرف ما هو الفرق بين الخوف ... والمعتقل ؟ ...

... لا يهم أن تجيب الآن ، فالأهم هو أن تفهمنى ... لقد كان من الطبيعى أن يجرى بين أحدنا وبين المحقق المخيف ، مثل هذا الاستجواب :

– هه ... إنك ولد ذكى ... أمامك المستقبل العريض ... والفرص الكثيرة ... لكى تحقق أحلامك وطموحك ... إنك ترغب فى امتلاك سيارة ... أليس كذلك ... وبامكانك أيضاً أن تكون رجلا مهماً ... فلماذا انحرفت ؟! ... إننى – فى الواقع – مشفق عليك ... وأرجو أن تعاونى لكى أنقذك من مصير لا تستطيع أن تتصور بشاعته ... ما هى

علاقتك بفلان وفلان وفلان الذين فصلناهم من الجامعة ؟! ... هه ؟ ... أخبرنى بالسر ... قل ... من هم الذين خدعوك ؟! ...

كان من الطبيعى – أيضاً ... فى ذلك الزمن ، أن تسمع أحدنا يقول ... وفى أعماقه مخاوف رهيبة من بشاعة ما يحدث للمعتقلين أمامنا وحولنا وخلف الجدران :

– هل تصدقنى لو قلت لك أننى – يا سيدى المحقق – فعلت كل ما فعلته من أجلها هى ... التى أعشقها ... وأفديها بروحى ... وأريد أن أحلق بها دائماً على طريق الأمل والأمان ...

وكان المحقق المخيف يصرخ :

– من أجل من ... قل ... من هى ؟! ...

– هى ... عين حور ... !

– احذر غضبى ... إننى لا أحب الهذر ... أو الألفاظ السخيفة ! ...

وعلى الفور كانت الضربات الساحقة تجتاحنا من كل الجهات ، وصوت المحقق يعاود الصراخ :

– من هى ... عين حور ... يا كلاب ؟! ... أهو « اسم حركى » ... « أهى شفرة سرية لمنظمتكم الإرهابية ؟! ... »

و ....

لك أن تتصور خيبة أمل المحقق الرهيب ، الذى ظن أننى – أو غيرى – على وشك البوح باعترافات كاملة ، ثم إذا به يفاجأ ... بنا جميعاً ... نقول :

— إننا نفعل ما نفعله من أجل مصر ! ...

و ... طبعاً ... كان من العبث إقناعه بأن مصر ... هى « عين حور » كما سماها أجدادنا القدامى ! ...

....

كان ذلك يحدث لأبى أيضاً أيام الاحتلال الانجليزى والملكية ... يوم كنا نغتال العملاء ... ونهاجم الثكنات ... ونشترى المسدسات بثمن الطعام و ...

« عليك يا ولدى أن تظل وفياً لبلدك ، كما حاولت أنا وغيرى من الشباب ... وآسف لأننى ضعفت و ... تعبت ... لكنك ستعرف ذات يوم ... عندما تكبر ... وحتما ستفهم لماذا ينتحر بعض الرجال حباً ... فى بعض الأحيان ! ... »

....

تلك كانت بعض كلمات أبى رحمه الله ، قبل أن يودع الحياة ... منتحراً ... كما قال تقريرهم ... مع أنه قتل ... مع أنهم « قتلوه » بعد أن تجرأ وناقش « فلان الفلانى » الذى فصله من عمله فى الجامعة بغير حق ... لقد كانت كبرياؤه شديدة العناد ، وأنا ... كنت — بالتأكيد — مثلكم — لا أوافقه على هذا « الانتحار » ، ولكنه ظل عامين بلا عمل — وقد نشرت الصحف ، هذه الواقعة — و ... كان قد رفض أن يسعى لدى أحد ليشحذ عملا باسم وطنيته وكفاحه الذى كان ... ولاستكمال جوانب حادثة الانتحار ، أقول : إن أبى قد حاول بعض المشاريع الصغيرة ليوفر

لى ولأختى ولأمنا ، ثمن الطعام بوسيلة شريفة ، لكنه فشل ... وكانت آلام « المعتقل » قد مزقت الإنسان المحارب ... المشاكس ... بداخله، مزقته تماما ... وتركته مختلا فى عقله وقلبه و ... إننى أفهم الآن موقفه، وأعرف بالضبط ماذا يعنى « التعذيب » و ... « الامتهان » و ... « الدعارة » أيضاً ، لكنه كان قد ذهب ... ذهب فى صمت لا يليق بالصخب الذى صنعه فى شبابه ، ولا يليق أيضاً بالدم والعرق و ... الأشياء الثمينة التى بذلها فى صدق وإخلاص نبيلين لبلده ... بلدى ... مع عشرات الآلاف من المجهولين أمثاله ...

... وكم من زميل له ، روى لى فيما بعد : « أن أبى كان واحداً من الأبطال الذين تحولوا إلى فدائيين ، وهم فى سن صغيرة ، يوم كانوا طلبة فى التعليم الثانوى و ... أنهم ... وأنهم ... وأنهم ... إلى آخر ما ترويه الصحف والمجلات ، من حين لآخر ، وخاصة فى المناسبات الوطنية ، عن تلك الأيام وأبطالها من شباب مصر الذين وهبوا دماءهم للأم العظيمة « عين حور » لتنزفه قطرة قطرة فى سنوات المخاض ، لميلاد الثورة ...

....

لقد كان أبى واحداً من المجاهدين إذن ، لكنه لم يأخذ من مكاسب الثورة غيرى أنا ، وهذا شيء ليست له قيمة ، فقد ذهب مبكراً دون أن ينتبه إليه أحد ، وكان من الطبيعى أن يترك لى ميراثاً رائعاً هو : أخلاقه ... وطموحه ، وإن كنت لم أحمل المسدسات والقنابل مثله ، ولم أهاجم معسكرات أو ثكنات قصر النيل ، لأن « هيلتون » كان قد شيد مكانها ، ولأن الإنجليز كانوا قد رحلوا – أمام إصرار مصر ، وكذلك الملكية والأحزاب كانت قد انتهت ... لم يكن أمامى غير ميدان واحد أمارس فيه طموح أبى ...

طموحى ... وأحلامى ... ذلك هو ميدان « المناقشة » وهواية « الاختلاف فى الرأى » حول بعض ما يجرى لنا ... ولأننى لم أكن من النوع الذى يقاوم بالصمت والاحتفاظ بالاحتجاج لنفسى ... فقد وجدت نفسى فى ورطة ... !

كان « بعضهم » – ولأسباب غريبة – لا يعرف معنى قول « فولتير » :

– « أنا لا أتفق معك فى كل كلمة تقولها ... ولكننى سأدافع حتى الموت عن حقك فى أن تقولها ! ... »

و ... على العكس تماماً ، كان هؤلاء « البعض » يؤمن فقط ، بأنه يجب على من يختلف « معهم » فى الرأى ، أن ... أن يدفع حياته – أو حريته – ثمناً لممارسته حق الاختلاف ! ...

وجاءوا بى إلى هنا ... إلى مضيفة « محمد على باشا » .. وأنت ... وأنتم ... تعرفون ما يجرى هنا ... لكن ... إذا كنتم تحتملون مايجرى ... وإذا كان زملائى احتملوا من قبلكم ... فإننى لم أحتمل ، وفاتتنى فرصة العمر ، وهى : أن من يتماسك فى البداية يظل متماسكاً حتى النهاية ... لكننى انهرت بأول سوط ! ...

– هل تعرف معنى أن ... تعترف ؟! ...

... لقد قلت للسجان المخيف ، وللمحقق الرهيب ، وللحراس العتاة ، كل شىء ، طلبوه منى ، ورغم أننى لا أحب ولا أعرف كيف أكون ... « متآمرا ضد الوطن » – ولأنهم لم يصدقوا أننى مجرد إنسان مصرى ورث الوطنية عن جدوده وآبائه – فقد وقعت لهم بخط يدى وباسمى كاملا على

كل ما خطر ببالهم أن يسجلوه « على أنه اعترافاتى » ... س وأكثر من هذا ، جعلونى أحاول إغراء زملائى بالتوقيع مثلى على « الاعترافات الجاهزة » بل « المبالغ فيها ! ... » إننى أسألك :

— هل تعرف معنى أن تفقد نفسك ؟ ... هل تعرف معنى أن تتحول بالقهر إلى ... ماذا ؟ ... هل أقول مثل : نساء الليل ... ؟ أو « الرجل» الذى « ليس رجلا » ؟! ...

... تخلصوا من أناقتكم اللغوية ، والحياتية ، واخلعوا زيفكم عن عقولكم لحظة ، وافهمونى ... حاولوا أن تفهمونى، إننى كنت ذات يوم فى حياء العذارى ، وأحلم بالبقاء إلى جوار زوجتى الحلوة وأرقب حملها يعلو ... وينمو ... انتظاراً للحظة الميلاد ... والأبوة ... لكنى ضعت هنا و ....

لقد جعلونى — ببساطة — أعانى من شعورين كلاهما معذب لعقلى وقلبى — وافهمونى قلت لكم ... أو ... لا جعلكم الله تفهمون — الأول هو : « أن أشفق على نفسى وعلى زملائى » ، وأما الثانى فهو : « أن أكون فى نظر سلطات المعتقل » عميلا سهل الانقياد ... وفى نفس الوقت، أكون فى نظر زملائى المعتقلين ... خائناً ... وأحد المتربعين على ركبتى السجان ! ...

— هل مر أحدكم بهذه التجربة الرهيبة ؟ ... هل تفهم — أنت — عذاب الإنسان فى مثل هذه الورطة ؟! ... إنه هول لا يحتمل !

... لكننى — لا يهمنى أن تصدقنى أو لا تصدقنى — احتملت المهانة كاملة ، اعتدت المحنة ، ولم يعد يعنينى الجعفرى الذى لم يفرج عنى — كما

وعدنى بأن أكون الشاهد الملك ... وأما زملائى الاعزاء ، فقد اعتدت — أيضاً — نظراتهم القاتلة كلما رأوا وجهى الشاحب الممصوص المذهول بينهم ، إنهم لم يشاركونى هذه المذلة ، لم يعترفوا ... و ... ...

احتملت ... عامين ... ثلاثة أعوام ... أقل ... أكثر ... لاأذكر ... وأنا منبوذ داخل الأسوار الرهيبة التى تعزلنا عن العالم ... عن الحياة ... عن زوجتى الحلوة وطفلتنا الصغيرة — لابد أنها أنجبت طفلة حلوة مثلها ، لابد ... فقد حلمنا بها كثيراً ... واخترنا لها اسم «وفاء» ! ...

— أتسمعنى أيها العزيز الراحل عصام ! ...

لتسخر منى ، أو ليسخر غيرك ، فأنتم نوع من البشر تمارسون رفاهيات كثيرة مثل « ادعاء البطولة » و « التقليل من شأن الممتازين » و « تنسبون كل نجاح صنعه الآخرون إلى ذكائكم الموهوم » ... إنكم اعتدتم أيضاً « تكذيب بعضكم بعضا » و ... تبادل الأحقاد والنفاق لسبب ولغير سبب ... ولا أعتذر لكم فهذا هو رأيى فيكم ، كذلك لا أقبل تبريراً منكم !

... لقد أصبحت أتمنى الموت هربا من خجلى كلما واجهت المعتقلين و ... الجلادين ... على السواء ! ...

و ... قد تقول :

— إن لكل إنسان لحظة ضعف ! ...

لو قلتها سأهشم لك أسنانك وفك ، للشفقة التى أراها ظاهرة فى وجهك وعينيك وصوتك ... فأصمت أذنى ... دع الكلمات المحفوظة ... وتعلم أن لكل إنسان غلطة قاتلة ... إنها ... الخطأ الصفر — كما يقولون —

وأنا ... كنت صفرا ... عشت صفرا ... ودخلت المعتقل صفرا ... وسأظل صفرا ... هذه إرادة الجلاد ! ...

زوجتى الحلوة هجرت البيت . . . وطلقت دون علمى – فى المحكمة و . . . لا أعرف إلى أين ذهبت هى وابنتى ... ابنتنا « وفاء » – لابد أنها اسمها « وفاء » فهكذا حلمنا باسمها . . . إنها الآن حلوة جميلة . . . فاتنة . . . دون شك – أحيانا أحلم بالبحث عنها ، لكن المؤسف حقا أننى عاجز عن التخمين بمصيرهما . . . بل بأى شىء على الإطلاق . . . لقد كانت زوجة جميلة حقا . . . جميلة ذلك الجمال الذى لا تحتاج صاحبته لأى نوع من المكياج أو ... الرتوش ... لدرجة أنها عندما وضعت بعض الأصباغ على وجهها ليلة زواجنا بدت لى مضحكة جدا ... لقد كنت أسميها «أخت الشمس »! ...

أما أختى « ..... » لا لن أذكر اسمها الحقيقى ... إنها الآن «سوسو » أو « سهير » ... ثم لا ... أى اسم ... لقد أجبرها الجعفرى على ترك دراستها ، والانحراف ... فسقطت للأبد ... إنها الأخرى شديدة الجمال... وكانت فى سن الطيش يوم أخذونى إلى هنا ... لكنها الآن مثل أشياء كثيرة غالية ضاعت منى ! ...

... جريمة بشعة ... أليس كذلك ؟ ! ...

أنت نفسك قلت : « إنها جريمة لا يبررها أى مبرر » . . . فلماذا – إذن – هربت من هذه « الحقيقة » ؟ ! ...

لماذا تؤنبنى وتلومنى أنا ؟ ! ...

صحيح أنك قلت قبل مصرعك ... مهما حدث ... لابد أن نتماسك؟ وابتسم منصور بمرارة وأضاف :

— إننى أفهم شعورك ، فأنا شخصيا عانيت الخوف ، و . . . عرفت « الإذلال » و « الامتهان » و ... ما زال فى فمى طعمه المر ... المر ... بل شديد المرارة كالعلقم ... كذلك أنا أعذرك ... فقد كان لى ذات يوم بيت ، وكنت أحلم بأن أعود إليه من عملى — أو من الجامعة كطالب منتسب — إلى زوجتى الحامل ، وأختى الحالمة وأمى التى هدها الزمن وانتحار أبى — لكننى حرمت من هذا الحق فى أعقاب شهور طويلة . . . طويلة . . . من توقع الاعتقال فى أية لحظة ! ...

هأنتذا تعرف بنفسك معنى ألا يزورك الأهل ومعهم الهدايا والسجائر ؟ ومعنى أن يصرخ الرجل من الهول ... معنى أن يهرب من طريقك كل الأصدقاء .. ويتجنبون الحديث معك ...

حتى هنا ... فى المعتقل ؟ ! ... لقد جئت قبلك بسنوات — وهنا فى دار محمد على باشا ... حاكم مصر الشهير بمذبحة القلعة ... كنا — زملائى أنا — ننتقل من عذاب إلى عذاب ، وأنوفنا فى التراب ، وجن بعضنا عندما عجزوا عن الوصول إلى النوافذ الصغيرة فى سقف الزنزانات ... كنا لا نكف عن محاولة الوصول إليها ، علنا نستطيع التعلق بقضبانها الحديدية الضيقة لنرى الشمس ... السماء ... السحاب ... الأشجار ... الطيور ... أى شىء . . . لكننا كنا دائما نقفز ونسقط . . . نرتطم ببلاط الزنزانات الرطبة المظلمة ... ونصرخ ... نستغيث بالله ... بالأمهات . . . بالآباء . . . بالدنيا ... بالجان ... بأى شىء ... بأى شىء ... وكنا نزداد يأساً ... ولا نجد وسيلة لنتبادل الكلام فيما بيننا غير الخبط على الجدران بأيدينا و « بقروانات » الأكل و « جرادل البول وماء الشرب » و ... كانت خبطاتنا الهسترية تعنى أى شىء . . . شتائم ضد الكلاب ... واعترافات مجنونة بنذالات

لا تخطر على بال بشر...و... تماما كما يفعل أى واحد هنا إذا احتمل ألاعيب لجعفرى ! ...

.. . إنها حياة بشعة حقا ، ورغم ذلك – يا صاحبى – احتملناها ... أقصد ... احتملها أغلبنا ... ولم يتلوثوا بالفعلة التى ارتكبتها أنا . . . وكان الثمن بالنسبة لهم فادحا...فأحجار المعتقل لم تكن لتحتمل ما احتمله الأصدقاء الذين قتلوا دفاعا عن آرائهم ...كرامتهم ...أعراضهم ... رحمهم الله ! ...

والآن ... سأروى لك شيئا طريفا . .. زمان . . . قبل أن أتزوج . . . قبل أن أدخل الجامعة منتسبا ... قبل أن أحصل على وظيفة متواضعة فى أحد مصانع الصابون ، كنت أترك بلدتى بالقناة وآتى إلى القاهرة مع زملائى الشبان – وأحيانا – وحدى –كنت أقضى أياما فى شوارع القاهرة متفرجا على السيقان والصدور والأرداف والباعة والفاترينات الراقية وأفيشات الأفلام و ...

أظل هائما بين الناس ، ... لكنى الآن عاجز – مثلك يا عصام – عن ممارسة هذه الهواية كما ترى ... وأما الذين عرفوا فضيلة الصمت والبهجة باللاحدود فلا بد أن لهم زوجات وأطفالا و . . . بعضهم سافر فى بعثة لأوربا الغربية أو الشرقية ،وبعضهم يقتنى سيارات جديدة . . . حتما نسوا جميعا صديقهم « منصور » ... شىء غريب ... متى أخرج من هنا . . . متى .... وبكى منصور ... وألصق ظهره بجدار الاسطبل ... !

١٣ ـ سنوات الكفر

قال وليد ... بكل ما فى أعماقه من حقد وشجاعة :

— ماذا تريد ؟! ...

فصاح الجعفرى وهو يضرب مكتبه بقبضته غاضبا :

— ألم يعلمك ... زوج أختك المنافق ... كيف تكلم أسيادك ياكلب ؟

قال وليد ... بعد لحظة هدوء مشوبة بالترقب والحذر :

— لقد أدبنى وأحسن تأديبى وتعليمى أيضاً . . . وإذا أردت أن تعرف المزيد ... فهو الذى علمنى أن أكون صريحا لا أهاب أحدا فى الحق ! ...

قهقه الجعفرى ... وقال ساخراً :

— وهو الذى علمك كيف تعاشر النساء وتعاملهن أيضاً ، كزير نساء و ...... و ......

صمت وليد لحظة ... تذكر خلالها الطاهرة النبيلة التى تعلق بحبها ، « نادية » التى تمزقها ظروفها بقسوة لا يحتملها بشر ومع ذلك ... ظلت صامدة ...

فى مرة قالت له :

— لديك من المشاكل . . . ولدى من المشاكل . . . ما يحول دون استمرار صداقتنا ... إنى حزينة لهذا كثيراً ! ...

فقال لها يومها :

— إننى أحبك ... أقاسى من حبك ... أتعذب . . . لكنى أحبك . . . أذوب شوقا إلى عينيك القادرتين على رؤية حجم المأساة التى حلت بنا . . . رؤيتها بحجمها الحقيقى المخيف ! ...

و ... يومها قالت له :

— لا أعرف يا وليد ... ماذا يمكن أن نفعله بعد كل ما حدث لى . . . ولك ... إنك تثير آلامى بحق ، ومن كل قلبى وعقلى ، أشعر بالأسف لأننى عاجزة عن تطوير علاقتى بك لأبعد من هذا ...

ويومها قال وليد :

— أنت يا ناديتى الحلوة . . . لا تصلحين لممارسة هذه القسوة . . . إننى متعب ... مرهق ... وليس لى فى القاهرة كلها صديقة حميمة غيرك أنت ...

وسألته ببساطة مفعمة بحب جارف :

— و ... « سهير ؟ ! » ...

ضحك ... ابتسم . . . نظر إلى عينيها ، أخذ يرقب لونهما العسلى الغامق ... الفاتح ... الذى يعكس بهجة الحياة ... وقسوة الحزن الدفين فى أعماقها ... وسألها :

— هل تهدئين سرعة سيارتك الرشيقة ... قليلا ! ...

كانا قد غادرا النادى ... هربا إلى أحضان الطبيعة ، سارا بجوار نهر النيل ... أشعل لها سيجارة ، وأشعل لنفسه واحدة ...

قالت :

– لم تجب عن سؤالى ؟ ...

قال باندهاش حقيقى :

– ظننت أنك فهمت الإجابة بذكائك اللماح ... !

وعادا يضحكان . . . بمرح طفولى . . . أجهضته الأيام والسنون فى أعماقهما من زمن سحيق . . .

– سؤال لا مفر منه ... لماذا تحرمينى من ... منك ! ...

قالت بشقاوة محببة :

– تكفينى صداقتنا . . . أحس بها قوية . . . مخلصة . . . ألا يكفيك هذا ؟ ! ...

فصارحها وعيناه فى عينيها :

– الحب معك ... سلوك ، صداقة ، أحب أن أمارسه ! ...

فتغاضبت ... وقالت :

– هل تذكر أول مرة خرجنا فيها معا . . . تذكر حياءك وخجلك وأنت تسألنى . . .

فقال وليد مكملا بمرح :

– ما رأيك . . . أحب ألا أقول لك « يا مدام . . . » أحب أن أناديك هكذا ... نادية ... ناديتى الجميلة الغالية ... ما رأيك ؟ ! ...

وضحكت نادية . . . وبدا وجهها الخمرى الملىء بالحيوية والإثارة ، أكثر اشتهاء ، من خلف غلالة دخان سيجارتها ، فقال وليد :

— إننى أريدك على الدوام ؟ ! ...

فقالت نادية :

— إن سنوات العمر . . . كانت مزعجة ... قاسية .. لقد دمروا بداخلنا أشياء أحس أننا الآن فى أمس الحاجة إليها ...

قال وليد :

— إنها سنوات الكفر ... أو ... السنوات العجاف يا حبيبتى ...

قالت : لقد حلت بنا اللعنة ... لكن ... لكنها لم تسحقنا بعد !

....

....

واشترى لها عقدا من الفل . . . من بائع على الرصيف ، وهبط شط النيل بحذر وبلل « الفل » بمائه المقدس ... وصعد إليها ، طوق به عنقها . . . وهمس فى أذنها بصوت ممتلىء بحنان الدنيا ومحبتها وأشواق كل البشر .

— أحبك ... أحبك ! ...

وتعانقا فى عز الظهر . . . فى ضوء الشمس . . . وأحسا بالدنيا كلها تشارك فى هذه الفرحة الخاطفة التى انتهت فى ثانية ... فى جزء من الثانية...

... و ....

... صرخ الجعفرى ، فاقد الصبر :

— علموك الفسق والمجون . : وصرت تتستر عليهم : : : وتدعى هنا الشرف والتدين يا بن الـ ... ؟ ! :..

هم وليد بقذف بصقة حاقدة على وجه الجعفرى . . . لكن الحراس من حوله جعلوه يفكر ... ويحاول أن يهدأ ... فقال بمرارة :

— لكل إنسان حياته الخاصة ! ...

فحاصره الجعفرى :

— وأفكاره الخاصة أيضا ... هه ؟ . . . أنت رجل دين كما تدعى . . . المفروض على الأقل أنك كذلك . . . فكيف إذن ضحك عليك إخوان ماركس ولينين ؟ ! ...

... تكلم يا وليد وإلا ... فأنت تعرف عقاب من يصمت أمامى !

و ....

اقشعر بدن وليد ... لقد ضرب كما لم يضرب من قبل ... ضرب حتى ظن أنه ميت لا محالة ... ولم يكن يخطر بباله أنه يمكن أن ... لكنهم فعلوا به ما شاءوا ... ولو لا تدخل الصول عبد الحق ... الطيب القلب لما رجعوا عنه . : . ولكن « الجعفرى » يعرف جيداً أنه فى ورطة . . . وأنه كان على علاقة « بسهير » ... متى منحته وقتها وسيارتها و... أسرار الجعفرى وغيره الصغار والكبار ... — وعاونته — حسب التعليمات على طبع المنشورات فى بيتها ذى الحصانة الخاصة ، ولكن ...

إن الجعفرى — أيضاً — لابد ... على علم الآن بما احتوته التقارير التى كان وليد يتوقع أن يكتبوها عنه ، فهو الوحيد الذى كان يتوقع الاعتقال ... فى أية لحظة ... فى ...

صرح فيه الجعفرى :

— تكلم يا ولد ... كيف وأنت من حثالة الإخوان ... تتفق مع أمثالك من الشيوعيين ؟ ! ... هه ... كيف حدث هذا ولماذا ؟ و ....

أراد « وليد » أن يكسب مزيدا من الوقت ... فقال :

— هل فى مصر أحزاب ... الآن ؟ ! ... لقد انتهى ذلك كله حسب علمى منذ يوليو عام ١٩٥٢ ... ؟ ...

فصفعه الجعفرى بقسوة وبصق فى وجهه ... وقال :

— قلت لك تكلم ... كيف أقنعوك بالاشتراك معهم فى الجريمة ؟!

....

....

زمان ... وهو فى العشرين ... فى الخامسة عشرة من عمره ... وقف وسط الجامع فى بلدتهم ، ولعن صاحب الأرض « وهبة باشا » .. وحرض الأنفار على عدم الذهاب إلى التفتيش إلا إذا حصلوا على أجر يرضى الله .. وثار عليه البعض ... وضربه أحدهم وصمتت الأغلبية ...

كان صمتهم غريبا ... وقد غضب منهم ... ولامهم ... لأنهم تركوه — مع زميله عصام — يهان بسببهم ... كان لايفهم موقفهم ... لكنه الآن يعرف معنى صمتهم .... صمت المقهورين ... كان أهله وجميع أولئك الذين يضطربون حوله إلى غير ما نهاية ، يذعنون فيما يظهر للقهر ... للمعتقل ... يبدو أنهم يحاولون أن يهبطوا بحياتهم إلى مستوى الموت هربا من قسوة الحياة ! ...

... وفى دار « محمد على باشا » ... هذه القلعة ، يضرب الكثيرون مثله ... ويجرى الجميع أمام الكلاب الناهشة اللحم البشرى ... وتبدو — القلعة — فى

حجم بلدته ::: بدروبها وأزقتها ودورها تحت الأرض وفوق الأرض ::: وأيضا فى .:. مناخ القهر الذى يغلفها ::: ويختلط بالهواء فى رحابها السوداء ...

... وعندما سأله الشيخ تهامى ، فى ذلك اليوم :

ـ هل فكرت ... بعد أن تدعو الأنفار إلى الإضراب .:: كيف يأكلون هم وعيالهم ونساؤهم ؟ ! ... لاتكن أرعن ::: ودبر للمسألة خطتها الدقيقة:::

ويومها ... فشل الإضراب .:. أجهضت أحلامه فى الصغر ::: فلم تفلح فى الثأر لأبيه « الزناتى خليفة » : و ::: اختفى من البلدة كلها عدة أيام .:. اختبأ عند بعض أصدقاء الشيخ تهامى فى محافظة أخرى ، فقد كانت الشرطة تلح فى معرفة المحرضين وعندما هدأت الأمور وعاد إلى بلدته ، أخبره الشيخ تهامى :

ـ لقد رفض الأجراء البوح باسمك ::: ولما ضربوا وأهينوا قالوا أن المحرض الأوحد لهم كان هو .:. الجوع ! .:.

وتعلم وليد درسا هاما فى الرجولة ::: من الصامتين :::

وصرخ الجعفرى :

ـ قلت لك أجب .:. إن صمتك هذا يضرك ::: أتفهم ::: كيف تم الاتفاق بينك وبين المخربين الآخرين ؟ ! :::

؟؟؟ ؟؟؟؟؟؟ ؟؟؟؟؟؟

حكى له صاحبه « عصام » ذات مرة ، أنه رأى فى « مصنع الورنيش » ما يدور فى ضمائر العمال ::: فقد قال له أحدهم :

ـ إن ما أعرفه أنا وزملائى هنا عن الحياة ::: هو أننا لسنا بشراً ::: كسائر البشر ، إن نفوسنا مليئة برائحة الورنيش والبنزين من كل لون ،

سود ، وأصفر ، وأحمر ... إننا مثل الورنيش مصيرنا إلى الأحذية اللامعة والقذرة على السواء ... ولن نخرج من هذا الكهف بصحراء العباسية إلا مسحوقين بالأمراض فاقدين الأمل إذا لم تدركنا رحمة الله ! ...

....

....

— قلت لك تكلم ... من هم شركاؤك فى الجريمة ؟ ! ...

قال وليد :

— أية جريمة ؟ ! ... أنت تعرف جيداً أننا لم نفعل أى شىء !

وفتح « الجعفرى » ملفاً أحمر ، وقرأ بصوت بطىء واحداً من اعترافاته الجاهزة :

— ... هذا وقد تم ضبطهم متلبسين بالتخطيط ضد الأمن العام ، ووجدت فى حوزتهم الأسلحة الآتى بيانها ، ومعها كميات من الذخيرة وزنها مبين فيما يلى ....

صمت الجعفرى لحظة خاطفة ، ثم سأل :

— هه ... ما رأيك فى هذا ؟ ! ...

و ....

حاول « وليد » أن يضحك ... تمنى أن يضحك ، لكن آلامه كانت أكبر من أية محاولة ... فقال :

— أكمل التقرير ، لماذا سكت ! ...

و ....

ازداد هياج الجعفرى ... إنه يعرف أن لا تقرير هناك ، وأن ماقرأه كان قد كتبه من قبل دخول « وليد » بلحظة ... ولكن أن يكشفه « وليد » ... إلى هذا الحد ... فهو إذن أمام « ولد قارح » فى التفكير ، وهو إذن عقلية

من نوع يستفزه ... وهو لا يحب أن يتراجع أبدا ... حقا هو فى ورطة ، بعدكل ماحدث بينه وبين سهير بالأمس وما تجرعه منها وبسببها من مهانة تجعله الآن شرسا أكثر مع « وليد » الذى يقف أمامه متماسكا رغم الإرهاب المحيط به فى أيدى ، وأرجل ، وعيون الأعوان ! ...

... ...

أشعل الجعفرى لنفسه سيجارة ، وحاول أن يوضح لنفسه الأمر كله منذ البداية ... على النحو التالى :

.. لقد صدرت إليه الأوامر — السرية العاجلة — باعتقال « وليد » وصاحبيه : عصام ، ويوسف ، بعد أن أثاروا بعض المتاعب فى بلدتهم أثناء عملهم فى محو الأمية ... كما أحيط الجعفرى علما ، بأنهم كانوا على المقاهى وفى المدرجات يثرثرون بما يعد تحريضا ضد ... باختصار شديد « يجب التحفظ عليهم فوراً » فهم يثيرون الشغب ويطالبون باعادة أستاذهم الذى فصل من الجامعة .

....

....

هكذا بدأت القضية ثم ... ازداد موقفه هو حرجا ! ...

لكنه يجب أن يخرج من ورطته بأمجاد جديدة ، بانتصار جديد يجعل الكبار يجددون ثقتهم به ، وإلا فقد جولة من جولات لعبته للوصول إلى أعلى و ...

سأل وليد ... باحتقار وغضب :

— هل تعرف أن صاحبك عصام ... قال كل شىء ؟ ! ...

قال وليد بخبث أذهله !

– أعرف ! ...

واندهش الجعفرى ، لم يخف دهشته ... وقال :

– وتعرف ماذا قال عنك يوسف أيضا ؟ ! ...

قال وليد :

– لا يهمنى رأيه أو رأى غيره فى شخصى أو تفكيرى ؟ ...

– كيف ؟ ! ...

– لأننى اعتدت أن أكون مسئولا عن أخطائى وتصرفاتى ... لأن ولى أمرى مات منذ كنت صغيراً ! ...

وقهقه الجعفرى غيظا ... وسأله :

– و ... الشيخ تهامى ؟ ! ...

– كان زوج أختى ...

– ولكنه الآن زوج « بلطية » ... أقصد صاحبها ! ...

– هو حر فى حياته ...

– لكنه زوج أختك ... و ...

قاطعه وليد :

– وعلمنى الكثير من الحكمة والشجاعة ! ...

– مثل ماذا ؟ ! .. أفدنا أفادكم الله ! ...

و ....

تخلص « وليد » من حارسيه ، وجلس ... ثم استأذن فى الجلوس ... وبلعها الجعفرى حتى لايعطيه فرصة أخرى لإهانته أمام أعوانه ... وقدم له سيجارة وأشعلها له و ... قال :

– هيه ... فضفض ... دعنا نتفاهم كأصدقاء ... (وداس على زرار خفى فى مكتبه فأدار أجهزة التسجيل ...) إننى معجب جداً بعقلك لدرجة لاتتصورها ياسيد وليد ! ...

قال وليد ، وهو يدخن السيجارة بشراهة حقيقية :

– بل أتصور مدى إعجابك بى ... إنك لاتعرف أى معنى للصداقة ... ولا تعرف كيف تحترم العقل البشرى ... وآسف لصراحتى ! ...

....

هب الجعفرى واقفا فى غضب وفكر فى إطلاق النار فوراً على وليد ... لكنه تماسك ... إن هذا الكلب هو الورقة الوحيدة التى يمكنه أن يلعب بها فى الورطة كلها ... يمكن الضغط به على سهير على الأقل ... فابتلع ريقه الجاف ، وتضاحك قائلا :

– سأقبل منك بعض التفاهات ... باسم الصداقة التى أرجو أن نخرج بها من هذا اللقاء ... هه ... لنعد إلى نسيبك الشيخ تهامى ... ماذا علمك يا وليد ؟ ...

ثم جلس محاولا أن يكون هادئا .

قال وليد :

– لتحديد المسائل ، يجب أولا أن نسمى الأشياء باسمها الحقيقى ... إن الشيخ تهامى لم يكن إلا إنسانا صادقا بعض الوقت ... كان تعبيرا عن أفكار قوية راسخة صنعها أجيال من الأنبياء والرسل والخلفاء الراشدين وأهل العلم

والحكمة من المفكرين و ... استشهدوا من أجل استمرارها ووصولها إلى الأجيال تلو الأجيال ... هذه نقطة أردت إثباتها ...

وعلق الجعفرى مداريا سخريته وغيظه :

– عظيم ... عظيم ... ثم ؟ ! ...

قال وليد :

– ثم هناك نقطة تاريخية أخرى أود إثباتها هنا ... وهى أنه إذا كان يعنيك أن تعرف الأسباب الحقيقية لأزمتنا ... فان ذلك شأنه شأن أزمة أية حضارة أخرى يرجع لعدة عوامل يمكن إجمالها فى جملة واحدة تقول : « تبدأ الحضارة فى الانهيار عندما تبدأ الأمم فى الاهتمام بالأشياء أكثر من اهتمامها بالأفكار » وأظن أن ماحدث فى عام ١٩٦٧ كان واضحا ! ...

وهز الجعفرى رأسه مدعيا الفهم ، وقال :

– معقول والله ... ثم ... ؟ ! ...

قال وليد ، محاولا نسيان آلامه التى لا تطاق :

– ثم ... للمؤرخ « أرنولد توينبى » رأى يقول : « عندما اصطدمت الشعوب الإسلامية بالحضارة الغربية ، فانها سلكت أحد طريقين : الأول هو : التغريب : وذلك عن طريق تقليد الغرب فى كل شىء لدرجة ترك الدين الإسلامى نفسه ... حيث يظن أصحاب هذا المذهب أن سبب تخلف المسلمين هو دينهم ... وأن لا سبيل أمامهم للنهوض إلا بتقليد الغرب فى كل شىء ... وكان أبرز زعماء هذا الاتجاه هو « كمال أتاتورك » ... الذى ترك التراث الإسلامى شكلا وموضوعا ...

أما الطريق الثانى : فهو التمسك الشديد بالتراث والدين لدرجة رفض ما هو غربى ... وكان أبرز مثل لذلك هو جماعة المهديين فى السودان والسنوسيين فى ليبيا ... لكنهما فشلا بسبب تخلفهم عن العصر وكل ما هو عصرى ...

وفى اعتقادى أن الأمر يمكن أن يناقش بالنسبة لمصـ ... ...

....

قاطعه الجعفرى بخشونة وبسخرية لاذعة :

— إن الوقت لن يتسع فى الحقيقة لمعرفة كل هذه الآراء العظيمة !

قال وليد :

— إنها فى الحقيقة فرصة لكى أوضح لك بعض الأمور ... لقد عرفت سواء عن طريق نسيبى الشيخ تهامى ، أو عن طريق الكتب التى قرأتها أو درستها شيئاً هاماً ...

وادعى الجعفرى الفهم والاهتمام فسأله :

— وهو ؟ ...

قال وليد :

— وهو ... إن الوقاحة أصبحت تهدد الناس جميعاً ، وأننا يجب أن نحذر من الأعوان ... ونحذر أن يقتل الرجل أخاه دون أن يبالى... وعلى ذلك كان لابد أن أحاول البحث عن القيم الإنسانية التى أنبتها الإنسان المصرى فى حضارتنا العريقة لبعثها من جديد وبأسلوب عصرى دقيق لتكون قوية تتصدى لتيارات الانحراف ...

قاطعه الجعفرى :

– عظيم جداً ::: ثم ؟ :::

قال وليد :

– وبدلا من أن أقول أن الناس جميعهم أشرار ، بحثت عن أصدقاء أوفياء وأخذنا نتكلم معا :::

وقال الجعفرى بفرح الواثق من الوصول إلى ما يبتغيه :

– عظيم جداً جداً ::: هه ::: ثم ؟ ! :::

قال وليد :

– وأحب أن أصارحك الآن… أننى فهمت الحياة فى ظل ثورة يوليو ::: حفظت مواثيقها فى المدارس وفى الجامعة تعلمت أن أناقشها .:. كمواطن مصرى أولا وأخيراً :.: لا أقول ذلك عن ضعف أو استجداء لبراءة مشكوك فيها .:. بل عن اقتناع بأننى كانسان يجب أن أعرف ما أستطيع معرفته لكى أفكر كما يجب … وأن …:: :.:.

وقهقه الجعفرى ساخراً … وقال وهو يشعل لنفسه سيجارة :

– وبعد … احك يا وليد … إنك مسل حقاً :.: هه ؟! :::

و :::. .....

أراح وليد رأسه إلى مسند المقعد .:. وأغمض عينيه ::: وتمنى أن يرى الآن « نادية » ::: كم هو عطشان إلى عقلها .:. إنها الوحيدة القادرة على فهمه :.. الوحيدة التى تصدقه … كم أشتاق إليك يا أمنيتى الغالية الوحيدة ::: ترى أين أنت الآن ؟ ::

هل لوثك الكلاب أو اغتالوك ؟ .:. إننى قلق عليك ::. و :.:

::::: ::::: :::::

عاجله الجعفرى بالسؤال :

ـ لكنك عدت إلى الإخوان بعد ذلك ؟! ...

قال وليد :

ـ لم أكن منهم لأعود إليهم أو إلى غيرهم ! ...

وضيق الجعفرى عليه الخناق :

ـ والمنشورات التى طبعتها سراً ؟ ! ... والاتصالات المشبوهة ؟ !

قال وليد :

ـ المنشورات السرية كانت ضد ... إسرائيل ... والاتصالات كانت لترتيب أمرنا للعبور إلى الأراضى المحتلة والعمل مع الأهالى فى الداخل ...

و ....

قهقه الجعفرى ... قهقه ساخراً ... حانقاً ... غاضباً ... وقال :

ـ وليد ، احذر ، إنك تلعب لعبة خطرة معى ... ولن أسمح لك بتجاوز الحد ... أتفهم ؟ ! ...

قال وليد :

ـ الحقيقة أننى منذ جئت إلى هنا ... وأنا أحاول أن أفهم ، لقد كنا فى البداية نعمل كأى مجموعة من شباب الجامعة ... جرحتهم الهزيمة وأهانتهم ... فسافرنا إلى القناة ... السويس والإسماعيلية ... وصلنا مع المقاومة الشعبية هناك ... وعاونا الجرحى على العبور ... وجمعنا بعض القتلى فى سيناء و ... نسفنا بعض ما تركوه خلفهم من سلاح وذخائر عند انسحابهم غير المفهوم حتى الآن ...

و ....

....

– بعد ذلك وجدنا من يقول لنا ، أننا وطنيون عظام ::: وأن الجهات المسئولة قررت أن تستعين بنا وبأمثالنا من الشبان وأنهم سيعهدون إلينا بمهات سرية وخاصة فى الأراضى المحتلة ، ومن يومها .:: خضعنا لبرنامج تدريب قاس وسرى ، و :.::. ::::: ::::: :::::

..... :.::: .....

صمت وليد ، أذهلته ذاكرته التى استعادت نشاطها فجأة واستردت وعيها و :::. اكتشف أشياء غريبة مارسها ::: واتفق عليها ثم ::: ها هو يدفع ثمن جريمة مجهولة له تماماً .:. ::: و .:. :::

فى ثانية ...

فى جزء خاطف من الثانية :: : انتفض وليد مذعورا ، عندما خطر له أنه كان لعبة فى أيدى بعضهم ، و :.: أنه كان مخدوعا عندما أقنعوه بأنه قد يعتقل ... قد يعذب ... لكن عليه أن يحتمل :.: وألا ينزعج ::: فهذا كله جزء من خطة إعداده هو وصاحبيه – وغيرهم – لمواجهة العدو ::: الذى لا يتورع عن الأعمال الخسيسة التى ..... :....

واتسعت عينا وليد اندهاشا ::: جنونا ::: عندما أدرك المسألة كلها ::: إن المؤامرة تبدو كلها الآن فى حجمها الحقيقى :.: « التآمر ضد البلد » يا خبر أسود ::: شىء مرعب حقاً :.. مصيبة ::: كارثة ::: وسهير ؟! ::: هل كانت جزءا من اللعبة هى الأخرى ؟ ! لقد أفهموه أنه يجب أن « يتطعم » ضد أى إغراء محتمل من بنات إسرائيل المثيرات وأن « سهير » خير حقنة واقية عليه أن يتعاطاها ... ليتعلم كيف يقاوم الإغراء ! :::

ونادية ؟ ! ...

هل كانت هى الأخرى ضدى ؟ ! :::

– لا ... لا ... !

كان وليد يصرخ ... كان أمام الجعفرى ... شرساً ... كنمر جريح ... وصاح فى وجهه دون خوف :

– أتعرف ماذا يقول التاريخ عن أمثالكم ؟! ... و ... ...

وقف الجعفرى مأخوذا ... حانقاً شديد الغضب ، لكن وليد لم يأبه به ... لم يهتم بما قد يجرى له ... تابع صياحه قائلا :

– تعلمت من دراسة التاريخ أن الملك «كا رع » تلقى من أبيه هذه النصيحة :

– « إذا وجدت المواطنين يلوذون بأحد أتباعك ، فاستدعه فورا أمام رجال الحاشية ثم اقتله ... فهو عدوك ... وحاصر الثوار ... اقتلع ذكراهم فإنهم سبب المتاعب لعرشك أيها الملك ! ... »

وصفعه الجعفرى على وجهه بعنف ، وقال :

– اخفض صوتك واخرس يا ابن الكلب ... ماذا تظن بنفسك ؟

... صار وليد مقيدا بأيدى الحراس ، لا حول له ولا قوة ... لكن لسانه كان قادرا على القول :

– لقد دبرتم لى المؤامرة والخديعة دون أن أدرى ! ...

وصاح الجعفرى :

– لقد كنت كلبا لأسياد خدعوك ... وستظل أنجس منهم ، أنت وأهلك أجمعين ... خذوه ! ...

و ... ...

وخرج الحراس ومعهم «وليد» ... مجرورا من ساقيه ، بينما دماغه يرتطم ببلاط الطرقات المظلمة... وهو يحاول أن يتشبث بيديه... بأصابعه... فى أى شيء ... أى شيء ... ومن ضميره ناداها :

– «نادية» ... أيعجبك كل هذا ! ... أيرضيك ؟! ... أعرف أنك لم تخدعيني ... أعرف أنك صادقة ... لأنك وطني وعمرى ونور العين وحبة القلب ... أعرف أنني أحتاج إليك الآن أكثر ...

....

كان الجعفرى ما زال صامتا ... لكنه كان شديد الضيق ... شديد الغضب ، شديد الرغبة فى قتل أى إنسان ... لابد أن يرى الدم الآن يتناثر قانياً أمامه ... على حذائه ... على ثنية بنطلونه ... حتى يستريح من عناء الأيام الأخيرة ... علهينسى إهانة سهير ، وصاحبه الكبير له بسبب وليد... فتأكد من أن مسدسه محشو بالرصاص وهرول إلى ساحة السجن ...

وبعد دقيقة ... أو دقيقتين ... سمعت فرقعة مكتومة ، صحبها عواء بشرى أثار الرعب فى قلوب وعقول من سمعوه من المعتقلين ...

وقال الجعفرى ، وهو يرقب مسدسه ... وبقع الدم أمامه ... وعلى حذائه :

– لن أرحمها مثلما فعلت مع الكلب عصام ... لا ... سيتكلم يوسف... وسيتكلم وليد ... سيبوحان بكل شيء ... وإلا خنقتهما بيدى ... أولاد الزانية ... فأنا الجعفرى – وفرقعت قهقهاته فى ساحة المعتقل المظلم ! ...

... وفى آخر الليل ، دعا نفسه إلى كأس وسيجارة مع إحدى مندوباته فى «الوسط الليلى» وكانت تتمع بقسط هائل من الأنوثة المثيرة ! ...

● **ملحوظة :**

فى غفلة من الحراس ، حمل السجين منصور قليلا من الماء وبعض الطعام وسيجارة إلى « وليد » وأخذ يدفع بما حمله من خلال فتحات باب الزنزانة ::: ثم هرول مختفياً فى الظلام قبل أن يراه أحد الحراس ! ::

١٤ ـ كبوة الحصان

فى المهجر ... عجز يوسف وهدى عن مواصلة لقاءات الحب والمرح؛ لم يكن بالبلدة شاطىء ... لم يكن بها بحر واسع يحمى سرهما ... لم يكن لهما مسكن واسع به ركن للحب .. كانا محاصرين بالبشر وعيون الناس فى كل مكان ، ففى معسكر المهجرين ... أقام يوسف وأسرته ... أمه وأخواته الصغيرات فى حجرة ... نصف حجرة ... يفصل بينهم وبين شركائهم فى نفس الحجرة بطانية قديمة لا تمنع الأصوات... لا تخفى أسرار الجيران ... وكذلك كانت هدى و ... أمها ... وإخوتها الصغار ! ...

فى مرة خرجا إلى البحر الصغير ... فى الأصيل ... فرحا بالشمس الراحلة وتشابكت أيديهما وتبادلا الهمس بالأمانى ... والزواج بعد أن يتخرج ... وأخرجهما غمز الفلاحين وضحكات الفلاحات العائدات من الغيطان فسارا متباعدين ... ثم تقاربا خلف خيام الغجر – الذين كفوا عن الترحال وأقاموا خارج القرية –

وقالت هدى :

– إن ما حدث صار عبئا علينا احتماله ! ...

يومها قال يوسف :

– يجب أن تجددى ثقتى ... ساعدينى لأحقق أحلامنا المشتركة !

قالت هدى :

– المفروض أن أفعل ذلك ... لكننى يائسة ! ...

قال يوسف :

– مفروض أن أتخرج بعد عامين ...

قالت هدى :

– أو ثلاثة ... أو أربعة ... لا أعرف متى يأتى الخلاص ! ...

غضب منها يوسف ... وقال :

– تغيرت كثيرا يا هدى القلب والعقل ! ...

قالت والأسى يزلزلها من الداخل :

– إن ما حدث كان فظيعا ... كان لا يخطر بالبال ! ...

ولفهما الصمت دقيقة . . . أكثر . . . أقل . . . وجلسا على شاطىء البحر الصغير . . . وقذفا بعض الحصى فى الماء . . . وشاهدا الفلاحات يغسلن أقدامهن ووجهن ... وساد أنين ساقية قريبة ... وتفجرت أحزانهما وأحسا بالغربة والشقاء ...

كانا فى بوسعيد يلهوان . . . لا يعرفان غير الأحلام . . . كانا يمارسان الحب بشقاوة ويضحكان . . . أعلنا الخطبة . . . ورقصا فى الحفل مع أصدقائه وصديقاتها ... وتواعدا على الوفاء . . . و . . . أغارت الطائرات وجاءت الهزيمة مباغتة . . . و . . . تاها من بعضهما فى رحيل الهجرة الجماعية إلى الريف ...

بعد شهر ... أو أكثر ::: التقيا فى البلدة . : : عثرا على بعضهما ::: لكنهما عجزا عن العثور على الهناء الذى كان . : : الحب للذى كان : : : المرح الذى كان . . . صارا وحيدين ... كأنما جمعتهما جزيرة مهجورة : : : وكأنهما ملا الحياة .. . كأنهما بلا ماض : .. بلا حاضر ... أو مستقبل :::

وحاول عصام إقناع هدى ...

وحاول وليد إقناع يوسف ::.

ولكن . . . ازدادت الفجوة بينهما اتساعا . : . قالت له هدى فى آخر لقاء :

– لا أحب أن أترمل فى هذه السن ! :.:

قال لها يوسف :

– ومن قال لك أننى سأموت ؟ ! ...

قالت هدى :

– ومن قال أن الذين ماتوا ... كانوا سيموتون : : : إننى عاجزة عن تحقيق أحلامك ! :..

فجع يوسف . . . تمنى لو صفعها : . . لكنها كانت أصدق منه : . : كان هو ما زال متعلقا بآمال غير موثوق بها . . . صمت . . . وحاول فى الأيام المتبقية من أجازته أن يكون رقيقاً ودودا معها . . . ثم سافر ::: إلى القاهرة ... إلى عوامة إمبابة ... وبحث عن عمل ... عمن يشترى لوحاته، عمن يمنحه العزاء ... و . . . قدمه عصام إلى سهير : . . التى ظلت تعامله على أنه طفل برىء يستحق الشفقة ثم . : : مع عصام رآها : : . ففزع : : :

كانت «زينة» تقتحم حياته بغير رفق ... كانت تغزوه بالحاح ... زارته فى عوامة إمبابة ... و ... كان قد دعاها ضمنا وهو يدعو عصام لزيارته ... دعوة معتادة بين الصديقين ... وذهبت وحدها فى اليوم التالى ... قالت وهى تتأمل غرفته الضيقة فى العوامة :

— دعوت نفسى ... عندك مانع ! ...

ارتبك يوسف ... قال :

— أبدا ...

وشاركها الفرجة — لأول مرة — على مسكنه غير المرتب ... واكتشف معها أن حياته مثيرة للقرف ... فثيابه المتسخة ملقاة هنا وفوق الفراش وتحت المقاعد ... ، وزجاجات فارغة وأكواب تجمد بها بقايا الشاى والشراب ... و ... التراب يغطى كل شيء باللون القاتم ! ...

— معذرة يا آنسة زينة ! ...

لكنها انشغلت عنه بتنظيم مسكنه ... و ... فتحت الراديو الترانزستور على البرنامج الأوربى ... ورقصت قليلا وهى منهمكة فى عملها ، على إيقاع أغنية تقول :

— أحبك ... لا أعرف لماذا ؟ ! ...

وأتعذب فى هواك ... لا أعرف لماذا؟ ! ...

ربما لأن فى عينيك حنانا ... ربما ...

ربما لأن فى قسوتك جاذبية تثيرنى ... ربما ...

ربما لأن فيك رجولة هائلة تحمينى ...

ربما ! ...

و ... ...

فرقعت بأصابعها فى مرح عابث وربطت شعرها بقطعة من ثياب يوسف ... وصاحت به :

— « هيا ... ساعدنى فى إنقاذ مسكنك من طوفان التراب و ... »

أضافت كلمة بذيئة خجل منها يوسف وحاول أن يفعل شيئا لمساعدتها ...

....

لم يخطر بباله أن يفعل ذلك .. أن يخون صاحبه عصام ... بررت « زينة » الأمر كله ، ببساطة مذهلة — « عندما يتزوجنى ... لن أخونه ... سأصون حبه فى عينى ... ! » ... اندهش يوسف ؟؟ سألها .

— ألا تحبينه ؟ ! ...

قالت وهى تسترخى فى فراش يوسف :

— وما هو الحب ... أيها الفنان المسكين ؟ ! ... هه ! ...

كانت مستفزة متربصة بمواعظه المتوقعة ، فصمت ، وطال صمته ... واستمر استرخاؤها فى الفراش زمنا ...

و ... ...

و ... ...

سأله الجعفرى :

— ألا تحب النجاة بنفسك يا يوسف ؟ ! ... إننى أعدك بأن تكون مجرد شاهد فى القضية كلها ... أعدك بشرفى ! ...

نظر يوسف إلى الغرفة الفاخرة التى يجلس فيها ، وتساءل :

– كيف وجد الجعفرى الوقت الكافى ليهتم بديكور غرفته هذه ...
كيف ؟ ! ... ولكزه حارسه بعنف فى ظهره ... وانحنى متألما ...
وقال :

– الجعفرى بيه يطلب منى ما لا أعرفه ... صدقنى ؟ ! ..

حاصره الجعفرى بالسؤال :

– لقد اشتغلت شهورا فى شركة للدعاية والإعلان ؟ ! ...

قال يوسف :

– كان لابد من العمل رساما فى أى مكان ... أكل عيش ! ...

قال الجعفرى :

– وتبيع نفسك للخونة ... لتأكل عيشا ؟ ! ...

أراد يوسف أن يندهش ... لكنه عجز ... قال :

– أى خونة ؟ ! ... إننى كنت أرسم مساحيق الغسيل ، وإعلانات العطور والروائح ! ...

قال الجعفرى :

– كان ذلك ستارا لتغطية اتصالاتك المشبوهة ! ...

وقال يوسف :

– إنها شركة مصرية ... حسب علمى ! ...

ضحك الجعفرى ساخراً :

– بل هى فرع محلى لشركة يهودية متسللة ! ...

صمت يوسف ... عجز عن الاندهاش ... عجز عن الرد ... عن الكلام ...

وعاد الجعفرى يقول :

— لقد وضعنا حداً لهذه المهزلة ... ولقناهم درسا قاسيا ... لكن بقى أمامى أنت ؟ ... فما هو رأيك ؟ ! ...

نظر إليه يوسف متسائلا :

— رأيى ... فى أى شىء ! ...

اقترب منه الجعفرى ... نظر فى عينيه طويلا ... ووضع يده على كتفه بمودة مفتعلة وقال :

— أن تتعاون ... كن رجلا معى وقل كل شىء ... وسأكون رجلا معك ... وأعطيك كلمتى ... سأفرج عنك ... وأدبر لك السفر إلى الخارج فى بعثة لدراسة الرسم فى إيطاليا ... هه ... ماذا قلت ؟ ...

....

عاش يوسف يحلم بالسفر إلى إيطاليا ... كان يشخبط لوحاته فى البداية على رمال الشاطىء ببور سعيد ويحلم بعبور البحر المتوسط إلى إيطاليا ... كان يخطط بورتريهات على الورق ... ويحلم بالسفر إلى هناك ليدرس ... ليتعلم ... ليأخذ هدى معه ... لكنها فقدت أمها وصارت خاملة ... نسيت كل أحلامها ... فى المهجر ...

سأله الجعفرى :

— لم تجب يا يوسف ! ...

ثم محذرا : أنت تعرف قسوتى مع الذين يستهترون بأوامرى ؟

قال يوسف :

— إننى لا أصلح لأى اتفاق ... لا أصلح لأى نوع من المساومة ... إننى لم أفعل أى شىء بالمرة ! ...

وضحك الجعفرى ، وقال بسخرية لاذعة :

— إنك غبى ... عشت غبيا وستموت غبيا ... والمدهش حقاً أنك خنت صاحبك عصام ! ...

وصمت لحظة يرقب ردالفعل على وجه يوسف ، لكنه وجده متبلدا ... كأنه غائب عن الوعى ...

....

فى عوامة إمبابة ... كانت « زينة » تواصل مصاحبته ... كانت قد أعجبت بالدور الذى اختارته لنفسها ، أن تكون ملهمته ... ومشجعته ... وارتاح يوسف إلى « زينة » التى كانت تلعب دور باعثة الوحى ومفجرة الإلهام ، وكان يوسف يئن من القلق ! ...

... فى ليلة صيف حارة ... نهض ليرى إلى أى مدى وصل فى رسم لوحته « كبوة الحصان » ... فكسر ريشته ، وأسرعت « زينة » تنقذ اللوحة الناقصة من التمزيق ... وبكت بمرارة وعاشا لحظات درامية حزينة ... ثم حدثها عن لوحته « كبوة الحصان » كما لو كان يحدثها عن مصيره ... كان يرعبها بأزمات ضميره :

— هدى ... تبتعد عنى ... وأنا عاجز عن استعادتها ... الحرب والهزيمة والتهجير وفقد الأب ... مزقها بقسوة ... ولوحتى « جواب حب » لم تصلها ... أخذتها سهير الراقصة ... و « كبوة الحصان » هى كل ما تبقى ...

هى كل ما حدث من أحزان ... ولابد أن أرسمها ... قاسية ... صارخة ... مرعبة ... فأحزانى أقسى من ذلك كله ! ...

قالت زينة :

— مدهش ... أتعرف أنك « عيل » وأنك تجهل ما تحتاجه ... ماذا تريد بالضبط ؟ ! إنك تضحكنى ... ومعذرة ! ...

وأمسكها من ذراعيها ... هزها بعنف ... وقال :

— دائما تخلطين الهذر بالجد ... هل أنت بلا مشاعر ؟ ! ...

فقالت :

— لو أنك مررت بما مررت به من آلام ، لعرفت أنك طفل ... تريدنى مثل أمك ، وتهرب من مشاكلك بإغراقى فيها ... إننى مللت المتحدثين أمثالك باحترام مفتعل ... إنك تريد أن تخلق شيئاً فنياً ... وتريد أن تجعل حياتك محتملة ... وهذا شيء مفيد حقاً ... فلماذا تمزق أعصابك وتحطمنى معك بكل هذه القسوة ! ...

و ....

قبلها وقال :

— الغريب حقاً أن يكون لك أيتها الأنثى المراوغة ... مثل هذا العقل ... إنك يمكن أن تكونى الأنثى الأسطورة ! ...

ضحكت وقالت :

— كف عن المجاملات والنفاق فوراً ... وهيا ... أكمل لوحتك لنرى ما هى « كبوة الحصان » هذه ... أرنى رجولتك يا ولد ! ...

::: ومنحته قبلة ووعدته بهدية ثمينة إن أتم لوحته ! ...

::::: ::::: :::::

::::: ::::: :::::

قال الجعفرى ساخطاً :

ــ إنك لا تفهم شيئاً ، وتركت نفسك لامرأة ساقطة تقودك إلى الخونة.:: إنك كلب وابن كلب ! ...

فقال يوسف :

ــ ألا تمل من إهانة البشر ! ...

فصفعه الجعفرى حتى أدمى وجهه ، وقال :

ــ أنذال وأولاد زانية ... وتدعون هنا الصلاح والحكمة ::. ألم تحصل لك زينة الفاجرة على العمل بشركة الإعلان ؟! ..

صاح يوسف :

ــ إنها طاهرة ! :::

فأخرج الجعفرى صوتاً قبيحاً من حلقه ، ثم قال :

ــ أريد أن أعرف بالضبط ما هى حكايتكم ، تسرقون نساء بعضكم ::: وتعيشون عالة على صدقة راقصة ، و . . . تتبجحون بالفضيلة هنا يا أولاد اللبؤة ! ...

قال يوسف :

ــ هل أعرف لماذا أنا هنا ؟ ! ...وإلى متى سأتحمل هذه الإهانات ؟ :::

فركله حارسه فى ساقيه فتجددت آلامه ... وقال الجعفرى :

– ستعرف حالا جزاء تغابيك هذا ... ستعرف لماذا أنت هنا ... ستعرف كيف يمكن أن نهينك حقاً ... خذوه ! ...

و ....

قبيل خروج يوسف مع حارسه من مكتب الجعفرى ، كان يتمنى لو يعرف متى يكفون عن إحضاره إلى هنا ... متى يكفون عن ضربه ... عن سؤاله ... ولكنه وجد نفسه مسحوباً على وجهه فى الطرقات المظلمة ودماغه يصطدم بالبلاط وينزف دماً ...

و ....

كانت هدى تزوره فى بور سعيد كثيراً ... ولكنها تاهت منه فى موجة مباغتة ابتلعت الكثير من شط البلد ... وحاولت « زينة » أن تواسيه ... كانت تسهر معه فى العوامة ... وهو يرسم ... ويداعبها النعاس ... وكان يلاحظها وهى تترك الغرفة على أطراف أصابعها ... متوهمة أنه مستغرق فى رسم « كبوة الحصان » لكن حبها له كان يوحى بالخوف ... وحاول أن يتذكر ذلك اليوم الذى صحبته فيه إلى مدير شركة الإعلانات الوسيم الذى لم يخف أنه على علاقة بها ... خطر له سؤال :

– هل أغرته « زينة » وجرجرته إلى الفخ ... هل ... ؟!

لكن يوسف نسى السؤال والجواب ، عندما طرحوه على بطنه وقالوا له :

– سنجرى لك رسما بالأشعة ! ...

و ....

ظل ساعة ::: ساعتين ::: يوما كاملا ::: يوما وليلة ::: أكثر ::: أقل .ه. لا يدرى :.: فقد تجمد من البرودة .:. ثم تفككت أوصاله من السخونة ... ولم يعد قادراً على التخمين بمصيره ..:وأجهزة للتعذيب لاتكف عن امتصاص رحيق الحياة من جسده المثخن بالجراح والآلام و ::: ظلت لوحة «كبوة الحصان» مجرد مشروع فى ملحقات ملف يوسف حنا يوسف على مكتب الجعفرى الذى قال لنفسه بشراسة : «لابد من الانتهاء من هذه القضية على وجه السرعة ، قبل أن تغرقنى بأسرارها وذيولها التى لا حصر لها»

::: ::: ::: ::: ::: ::: ... ::: ::: ::: ::: :::
::: ::: ::: ::: ::: ::: ... ...
::: ::: ::: ::: ::: ... ... :::
::: ::: ::: ::: ::: ::: ::: ::: ::: ::: ... :::

● **ملحوظة :**

استطاع السجين منصور أن يقنع الصول عبد الحق بسهولة ::: قال له : إذا خنتك عند الجعفرى سيكون أمامك الوقت المناسب لتقتلنى — قضاء وقدراً — كما تفعلون عادة مع غيرى ! .:.

ونظر عبد الحق فى عينى منصور :.: كان ثمة صدق غريب ينمو فى أعماقهما ... فوجد نفسه يصدقه ! :::

وأخفى فى ثيابه بعض القطن والأربطة والأرغفة ، وذهبا معاً إلى زنزانة يوسف ::. محاذرين أعين الجعفرى ! ...

١٥ ـ المذبحة

فى عتمة الزنزانة ، جلس الصول « عبد الحق » بجوار « وليد » وأشعل له سيجارة ... واجتاحته رغبة جامحة فى أن يضاحكه ... قال له :

ـ هل تعرف حادثة أمير الشعراء ؟! ...

اندهش وليد ... لكنه ظل ساكناً فى ركن الزنزانة ، يدخن سيجارته ... محاولا التغلب على آلامه ...

قال الصول عبد الحق :

ـ عندما تم القبض على أحد المتهمين ... وكان فى الأصل يعمل مدرساً ... وجدنا فى حوزته بعض الخطابات من أحد الأشخاص ... وقبضنا على هذا الشخص ... وعند استجوابه وقعت هذه الحادثة .

وضحك عبد الحق ... أغرق فى الضحك ، تمنى « وليد » لو يشاركه... فكم كان فى حاجة إلى ضحكة واحدة تريحه من العناء ...

وعاد عبد الحق يقول :

ـ دخل المتهم إلى حجرة مدير السجن ... لا لم يكن هو الجعفرى

... واحد آخر مثله تماما ... المهم ... وقف المتهم ... هكذا — ووقف عبد الحق يمثل المشهد لوليد :

س— أنت بعثت هذه الجوابات لفلان الفلانى ؟! ...

ج — بعثتها يا فندم ...

س— لماذا يا بن الكلب ؟! ...

ج — أصل الحكاية يا فندم أنه ! ...

ولم يدعه مدير السجن يتم حديثه ... بل قال له :

— أصل الحكاية يا بن الكلب ؟ ...

عندئذ انهال عليه الحارس المرافق ضربا بعصا غليظة من الخشب وهو يردد كلمات سيده :

— أصل الحكاية يا بن الكلب ... أصل الحكاية يا بن الكلب ...

وسقط المتهم مغشياً عليه من هول الضرب وتم إسعافه وواصل المأمور استجوابه :

س— هيه ... ما هى الحكاية ؟ ...

ج — أصل الحكاية يا فندم ...

س— هيه ... ما هى الحكاية ؟ ...

ج — أصل الحكاية يا فندم ...

وسأله المأمور بغضب شديد :

- أصل الحكاية يا بن الكلب ؟! ...

و ....

ضحك عبد الحق ... حتى لمعت الدموع فى عينيه وقال :

- وانهال العسكرى على المسكين ضربا حتى أغمى عليه مرة أخرى ودلقوا على وجهه جردل ماء ... وأفاق ... ليسأله المأمور :

س- لماذا أرسلت الخطابات يا بنى آدم ... قل ... تكلم ؟! ...

ج - أصل الحكاية يا فندم ! ...

و ... عاد العسكرى يضربه ...

قهقه الصول عبد الحق ... وسعل ومسح عينيه وأنفه فى منديله الكاكى وقال :

- أخيراً تنبه المسكين إلى أن قوله « أصل الحكاية » تجر عليه البلاء الأزرق ، فحرص ألا يذكرها ... عندما سأله المأمور :

- هيه ... لماذا بعثت بالخطابات إلى هذا الشخص ؟! ...

رد الرجل :

- هو كان مدرس ... وأختى كانت تلميذة عنده فى الفصل ... كان مدرس عربى ... وفى يوم فتحت كراسة أختى فوجدته كاتب فيها تحليل لشعر أحمد شوقى ... ويمجد فيه جداً ... فأنا بعثت له جواب مع أختى أشرح له فيه رأيى فى أحمد شوقى وأشعاره ... هو رد على الجواب

بجواب وأنا رديت عليه و ... هو يقول أن شوقى شاعر ... وأنا أقول حافظ أشعر منه ... وجهة نظر يا فندم ! ...

عندئذ انتفض المأمور وزمجر قائلا :

– بقى شوقى مش شاعر يابن الكلب ... ؟!

وانهال عليه العسكرى بالضرب وهو يردد كلمات سيده :

– شوقى مش شاعر يابن الكلب ... !

جرح صاحبنا وأهين ... و ... صرخ مستغيثاً ... :

– شوقى شاعر ... والله العظيم شاعر ... ارحمونى ! ...

عندئذ توقف العسكرى عن ضربه وتهلل وجهه وأعطى المأمور التمام وقال :

– خلاص يافندم ... المتهم اعترف ! ... و ....

قهقه عبد الحق ... وضحك وليد ... ولكن الصمت حاصرهما وحاول « وليد » أن يخمن الهدف من وراء هذه الزيارة المسلية ... إن عبد الحق يعطف عليه وعلى زميليه عصام ويوسف ... لكن كيف يجرؤ عبد الحق الجبان على أن يجلس معه هكذا ... وسطوة الجعفرى وعيونه المتلصصة تصل إلى داخل أحجار الزنزانات وما حول القلعة من الجهات الأربع ؟! ...

سأل عبد الحق بخبث ليحسم المسألة المحيرة :

– خيرا يا عبد الحق ... بيه ؟! ...

فتنهد عبد الحق ، وقال :

— أبداً ! ...

وفكر أن يخبر وليد بمقتل زميله « عصام فتوح عبد الدايم الهمشرى » لكنه خشى من الجعفرى ... فصمت وقال :

— إننى الليلة ضابط نوبتجى ... والجعفرى مشغول الآن بصديقاته الحسناوات ! ...

وحاول وليد أن يطمئن قليلا ... وقال :

— يمرحون ويعبثون فى البلد كأنها عزبة أبيهم ! ...

قال عبد الحق :

— أتعرف يا وليد يا ابنى ... كان أبى خفيرا خصوصيا لعمدة البلدة... وفى تلك الأيام كان ذلك المنصب يعنى الشىء الكثير ... كان أبى يجلد لصوص البلد فى بدروم السراية ، وكان يضرب نسوانهم ... وكان يسوق الجميلات منهن إلى فراش العمدة ، ثم فراش شيخ الخفر ، وأما القبيحات منهن فمصيرهن إلى الزرائب لتنظيفها ! ...

وعلق وليد :

— هذه صراحة مريبة منك يا عبد الحق بيه ... ولا تؤاخذنى !

و ....

صمت عبد الحق محزونا ... وأخذ ينظر إلى جراح وليد المتقيحة على ضوء عود ثقاب ... وأشعل له سيجارته وأخذا يدخنان ... ثم قال :

— لقد علمنى أبى — يا ولدى — درسا لا أنساه . . . قال لى : « كن مع الكبار على الدوام ، وإلا نهشك الصغار والكبار . . . وداسك الجميع بالنعال ! ... »

قال وليد بصوت يمزقه الألم :

— هذه مغالطة من السيد الوالد ! ...

قال عبد الحق وكأنه لم يسمع تعليق وليد :

— وهأنت ترانى مع الجلادين يا ولدى . . . وليتك تعرف القدر الهائل من العذاب الذى ظللت أختزنه وأجتره ليل نهار . . . طيلة هذه السنوات دون أن أجرؤ حتى على البوح بخوفى . . . حتى زوجتى وأولادى ومنهم من هم فى مثل سنك . . . إننى لا أحدثهم عن متاعبى . . . وهم لم يسألونى عن شىء . . . ولا أعرف لماذا أقول لك يا وليد كل هذا الآن ؟ ! ...

قال وليد وقد بدأ يثق به :

— الإنسان منا فى حاجة لمن يستمع إليه فى النهاية . . . قل ولا تخش شيئا فأنت تعلم مصيرى أكثر منى ! ...

قال عبد الحق :

— إننى أتوجس شراً خفيا يتربص بى خلف كل جدار . . . بعد كل خطوة . . . إننى مهدد فى كل ثانية تمر بى هنا . . . لدرجة أننى أخاف أن أطلب منهم نقلى من هنا إلى أى مكان آخر ! ...

و . . . .

طال الصمت ::: وبدا عبد الحق ضئيلا :: . شديد الضآلة داخل ثيابه غير المشدودة على جلده النحيل ، ومسح وجهه – الذى تملؤه التجاعيد وتزيده قتامة وحزنا – بظهر يده المرتعشة وقال :

– خذها منى خالصة لوجه الله يا ولدى .:: إن كان فى العمر بقية .:: لا تصعر خدك لكائن من كان . . . وأحسن القول عند الشدائد . . : وفى لحظات اللهو أيضاً . . . وخذ حذرك . . . فما أكثر ما نفعل دون أن نهتم بما نفعل . . . لكن العيون التى ترصد وتراقب وتطارد : : . كثيرة .:: كثيرة ومخيفة . . . ولا تترك صغيرة أو كبيرة ألا وأحصتها عليك وأعدت لها ألف تفسير وألف معنى وألف سبب وألف احتمال عدوانى على الدوام ! ...

وقال وليد :

– نصيحة غالية ... تأخرت كثيراً ! ...

وصمتا ... ظلا صامتين دقيقة : . . أو أكثر ، ثم نهض عبد الحق واتجه إلى باب الزنزانة وفتحه فانفلت منه خيط مبهر من ضوء الفجر ::: وقف يتأمله لحظة ، ثم قال لوليد بصوت يخنقه الهمس : ...

– المفروض أن أكون قد أعددتك جيداً لكتابة اعتراف تفصيلى توقعه بكامل حريتك وبخط واضح أمام الجعفرى . : . أتفهم يا ولد ! ::

و ....

واجه وليد ، لحظة ، بوجهه العجوز ، ثم قال له :

– لا تجبن مثلى . . . ولا تخف . . . إننى لا أعرف لماذا ظللت جبانا طوال هذه السنوات . . : لكن . : . المهم الآن . . . أن تريهم أنك رجل بحق ... وتصرف على ضوء تقديرك الحكيم للأمور .:. هه ! .::

ثم ترك له علبة سجائره ... واختفى دون أن يشعر به أحد ...

....

....

جذب وليد الزناتي خليفة ، النفس الأخير من سيجارته ، وأطبق أصابعه على سجائر عبد الحق ... واندفعت أحداث السنين الماضية تثقب ذاكرته ، وجراح روحه ونفسه وعقله وقلبه وشرفه وتوالت الصور ، أمام عينيه المتورمتين :

... ...

رأى والده الزناتي خليفة ، يرفع فأسه ويطيح به فى الجميع دون أن يهاب ثم يزعق على رأس الجسر منذرا متوعدا الكلاب أولاد الكلاب ... لكنه ما زال مجهول المصير من قبل ومن بعد ، هل لدغه ثعبان حقا ... أو قتلوه وشوهوا جثته ورموها فى البحر الصغير مربوطة بأثقال من الحجارة لتظل فى الأعماق لقمة شهية للأسماك ؟ ! ...

... ...

ورأى « الشيخ تهامى » ... زوج أخته ، فى طهارة الأطهار ... عالى الصوت ، قوى الحجة ، رجلا لا يلين ، لكنه فقد قدرته على الإنجاب هنا ... فى مضيفة محمد على باشا ... وعاد مشروخا مهزوزا ، يضاعف جهده ليظل الرجل الذى كان صلبا فى أذهان الناس ، وليس غريبا أن يكون الآن صديقا لبلطية — كما يدعى الجعفرى — لقد تأخر انهياره زمنا طويلا ، ولا شك أنه وجد نفسه أخيراً فى حاجة إلى من يمنحه بعض العزاء ...

ولم لا ؟ ! ...

ورأى « مخيمر » ... تاجر الحمير والمواشى ، الجدع ، الذى يضرب المخطئين بخيزرانته ، ويقول للأعور أنه أعمى ... دون أن يخشى لومة لائم ... ولكنه كان يترك زوجته أم البنات ، وبسيمة الحلوة ، ويهرع إلى بلطية ... كان يحن إلى أحضانها دوما ... و ....

....

رأى « عطوة » ... الأسطى الكهربائى ، وقد امتدت مشاريعه إلى القرى المجاورة ، ولا حدود لجشعه ، ولن يوقفه شيء عن كتابة التقارير ... والوشاية ضد الجميع ، لكن أسلاكه الصدئة ستحرق البلدة ... حتما ستحرق البلدة ...

.... لم يكن وليد قد عرف أن بلدته احترقت فعلا فى غيبته ، وأن أخته ماتت ، وأمه ماتت ، وابن أخته « خالد » يعيش الآن يتيما مع بلطية. قال له الجعفرى ذلك ، فلم يصدقه ، ظنه يمارس معه لعبة تحطيم الأعصاب والإرهاب ! ...

....

....

ورأى « وليد الزنانى خليفة » ، أهالى بلدته ، فى الجمعية التعاونية الزراعية : يقبلون أقدام المدير ليرحمهم ساعة الحساب ، ويرفع عنهم ما لا يعرفون متى وكيف استدانوه ، من نقود وتقاوى وأسمدة ....

....

ورأى المدرسة الليلية ، وقد أغلقت أبوابها ، وتحطمت فوانيسها ،

وعاد الجميع إلى الأختام ، دون أن يهتم أحد بإكمال تعليمهم الحروف
... و ...

....

....

ورأى وليد ... صديقته الحميمة « نادية » تمرح مع صديقاتها الأرامل ، وتداعبهن بكلماتها اللاذعة عن العيب والحرام . . . وهن يقلن لها :

– ناشرة الفضيلة تغالط ! ...

فقالت لهن :

– لست عاطفية لدرجة الانغماس فى الرذيلة مثلكن ...

فسخرن منها واتهمنها بأنها تحاول إبعاد الأنظار عن عشقها المجنون للولد « وليد . . . » وخشى عليها من السقوط ... تمنى أن يعانقها ليتبادلا بعض الصدق والشجاعة والصبر ... قال لها :

– ثقى بنفسك يا غالية ! ...

قالت له :

– كن مطمئنا ! ...

قال لها :

– أنت تحاولين المستحيل ... فجمالك محاصر ... والذئاب تملأ البيوت والشوارع وتتربص خلف الأبواب ! ...

قالت له :

– لا تخش شيئا ... إننى كفيلة بهم ! ...

قال لها :

– لسنا فى عصر المعجزات يا نادبتى الغالية ... إنك ستضعفين ... ستضعفين ... ليست نبوءة ... إنها حقيقة ... فهم أشد شراسة فى المطاردة وأنت بلا مخالب ... بلا أنياب ! ...

– أتوقع كل ما تخافه ... لكن الذى يحزننى حقا هو أننى أبدا لم أكمل أية قصة شاركت فى بدايتها ! ...

قال لها :

– أسأت الاختيار على الدوام ! ...

قالت له :

– خدعونى بحسن مظهرهم فى البداية ! ...

– لكنهم فرطوا فى حمايتك ... لم يضعوك كما يجب فى العيون والقلوب ! ...

– انشغلوا بأنفسهم أكثر مما يجب ! ...

سألها :

– بالمناسبة ... هل أعجبتك قصتى الأخيرة ... إنها عن فكرة خطرت لك يوم سافرنا إلى الاسكندرية ؟ ...

قالت له :

– أفزعتنى بدايتها ... « وقف أبى يتلقى العزاء فى وفاتى ... وأجبرنى على الوقوف بجواره ! ... » .

و ....

يومها ضحك وليد ، وعاتبها :

– « ناديتى الغالية » ... ومشهد المذبحة فى « ممر متلا » ؟ ! ...

قالت له :

– أخافنى جدا ... إننى لم أكن أتصور أن يموت زوجى هكذا !

قال لها :

– كان واحداً من كم ألف ... الله أعلم ! ...

قالت :

– لم يكن وحده ... وذلك لا يخفف من بشاعة ما حدث ! ...

قال لها :

– ترى فيما كانوا يفكرون لحظتها يا زرقاء اليمامة ؟ !

قالت :

– أعتقد أن أول شيء يفكر فيه الإنسان لحظة سقوطه هو الهرب ... طبعا هو يسترد شجاعته ... فيما بعد ... لكننى أتحدث عن الشعور البشرى فى لحظة الخوف المباغتة ... وخاصة إذا فقد الأمل فى النجاة ... واكتشف حجم الخديعة ! ...

و ....

سألها :

– لكن ... لم تخبرينى بعد ... لماذا تهربين منى ؟ ! ... إنك فى سن النضج ! ...

قالت بمرارة :

– تقصد ... في سن الأمومة ! ...

قال مداعبا :

– ذلك يشجعني أكثر على التعلق بك يا معبودتي العظيمة ! ...

و ....

تبادلا النظرات في صمت ... كانت عيناها العسليتان الغامقتان تبوحان بأسرار العشق المقدس ، كانتا تلبيان دعوته للحب والبهجة :

و ....

... دخل الصول عبد الحق ، حاملا بعض الأطعمة في سترته ، جلس بجوار وليد ... أعطاه الأكل ، شجعه على أن يتناول منه شيئاً ، وضحك بأبوة مرهقة ... وقال :

– كان بودي أن أحمل لك كوبا من الشاي لولا أن الحراس هنا أنذال ! ...

وضحك وليد ... وربت بيده الجريحة على كتف عبد الحق بامتنان ، فاكتسبت أبوته لمعانا متوهجا وأحس أنه فعل شيئا إنسانيا ! ... ...

عندما نهض عبد الحق ، ليغادر وليد ، توقف وقال :

– نسيت أن أخبرك بشيء يا ولدي ... ...

و ... ...

مرت لحظة صمت ثقيلة ... ووليد ينظر إلى شفتيه تحت شاربه الأشيب الكثيف و ... خاف ... أحس أن شيئا مرعبا سيقال فهمس :

– خيراً إن شاء الله ! ...

و ....

قال عبد الحق :

– ليس من واجبي أبداً .. أن أقول لك أن صاحبك عصام .....

قاطعه وليد مرعوبا :

– لا تقل أنه اعترف ... دعني أظل أحبك وأثق بأبويتك ... إنك رجل طيب ولا يمكن أن تكون مخادعا مثل الجعفرى ! ...

....

هز عبد الحق رأسه الذى أثقله المشيب وهم السنين والتعب والخوف وقال بأسى :

– عصام .. ما ... مات ! ...

وهرول خارجا من الزنزانة قبل أن يفيق « وليد » من الدوامة التى حاصرته ... اعتصرته ... وجعلته يعوى ... عاجزا عن الحركة ... ظل قابعاً ... منهاراً فى ركن الزنزانة ... حافيا ... عاريا ... فوق البلاط ...

و ....

تمنى لو يناطح الجدران الصلبة برأسه حتى الموت .. لكن الأعوان فاجأوه بقدومهم ... وبدأوا فى تعذيبه بوحشية ! ...

● **ملحوظة :**

خلف اسطبل الخيل حاول أحد الحراس الأشداء إجبار منصور على الجلوس معه قليلا كالعادة . لكن منصور رفض باصرار وهرول مبتعدا ... فأثار دهشة الحارس وغضبه ! ...

١٦ ــ الحب الكبرياء

كان عصام شجاعاً ونبيلا ... كانت حبيبته « زينة » لا تتصور أنها فى يوم من الأيام ستفقده ... لكنها تركته ذات يوم إلى عوامة إمبابة وصارت صديقة ليوسف ...

....

....

ويومها ... ذهب عصام إلى صاحبه وليد ... كان مهموماً ... وحكى له كل شىء ...

ويذكر وليد :

ــ كنا فى حجرتى بالمدينة الجامعية ... جلس معى واحتسينا الشاى ودخنا السجائر و .. قال لى :

ــ كل الأشياء فى حياتى ... تدفعنى إلى اليأس ... إن كل أمانى شبابى مبهمة مثل صباح ملفوف بالضباب ... ماذا أريد ؟ ... ماذا أفعل ؟ ... ما هو المصير ؟ ... وألف سؤال آخر ، يعصف برأسى وأنا حائر مضطرب لا أدرى من أمرى شيئا ... لقد امتزجت الحقيقة بالكذب والنفاق ... وتهت من نفسى ...

وصمت « عصام » ... ازداد شحوبا ... ازداد توترا ... كان يبكى وهو لا يحب أن يفعل ذلك ... على الأقل أمام أحد ... حتى ولو كان أمام وليد ... الذى داعبه وحاول أن يخفف عنه ... وقال له :

ــ آه لو رأتك « زينة » الحلوة الآن ... لعرفت أى رجل أحبت !

قال عصام :

ــ إن « زينة » جزء كبير من أحلامى ومشاكلى ... إنها مثلى فى حاجة إلى ميناء يحتوى أحزانها ... تصور أنها حاولت الانتحار ؟!

اندهش وليد ...

ــ الانتحار ؟! ...

قال عصام :

ــ عشر مرات جرحت يدها ... تناولت حبوباً منومة ... واسبرين لكنها لم تنجح فى كل مرة ... وكنت أظل بجوارها ... أعنى بها حتى تشفى وتستعيد صحتها ... وقد سألتها مره :

ــ هل تريدين الانتحار حقاً ؟ ... فلم ترد ... آخر مرة رأيتها فى حفل عيد ميلاد إحدى صديقاتها ... أتعرف ماذا حدث ؟ ... أصرت على أن أرقص معها ومع الشبان والبنات رقصات حديثة لا أعرفها ... اعتذرت لها ... فتاهت منى بينهم وأزعجتنى موسيقى الجاز فخرجت ... وكانت هذه آخر محاولاتها للانتحار عندما جاءتنى فى اليوم التالى متورمة العينين من البكاء وجرحت نفسها بسكين المطبخ ... فضربتها ... وذهبت من يومها ... دون عودة ...

وصمت عصام مرهقاً ... فقال وليد :

ــ كل هذا أدعى لأن تتماسك يا ولد... إنك رجل ، وعليك أن تتخلص من هذه الكآبة ! ...

قال عصام :

ــ أريد أن أرد على خطابات أبى ... خطابه الأخير يؤلمنى كثيراً ... يتهمنى بالإلحاد والكفر ... و ... أنا أعرف أن الرد عليه لن يفيدنى فى شىء ، لكن ربما أراحنى نفسياً ... إننى يجب أن أوضح المسائل لأبى ... إنه مشغول بطموحه ... واستثمار أمواله ... ونسى أن يستثمرنى أنا ... ابنه الوحيد ! ...

قال وليد ، وهو يشعل سيجارة لعصام :

ــ كل الأمور يمكن أن تناقش ... بشىء من التعقل والهدوء ... فنحن فى ورطة تاريخية تنعكس على كل شىء فى حياتنا ... وما أحوجنا اليوم إلى الكثير من الحكمة ! ...

قال عصام وعيناه الشاحبتان تغوصان فى الأفق البعيد ، عبر النافذة :

ــ كان يجب أن أتعمق شعورى نحوها ... إننا متخاصمان منذ شهر ... والعلاقة بيننا متوترة ... كنا نلتقى وكأننا غريبان ... أو غريمان ... كنا لا نتبادل ابتسامة أو كلمة ...

سأله وليد :

ــ هل من سبب ... لابد أن هناك أسبابا ؟ ... طال صمت عصام ... ازدادت أحزانه ... دخن سيجارته ثم قال :

– أتعرف ... كلما تذكرت ذلك اندهشت ... إنها مخبولة هذه الفتاة...

حلوة ... مثيرة ... أنوثتها طاغية ... وذكاؤها حاد ... ومع ذلك ... تصور ... فى مرة أعطتنى مظروفا كبيراً مليئاً بأوراق من مختلف الأحجام والألوان ... وقالت لى بعصبية زائدة :

– هذه هى كل تجاربى ... هذا هو كل الماضى التعيس الذى يجب أن تعرفه ... لتكف عن شكك فى ! ...

وعاد عصام إلى الصمت ... لحظة طويلة ... ثم قال :

– كان فى المظروف الكبير أشلاء جثث ... وحكايات غرام وعبث مراهقة وأشواق حب غريبة ... ورغم أننى لم أكن أشك فيها للدرجة التى تظنها مخيفة ... إلا أن أوراقها ملأتنى بالقرف والشفقة معا ... سأحكى لك بعضا من هذه الأوراق ! ...

ثم أضاف :

– لا ... لن أحكى لك ... إنها مثيرة لأحزانى ... خذها إن شئت ولك أن تقرأها ... وأن تحكم على نوع الحياة الغريبة التى عاشتها هذه الفتاة... وتجبرنى أن أشاركها فى احتمالها ! ...

قال وليد :

– ماذا دهاك يا عصام ، أنت تعرف أن « زينة » مرت بظروف قاسية ... وأنها ليست إلا بشراً ضعيفاً ... وأنها اضطرت للانحناء كثيراً لتحصل على العمل ... على النقود ... المهم أن تساعدها على عدم تكرار ذلك ! ...

قال عصام :

ــ المأساة أنها تفعل ذلك اليوم . . . وستفعله غدا . . . وأننى لا أستطيع التخلى عنها ...

ولفهما الصمت . . . وأعطاه عصام المظروف الكبير . . . وتركه يقرأ ما يحلو له من أوراق الفتاة ...

....

....

فى ٦/١٦ ... كتبت « زينة » :

حياتى كلها جدران جرداء ... لا لون لها ... إن قلبى الصغير لا يحتمل كل هذا الشقاء ! ...

....

....

وفى ٦/٢٠ ...

ذهبت إلى مدير شركة الإعلان العصرية . . . طلبت منه أن يجد عملا لعصام ... فقال لى « لا تتعجلى الأمور . . . نذهب إلى العشاء أولا . . . ثم نتباحث فى كل الأمور » ... ...

وفى ٦/٢٥ كتبت :

أخذنى ولد حبوب . . . كنا نلتقى فى المترو كل يوم . . . كان يطاردنى بعينيه الساحرتين . . . قال أنه يستعد للسفر إلى أوربا لدراسة الطب . . .

وعدنى بدعوة للسفر إلى هناك ... وأردت أن أجعله يسافر ومعه ذكريات غالية عن مصر ... فمنحته كل وقتى ! ...

....

فى ٥/٧ كتبت :

رفض عصام العمل فى شركة الإعلان العصرية ، أصر على أن يظل عاملا فى مصنع الورنيش ... ثار عندما قلت له أن مدير الشركة يرحب به وقال أنه لن يعمل مع الذين يشوهون حياتى ! ... ... تمنيت لو أنه أخذنى إلى المأذون وتزوجنى لكنه عاجز عن تطوير حبه لى ! ...

....

فى ٨٣٠ وصلها هذا الخطاب :

« حبيبتى ... أرجو إرسال خطاب مطول عن أحوالك...وظروفك... وأرجو أن تقدرى ظروفى . . . وربنا بإذنه سيحسن ظروفى . . . وسنعود إلى بعضنا يا أعز ما أملكه فى هذه الحياة . . . إننى أحس وأنا فى هذه الأزمة أنك الوحيدة التى تدفعنى إلى الصمود فى هذه الورطة . . . فأنا أرجو أن نتفاءل ... حبيبتى ... إننى أريد أن أنهى خطابى إليك بكلمات يستريح لها قلبى وهى أننى أحبك وأقدرك وأقدر موقفك منى يا حبيبتى ولذا أقول على الدوم إننى أحبك ... وسأستمر فى حبك إلى مالا نهاية » ...

« زوجك : س ... »

... « حبيبتى وزوجتى ... إننى أكتب لك الآن خطابى ولا حول لى ولا قوة ... وعندما دخلت السجن أدركت أننى فرطت فى النعمة الكبرى

وهى أنت يا حياتى ... لكن كانت قوة تحملك وصبرك وخطاباتك عونا لى على الاحتمال ... لكن بالله عليك أخبرنى ... هل حقا طلبت الطلاق منى ؟ ! .. أهلى أخبرونى بذلك فلم أصدق ... إننى أجن لو انفصلنا ... لأننا لم نتزوج بعد إلا على الورق .... لم ندخل عش الحياة ولم نفرح بعد.... أرجوك ... » .

....

....

وفى ٩/١٥ ... وصلها خطاب ثالث :

« آه يا خائنة ... إنك لست إنسانة ... لقد طلبت منى أن أعد شقتنا كما تريدين أنت ... ثلاث غرف ، ثلاجة ، مطبخ تليفزيون ... ديكورات ... وغضبت عندما طلبت منك التنازل عن بعض المطالب ... على الأقل بعض الثياب الغالية ... واقترحت عليك أن نسكن مع أسرتك أو أسرتى فثرت وقلت إنك تريدين الزواج ليكون لك بيتك الخاص ... وسرقت بسببك فمرتبى ومرتبك لا يكفيان لأى شىء يا بنت الـ .... » .

....

....

وفى ١١/٩ ... كتبت هى :

حينما أتذكر هذا الإنسان ... أندهش ... لماذا اختاره الله لى ... لماذا اختارنى له ... إننا جميعاً لنا أخطاء ... ولكنه كان زوجا لأخرى ...

وكذب على . . . خطبنى . . . وعقد قرانه على . . . ودخل بيتنا وشاركنى أحلامى فى بيت العمر . . لكنه سرق بسبب زوجته الأولى أم أولاده . . . وادعى أننى السبب فى مأساته و . . . . . .

فى ١١/١١ ... كتبت :

عرفت اليوم عصام فتوح عبد الدايم الهمشرى ... شاب لطيف . . . لكنه غير محايد . . . إنه منحاز لأشياء لا أفهمها أبدا . . . لكن رجولته مثيرة للاعجاب ... أحاول أن أفهمه ...

فى ١١/١٢ ... كتبت :

... أصبح عصام كل شىء فى حياتى . . . لكن عواطفه غريبة . . . إنه لا يفهم رغبتى فى أن يكون لى بيتى ... عشى الخاص ... الذى أتخلص فيه من كل مخاوفى وأنطلق معه إلى رحاب الأفق الوردى المثير . . . لكنه عاجز عن تحقيق هذا الحلم معى . . . مشاكله تفوق الحصر . . . تخيفنى ... وليته يكف عن نصائحه لى ! ...

وفى ١٢/٢٥ :

نخرج كثيراً ونمزح معا ... ونفترق على وعد بالحب واللقاء و . . . لكن حبيبى يتركنى بغير حماية . . . عملى فى الفنادق مرهق . . . وإغراء الزبائن تصعب مقاومته . . . وعصام لا يكف عن لومى ! ...

و . . . . . .

قال عصام بعصبية مخيفة :

— لقد تعبت يا وليد . . . وأريد أن أواجه نفسى بصراحة الآن . . .

إننى ببساطة لست أنا ... لست أنا . . . إننى أتمرغ فى وحل مخيف و . . . أنا الحقيقى . . . تاه منى ... إننى لست ذلك الانسان الذى تظنه يا وليد ... ولا أعرف كيف أبعث الحب والدفء فى حياة إنسان . . . إننى فقدت كل شىء دفعة واحدة . . . اتهمنى أبى بالعقوق والكفر . . . وقاطعتنى « زينة » لعجزى عن الزواج منها . . . و . . . أساتذتى الكبار . . . الذين تعلقت بأفكارهم زمنا طويلا ... يتسابقون الآن وراء الأضواء المثيرة فى الراديو والتليفزيون ... والأموال تجذبهم من أنوفهم صاغرين ! ...

و ... صمت عصام لحظة ... كان يئن خلالها من آلامه المبرحة . . . أعطاه وليد سيجارته الأخيرة ... أعطاه نصف كوب من الشاى . . . ظل منصتا إليه باهتمام ...

لقد رأيته على شاشة التليفزيون منذ أيام . . . أستاذى الذى علمنى الكثير فى كتبه وفى حواره ومناقشاته العميقة . . . آسف . . . التى كانت عميقة ذات يوم . . . لكنه اليوم . . . كان شيئاً مختلفا . . . تجعد وجهه من كثرة الابتسام بنفاق ، وحاولت المقارنة بين كلماته المخادعة وبين رأسه — الذى كنت أحترمه — لكنى تعثرت فى نتوء « نافوخه » الأجوف ... فكيف حدث هذا ؟ ! ... هل من السهل أن تكذب على « زينة » . . . ومن السهل أن يخدعنى هذا الأستاذ ؟ هل كان يخدعنى فيما مضى ؟ ! . . . وكلماته ، وأفكاره عن الحق والحرية والعدل الاجتماعى وأساليب ممارسة التحول ، وإصراره على رفض المصالحة شكلا وطريقا وإلحاحه على حتمية التصادم . . .

وصمت عصام مقهوراً . . . ومسح عرقه الذى نشع من خلايا جسده

النحيل ، وحدق فى الأفق البعيد عبر نافذة حجرة وليد . . . وما لبث أن عاد يقول :

— ها هو معلمى قد صار من ألمع « مفكرى الطبقة » . . . ويحقق بنشاطه الذهنى ، رفاهية مادية فاخرة . . . لقد زرته أمس فى بيته لأسأله ... أستفسر منه . . . هل تراجع عن فكره أو أنه اكتشف وسيلة أخرى للحياة... كنت أريد أن أفهم . . . أعرف . . . لكن البذخ والرفاهية التى يعيش فيها جعلتنى أتردد . . . وأصمت ...

قال وليد :

— من حق كل إنسان أن يعيش فى رفاهية ! . . .

فصاح فيه عصام :

— كف أنت أيضا عن الكليشهات المحفوظة فقد مللتها . . . إنه لم يكن يمارس حقه فى حياة الرفاهية فقط . . . إنما كان مرفها فى سلوكه فى ألفاظه . . . فى جلسته . . . فى كل شىء ... وهذا حقه ... كما تقول . . . لكن الأمر المحير حقا . . . كيف تمكن هذا الأستاذ المبجل المنحدر من سلالة كلها من الأجراء ، والذى لم يكن يملك غير مرتبه الشهرى المتواضع كيف جهز مسكنه بكل هذا الأثاث الفاخر والأدوات المنزلية العصرية الغالية الثمن ! ...

وصمت عصام برهة غير قصيرة . . . ثم قال بألم مضاعف :

— وجدتنى أنظر إلى عينيه اللامعتين ببريق الشهرة ، ووجهه الوسيم وعنقه الذى اكتنز وجسده الذى سمن . . . وتذكرت ما قاله ذات يوم وكان نحيلا مهموما بمشاكلنا :

— إننا فى حاجة إلى دراسة زمن العمل اجتماعيا . . . ولنتفق أولا على أن السلع جميعاً نواتج العمل الإنسانى ، فالسلع التى يحتاج إليها الفرد الحر من حيث هى تجسيد للعمل الاجتماعى ، هى تبلور لجوهر واحد . . . فالعمل الذى يبذل فى إنتاج العطور — مثلا — مختلف تماما عن ذلك الذى يستخدم فى إنتاج القمح ومختلف أيضاً عن ذلك الذى يستخدم فى إنتاج الأحذية والمدفع .. وأفكارنا — يا عصام — تمتاز بالغائها الإيجابى للملكية الخاصة ورفضها المطلق للرفاهية الفردية على حساب المجموع من الكادحين الذين ... ...

يومها انهار « عصام » ... وعجز « وليد » أن يواسيه . . . كان كلاهما محزونا ... مفجوعا فى أحلامه . ..

وزعق عصام والألم يعتصره :

— وليد ... إننى فقدت توازنى نهائيا ...

و ... و...

صمت . . . امتزج تماما بأنفاس سيجارته ، وحاول وليد أن يسرى عنه ، قال له :

— إن الهوة التى تفصل بين المثل العليا والواقع ، آخذة فى الضيق تدريجيا ... والمجتمع المدنى — على أية حال ، وكما يقول — هيجل — لا يحفظ الفن قدراته وإمكانياته على الاطلاق . . . ومن هنا كان لابد أن تبحث عن الخوف . . . الخوف من البطش وراء أى تصرف . . . لأن ما يدفع الإنسان إلى الالتزام بشىء ما ... حتى لو كان « الضحك للضحك » . . . هو خوفه وتراجعه . . . وتعلقه بالحياة كسائر البشر ! ...

فاجأه عصام بعصبية :

ــ أكاذيب . . . أكاذيب . . . أنت أيضاً من هواة التبرير . . . إنك تغالط !

ــ لا تنس يا عصام أن العقاب هو الأداة التى تستعملها السلطة ــ أى سلطة فى أى بلد . . . فى أى تاريخ ــ لتستعيد بها حقوقها على الأفراد . . . وتفرض عليهم احترامها . . . وأستاذك المبجل مر بمحنة . . . أظنه ذهب فى بعثة إلى الواحات عام ١٩٥٨ ، ولابد أنه هناك قد عبر باعترافه الكامل عن تكامله واندماجه فى المجتمع وأنه على وفاق تام مع الكل . . . حتى مع نفسه ! ...

و ... ...

... ...

لم يعلق عصام ... وطال الصمت بينهما وانتهت سجائرهما . . . وملا البقاء فى المدينة الجامعية ، فاقترح عصام أن يذهبا إلى يوسف فى عوامة إمبابة ...

... ...

كان يحدق فى لوحته «كبوة الحصان» التى بدأها منذ عام ... ولا يعرف أحد متى ينتهى منها ... وجلس ثلاثتهم فى صمت ... تبادلوا احتساء نصف زجاجة البيرة ... و ... وداعبهما وليد :

ــ أقترح أن نأخذ حماما منعشا الآن فى النيل ... ما رأيكما ؟ !

قال يوسف :

ـ فكرة صائبة ... فما أحوجنا للاغتسال من الذنوب والأخطاء . .

أما عصام ... فقد كان شاردا يغوص ... تحت الأمواج . . . فى طمى النيل . . . فى جوف الشط . . . فى أحشاء الكون . . . علق بصوت خافت حائر :

ـ هل أنجح فى الانفصال كلية عن عقلى ؟ ! ...

وقال وليد :

ـ الجنون ليس حلا مقبولا على أية حال ! ...

و ... اهتزت العوامة تحت أقدام تعبر الممر برشاقة ... وفى ثانية . . . فى جزء خاطف من الثانية . . . اجتاحهم زلزال مفزع ... فقد رأوا . . . أمامهم مباشرة « زينة » ... بجسدها الرشيق النحيل المثير . . . بصدرها . . . بساقيها ... بوجهها الذى شحب فجأة وكأن الدماء سحبت منها دفعة واحدة ... و ... كانت عيناها مذعورتين .

و ....

انكمش يوسف . . . وأراد أن يقول إنه قد دعا « زينة » لىرسمها فى لوحته « كبوة الحصان » .. لكنه عجز عن ممارسة الكذب ... فهو يعرف أنه قد اشتهاها وأنه قد دعاها إلى مسكنه فى العوامة وأنها وافقت بلا تردد ! ..

أراد وليد أن يصارح عصام بأن « زينة » لا تليق بطهارته فهى ليست الملاك الذى يظنه ... وأنها مجرد إنسانة معذبة ويجب أن يدرك هذه الحقيقة ... حتى لا يصدم بفشله فى إصلاحها وإنقاذها ! ...

••• ••• •••

وانتهى المشهد المحزن كله فى صمت . . . على عكس ما توقعوا جميعاً . . .
فقد نهض عصام وخرج من العوامة إلى الشط . . . إلى الطريق . . .
وابتعد . . .

وانهارت « زينة » عند قدمى يوسف ، وظلا مسحوقين وقتا طويلا ،
بينما وليد يحدق فيهما ، ثم استدار ولحق بعصام . . . سارا فى صمت . . .
بالقرب من خيمة السيرك وتوقفا . . . قال وليد :

— نستطيع أن نقول الآن — يا صاحبى — على سبيل المحاولة الأولى لخوض
المشكلة وفهمها أن كل شىء ... ...

وأكمل عصام بانهيار تام :

— أن كل شىء . . . وكل مقولة . . . مجرد كذب . . . خداع . . .
أليس كذلك يا صناع الخداع والهزيمة والعار ! ...

وبكى ... فضمه وليد إلى صدره ومر بهما عسكرى الداورية وبائع
اللبن ، وبائعة هوى . . . ونظروا إليهما باندهاش . . . وعلقت المرأة
بوقاحة :

— انظروا . . . أحدهما ينافسنى بالتأكيد فى أكل عيشى ... زمن
أغبر ! . . .

و ... ...

نكس وليد رأسه ، وبصق عصام ، وعبرا الكوبرى وسارا
وحيدين . . . فى هيش الفجر . . . وسط سكون الزمالك . . . وأخذا
يصغيان لوقع أقدامهما المضطربة على الأسفلت . . . وسأل عصام :

–كيف أهرب ياوليد ... أريد أن أهرب من مصر كلها . . . الهرب أو الموت ... لكنى أعرف نفسى « جبان » ... هل تساعدنى ؟ !

و ... ...

....

وانفتح باب الزنزانة محدثا ضجيجا أفزع وليد الزناتى خليفة المستكين لذكرياته فى الركن . . . عاريا . . . محزونا على صديق عمره الشجاع ، وعندما صار الحراس أمامه وخلفهم الصول عبد الحق قال وليد لنفسه ، لصاحبته ، لحبيبته « نادية » :

–كان عصام كما رأيت يا غالية . . . قد حرم من حبه . . . ومن كبريائه أيضاً قبل أن يقتلوه هنا . . . أيرضيك هذا ؟ ! ...

و ... ...

لسعه أحد الحراس على قفاه ، فانتفض واقفا رغم آلامه الساحقة وحاول أن يكون مستعدا لاحتمال ما لا يتوقعه من التعذيب بأساليب فشل على الدوام فى تخمينها ... أو تحاشيها ...

و ... ...

اقتاده حارسان عملاقان . . . وكان عبد الحق يقف خلفهما مباشرة وسمعه وليد يأمرهما بغلظة :

– احملاه إلى هناك ! ...

فسحبه الحارسان وأوقعاه على وجهه ، فعاد عبد الحق يأمرهما بلوم وتهديد :

— قلت احملاه حملا إلى هناك ::: أتفهان ! :::

و ::: :::

حمله الحارسان : : : لكن ليس برفق وسار الموكب فى صمت فى الطرقات المظلمة ، إلى مكتب الجعفرى وأغمض وليد عينيه وود لو رأى « نادية » . . . ولو لدقيقة واحدة . : : لكى يبكى على صدرها : : : وينعى معها عصام :::

لكن مكتب الجعفرى كان مليئاً بشتى المخاوف التى أرعبت وليد : : : أرعبته حتى أعماقه ... و ... حاول أن يكون متنبها للجعفرى الذى كان متربصا له بشراسة تفوق الوصف ! ...

● **ملحوظة :**

كان منصور يشعر الآن وبشكل أكثر حدة بكل أخطائه وأخذ يتساءل عما يمكنه عمله من أجل وليد أو يوسف ؟ ! :::

***

١٧ ـ كلاب الصيد تلهث

« لو انتظر المصلحون دائماً رضاء الرأى العام ... لما تغير العالم عما كان عليه فى العصور البدائية ! ... »

علق الجعفرى بصوت وقح ... وعاد يكمل قراءة ملحقات ملف وليد الزناتى خليفة :

ـ إن أهالى مصر كانوا يرون شئونهم العامة بل والخاصة ، ملكا لحاكمهم الأعلى ومن ينوبون عنه فى تدبير أمور البلد .. وكان الأهالى يعتقدون أن سعادتهم وشقاءهم موكولان إلى أيد أمينة وعقول عادلة ... لكن ...

مرة أخرى توقف الجعفرى عن القراءة ، ونظر إلى وليد ساخراً وسأله باحتقار :

ـ غريب أمرك ... وما الذى لا يعجبك فى هذا ... إن أهالى مصر أحرار ... يطيعون حاكمهم ونوابه ... ويثقون بهم ... مالك أنت وهذا يابن المرأة الـ .... ؟

فقال وليد :

— اكمل قراءة المقالة — إننى أقول بالحرف الواحد : إن سعادة الأهالى موكولة بأمانة الحاكم أو .. خيانته وظلمه ..

وصمت وليد الزناتى خليفة .. وحدق فيه الجعفرى بعداء شديد .. و .. انكمش « عبد الحق » .. وتمنى لو صرفه الجعفرى ليهرب من الحرج القاتل الذى يجتاحه ، ولكنه فوجىء بالجعفرى يتابع القراءة :

— ولا يرى أحد من الأهالى رأيا يحق له أن يبديه فى إدارة بلاده .. و ..

و ....

توقف .. أشعل لنفسه سيجارة .. وسأل وليد :

— من تظن نفسك يا ولد ؟ .. مشرع قوانين .. مستشار للأمة ؟! ..

فابتسم وليد .. رغم آلامه التى ترهقه وتهز أعصابه ، وأسند نفسه على ذراعى حارسيه القويتين ، وقال باصرار :

— إما أن تكمل قراءة المقالة ... وإما أن تتركها جانبا ..

و ....

قهقه الجعفرى و « انجعص » فى مقعده ، وضع ساقا على ساق وخلع « الكاب » ووضعه بأناقة على حافة مكتبه ، وقال :

— قلت لك .. أن أمثالك .. يتحدثون هنا بلغة أخرى تماما .. أتفهم ! .. لا تستفزنى .. وإلا قتلتك فوراً ! ..

فزع الصول عبد الحق .. فشل فى إخفاء فزعه .. فهو يعرف الجعفرى وبطشه .. و .. يعرف معدن وليد .. وهو لا يحب أن يشهد مقتله .. مثلما شهد مقتل عصام من قبل ..

....

....

قال وليد ، بعد لحظة صمت متوترة .. مشحونة بشتى الاحتمالات :

— اسمعنى يا سيدى .. قد ترى أنه من حقك أن تسخر من كلام أمثالى من الشبان ومن عقولنا وآدميتنا .. لكننى لا أتصور أن يسمح أى إنسان .. كائنا من كان ، لنفسه ، بأن يسخر من آراء حفظها التاريخ للعالم المؤمن الشيخ محمد عبده ...

....

....

وأغرق الجعفرى فى ضحكات بذيئة ممجوجة ، وهو يقول ألفاظا داعرة ، ثم سأل وليد بتهكم :

— من ياخويا ؟ .. محمد عبده مات من سنين يا جاهل .. وهذه إحدى مقالاتك أنت .. إنها آراؤك الكاذبة المحرضة ضد الأمن العام .. أم تراك تظن أنه بالإمكان خداعى أنا .. فى هذه المسألة ؟!

وضحك وليد ! ...

وجد نفسه يضحك من جهل الجعفرى الفاضح ..

و ....

صرخ الجعفرى محتداً وأمره

— اصمت يا كلب .: اخرس واسمعنى .. !

ثم .: نزع مقالة وليد من الملف ونثرها فى وجهه قائلا :

— هذه مقالة تافهة لك أنت أيها الجبان الكاذب .. فلماذا تهرب منها وتدعى أنها لمحمد عبده .: تريد أن تبرىء نفسك من آرائك الهدامة ، لكن لا .. سأريك يا كلب كيف تضحك ! .:

وأسرع الصول عبد الحق يجمع صفحات المقالة من فوق السجادة ، وبعض المقاعد .: ومكتب الجعفرى .: وحاول أن ينظمها بحب .: بحنان .: باعجاب شديد بما يقوله الولد وليد .. لكن نظرة خاطفة من عينى الجعفرى جعلته يضع المقالة بارتباك شديد أمامه .. فوق الملف المفتوح .: وعاد بخوف ملحوظ يقف بالقرب من وليد وحارسيه ..

و ....

سأل الجعفرى :

— هى مقالتك .. أليس كذلك ؟ : ..

— ولكزه الحارسان بعنف ، وللحظة خاطفة سرح فكره فى تلك الليلة التى كان يكتب فيها مقالته ، كان مع صديقته « نادية » ... يتحدثان وينعمان بلحظة حب صادقة .. ثم كتب مقالته وقرأها عليها فى آخر الليل : قرب طلوع الفجر ..

....

قال وليد :

— هى مقالتى .: أعرف هذا .: فقد فرحت بكتابتها .: وفرحت

بنشرها :: ومازلت أحفظ كلمات الشيخ محمد عبده التى بدأت بها مقالتى :
إنها تقول :

– لا تتبجح يابن الكلب .. وتدعى أنها لمحمد عبده ..

....

– إنها تقول بالحرف الواحد :

– لا أجد من أهالى مصر من يرى لنفسه رأيا يحق له أن يبديه فى إدارة بلاده :: لا أحد من أهالى مصر يملك إرادته :: ويتقدم بها حراً :: إلى عمل من الأعمال يرى فيه صلاحا لأمته ::

– اصمت ! ::

– ولا أحد من أهالى مصر له علاقة وثيقة بالحكام ، سوى أنهم منصرفون فيما تكلفهم به الحكومة أو تقرره عليهم و ::

– قلت اصمت يابن الكلب ! ..

– وكانوا غاية البعد عن معرفة حقوقهم تجاه هؤلاء الحكام وأعوانهم الخونة ! ::

– اسكتوه يا أولاد الـ ::: أخرسوه ! :::

وانهال الحارسان ضربا على وليد ، الذى أكمل :

– وبلغ اليأس بالأهالى مداه :: فقدوا الثقة بكل شىء وكل حاكم و ::

– انكتم يابن الفاجرة ! :::

و ::::: :::::

قال وليد وهو يتلوى ألما تحت ضربات حارسيه :

ـ ومن عهد لعهد... ازداد القهر ... ازداد تباعد الحكام عن الأهالى... وتكاثر الأعوان ... ونشروا رذائلهم وفجورهم فى البلد ... و ... ...

وضع الصول عبد الحق يده على شفتى وليد ... أسكته ... برجاء أبوى مذعور ، حاول أن يجعل وليد يشعر به ...

وفى نفس اللحظة لم يكف الحارسان عن تلقين وليد درساً دامياً بأقدامهم وأيديهم ... و ...

اقترب الجعفرى ، أسكتهم باشارة من إصبعه ، ووقف أمام وليد الذى أجبروه على الوقوف ، وأطال الجعفرى التحديق فى عينيه اللتين فقدتا لونهما الحقيقى وسط هالة من الكدمات الزرقاء وبقع الدم ... و ... قذف فيهما دخان سيجارته :

ـ باختصار شديد ... أقولها لك ... ولآخر مرة ... لم يعد عندى وقت أضيعه مع أمثالك ... أتفهم ! ...

وصمت لحظة ، ثم أضاف :

ـ لقد اعترف عصام بكل شىء ... وكذلك اعترفت سهير ...

وصمت مرة أخرى ، ليرى رد الفعل المتوقع على وجه وليد ... لكنه فوجىء به لا مبالياً ، فعاد إلى مكتبه ، وأمسك بورق أمامه ... وقال :

ـ هذه هى اعترافات عصام ... وموقع عليها بخط يده ... يمكنك أن تراها ... أن تقرأها إذا أردت ! ...

وصمت لحظة أخرى ، يدرس ردود الفعل على وجه وليد ، بينما بطرف عينه يرقب وجه الصول عبد الحق ... الذى أحس أنه الآن فى مأزق لا مهرب

منه ... لقد كلفه الجعفرى بأن يعدو وليد للاعتراف ، وأن يقنعه بأن « عصام » قد اعترف فعلا ، وأنه لا داعى للمراوغة ... لكن يبدو أن عبد الحق قد لعب بذيله ... كما خمن الجعفرى ، الذى ما لبث أن أدرك كل شىء من النظرات المرعوبة فى عينى عبد الحق ، وعدم الاهتمام البادى فى عينى وليد ... فصرف النظر عن اللعب مع وليد باعترافات عصام المكذوبة ، وحمل علبة شرائط تسجيل ، وقال :

– وهنا تسجيل كامل لاعترافات سهير ... وبصوتها الذى تعرف طبعا طعم إثارته يا ... ... حضرة العاشق الهلفوت ... والآن ما رأيك ... انطق ؟ ...

و ....

....

لم يصمت الجعفرى هذه المرة طويلا ، كان يخشى أن يباغته وليد ، ويطلب سماع اعترافات سهير ، ويعرف عندئذ أن الشرائط مزيفة ... عليها فقط أحدث أغنية لعبد الحليم حافظ ... .

....

....

عاد الجعفرى يطارد وليد بسطور من ملحقات ملفه ... بعد أن ركن الشرائط جانبا ... وضعها بجوار اعترافات عصام المكذوبة ...

وقرأ :

– ترى لماذا يعمد هؤلاء الأعوان إلى مشاركتنا حياتنا اليومية ... وملاحقتنا فى كل مكان نذهب إليه ... كما لو كانوا كلاب صيد ؟ !

و ....

رفع عينيه عن الملف وسأل :

ــ ماذا تقصد بالضبط يا ...... سيد وليد ... بهذا الكلام الفارغ ؟! ...
ومن هم الذين تسميهم فى مقالتك بـ ... كلاب الصيد ... تكلم ...

سأله وليد :

ــ هل تحتاج إلى إجابة منى حقا يا ... جعفرى بيه ؟ ! ...

فلسعه الجعفرى بنظرة نارية ، وعاد يسأله :

ــ إن من يقف أمامى ... لايسألنى ... إنه فقط يرد على أسئلتى ...
أتفهم ... إنها فرصتك الأخيرة أن أردت النجاة مثلما فعل صاحبك العاقل
عصام ... لقد اعترف بكل شىء ... وسيكون الشاهد الملك عليكم ...

و ....

ارتعش الصول عبد الحق ، وكاد يرجو الجعفرى أن يأمره بالانصراف ،
أن يطرده ... أن يتركه يذهب لقضاء حاجة عاجلة أن ... .

ــ هل تقول لى ... كيف يمكن لإنسان مثلى ، أن يثق بك الآن ؟ !

و ....

قهقه الجعفرى : وقال باندهاش :

ــ كما وثق عصام بكلمتى ... وضمن النجاة لنفسه ! ...

و ....

حاول وليد أن ينسى ما قاله عبد الحق عن مقتل عصام ...... بذل
جهداً خرافيا لينسى الفجيعة لحظة ... وقال :

– كيف وثق بك عصام ؟ ... إنه كان قد فقد ثقته بالجميع منذ زمن ...

و ....

وتنفس عبد الحق حامداً الله لأن وليد لم يبح بشىء ...

وقال الجعفرى :

– لدى اقتراح معقول ، حدثنى عن مشروعكم للذهاب إلى الأرض المحتلة ... أو إلى تل أبيب ... كما أخبرتنى أمس ... كيف حدث ذلك... ومتى ... ومن هم الذين رتبوا لكم هذه اللعبة ؟ ! ...

....

قال وليد باقتضاب ، وهو حريص على أن يظل يقظا لأعيب الجعفرى :

– يعرف أعوانك ورؤساؤك أيضاً .. أننا كنا مجموعة من طلبة الجامعة ...كنا نحاول وقتها أن نفعل شيئا لعلاج جرح الهزيمة التى مزقتنا فى فى يونيو عام ١٩٦٧ .. ويعرفون كذلك أن بعضكم حاول .. وهذا ما لم أتنبه له للأسف الشديد ،حاول بعضكم احتواءنا ... بشكل ما ... بصورة ما... ودربونا على عمليات وهمية ضد العدو .. ثم .. هأنت ترى إلى أى موقع وصلنا ..

وصمت وليد محزونا .. مفجوعا .. وللحظة عابرة ، قال فى سره :

– إنهم يمرغون أحلامنا السامية الغالية فى وحل الخداع والتآمر ، ولمصلحتهم الشخصية فى سباق تسلق العرش ! ..

و ....

سأله الجعفرى بغضب ونفاد صبر :

– بالتحديد من هم الذين . . من هو الذى .. حاول احتواءك ؟

قال وليد باستنكار :

– بالتحديد .. من هم الذين من هو الذى حاول احتوائى .. ؟

شخص يفعل كل ما يحلو له ، وما لايخطر ببال بشر ، ومن الصعب – للأسف الشديد – تحديد أى شىء . . أو أى مسئول منكم . : عن أى شىء .. إنها فضيحة تحتاج إلى دماء كثيرة لتغسلها عن جبين مصر ...

و ... ...

... ...

ضرب الجعفرى زجاج مكتبه بعنف وقال :

– إننى أعيد السؤال ، من هو الشخص الذى حاول احتواءك ؟ ! وإلى أى تنظيم ضمك أنت وزملاءك ؟! أجبنى ... داخلى ... يسار .. يمين .. قل .. تكلم ؟! .. من هو .. ما هو لونه السياسى ؟ ! ..

فقال وليد الزنانى خليفة :

– لا .. لا إنه شخص من الباطن ! ..

فصرخ الجعفرى :

– أتظنى أهرج هنا ؟! .. من هو ؟ .. تكلم ! ..

قال وليد :

– قلت لك أنه شخص هايف جداً .. كان يعمل من الباطن معه

سأل الجعفرى متشبثاً بحبال الصبر :

– من الباطن ؟ .. ماذا تقصد بالضبط ؟ ! ....

قال وليد الزنانى خليفة :

ــ أقصد ما تعرفه يا جعفرى :: بيه ؟ . . . لقد خدعنا واحد مثلك تماما كان يعمل لحساب من يرأسه . . . ومن يرأسه يخضع لمن هو فوقه . . . وهكذا صعودا ... إلى ما لا نهاية، فنحن لسوء الحظ لا نلتقى إلا بالكومبارس الذين يتحركون تبعا لأوامر عليا . . تصلهم عبر خيوط كثيرة وأدوات لا حصر لها .. وأطماع غاية فى الشراهة ! ..

و ....

كان الجعفرى قد اتجه إليه ، وأخذ يركله فى بطنه . . فى جبينه . . فى صدره . . . بين فخذيه ... وكان يفعل ذلك بيديه ... بقدميه ... بطرف حذائه الأسود المفلطح اللامع ... وهو يصرخ :

ــ كلب ابن كلب .. من تظنون أنفسكم ؟ أولاد زانيات . . تدعون الحكمة وأنتم جيل من الحثالة وتجب إبادتكم نهائيا ! ..

و ....

....

أخيراً لعب بورقته الأخيرة ، فى تلك اللحظة ، قال بحزم :

ــ سأواجهك الآن بصاحبك « عصام » . . وستسمع منه بنفسك اعترافاته كاملة ! ..

و ....

رغم آلامه . . رغم جراحه النازفة دما ، ابتسم وليد . . مجرد ابتسامة ساخرة مقتولة على شفتيه : . وقال بصوت يثقله التعب واليأس :

ــ عصام ؟ ! . . إنه يطل علينا بروحه الشهيدة . : ويرانا الآن ومعه كل الشهداء . . ولا شك أن منظرنا أمامهم الآن شديد السخف والتناقض مع أصول الحق والعدل ! ..

و ....

نظر الجعفرى بحقد إلى الصول عبد الحق الذى انكمش ... ازداد انكماشا داخل ثيابه غير المهندمة ، وقال له الجعفرى من تحت ضرسه :

– إذن فقد أخبرته بموت عصام .. يا غبى .. ستری کیف یعاقب الجعفرى الخونة من أمثالك ! ..

ولاذ عبد الحق بالصمت ! ..

وأغمض وليد الزناتى خليفة عينيه حتى لا يرى وجه عبد الحق الذى شحب وارتعش أمام عينى الجعفرى الجارحتين ..

كان وليد لا يحب أن يشفق عليه أحد ، كان لا يحب أن يرى إنسانا فى موقف يستحق أن يشفق هو عليه ، كان يقول لصاحبته نادية :

– إننى أرى الإنسان ، من خلال سموك ونبلك ، فى أسمى صوره .. كقيمة غالية ، تشع ضياء مليئاً بالطهر ، بالحق ، بالعدل ، بالحب ... مثلما تفعل عيناك على الدوام يا صديقتى الخالدة .. نادية ..

وكانت تقول له ، وهما يسيران ، وسط زحام الشارع ، لا يباليان بنظرات المتلصصين والطامعين :

– إننا فى حاجة إلى معجزة حقيقية ! .. أتعرف يا وليد .. إننى فى دهشة من أمرى كيف تركتك تجتاحنى بهذه السرعة الصاروخية !

وكان يقول لها ، وهو يودعها بالقرب من دارها :

– أعدك بتنفيذ أمرك .. حتى لو طلبت منى أن أموت .. فقط لا تفكرى فى طلب واحد .. هو أن نفترق .. الآن على الأقل .. فما زلت فى حاجة إلى عطائك الفياض .. وأنت ما زلت فى حاجة إلى أن

تفكرى ... وأن تعيدى التفكير فى كل ما حدث لك . . . فى السنوات التى جعلتك وجعلتنى معك يتامى الحب والأحلام على الأقل !

يومها .. قالت ، فى لحظة مكاشفة لا تحبها النساء عادة :

– لقد انتهى وقت التردد . . ولم أعد أملك إلا الامتثال لأوامرك وهأنذا رهن أشارتك ، ..

يومها . . عانقها بجوار باب البيت ، عانقها بعينيه ، بأصابعه بأنفاسه .. ولمس شعرها ، ونظر طويلا فى عينيها العسليتين المتألقتين بالحب والفرح .. وقال :

– إننى أبحث عن اسم للون عينيك ، للون شعرك .. لكننى لا أعرف .. رغم أننى أشعر وكأننى أعرفك من عشرين سنة .. من ألف سنة ! . .

وضحكا يومها .. وتبادلا البوح بأسرار القلوب ، وقالت :

– اصعد معى . . . دعنا نسعد بهذه اللحظة النادرة ! ...

وأخذا يصعدان درجات السلم إلى عرشها ، درجة درجة ، بتخوف وحذر .. وقال لها .

– هذه مخاطرة يجب أن نستعد لها ! ..

كانت المرة الأولى له .. همس فى أذنها :

– آه لو تعرفين كم يعذبنى العطش إلى ينابيعك العذبة . . . خذينى إليك يا مهد العشق والمحبة ، يا واهبة الحياة ، وبللى ظمئى بنيلك المندفع أبدا للأمام دون أن يبالى بالسدود . . وهبينى كل شوقك للحياة يا عين حور ! ..

بغتة . . شرخت رأس وليد الزناتى خليفة ، ضربات شديدة العنف والقسوة .. فانهار فاقد الوعدو ..

وتوقع عبد الحق ، مصيرا أسود من ظلام هذه الليلة المشئومة ! . . .

● **ملحوظة :**

تمكن منصور — مرة أخرى من تهريب بعض الطعام إلى زنزانة وليد.. ويوسف ..؟ فى تلك الليلة ...

١٨ ـ لعبة المراوغة والخطر

أغلق الجعفرى ملف « وليد الزنانى خليفة » وملحقاته الكثيرة وترك الأوراق بجواره على الفراش ، تمدد على ظهره بحثا عن لحظة هدوء ليتمكن من تركيز أفكاره . إن الليلة ليلته بحق ، وعليه ألا يفقد ورقته الأخيرة إلى الأبد ، لكنه كان يعرف أن المهمة شاقة الآن ، لأنه بالتحديد عاجز لسوء حظه أن يلعب جيدا لعبة الولد والبنت .. وإذن فعليه أن يحتفظ ببراعته المعهودة فى لعبة المراوغة .

و ....

كانت « سهير » تعرف عنه هذا ،كما تعرفه زوجته وكما يعرفه الآخرون والأخريات دون شك ، وإذن . . كان عليه أن يأخذ حذره وأن يتعامل ـ على المكشوف ـ مع سهير ، ويصارحها بكل شىء عله يجعلها تثق به ، تشفق عليه أو .. تصبح شريكة له . . . تلعب معه هو ... ولم لا ؟ ! ..

إنه سيكون ذا شأن بالتأكيد ، وباستطاعته أن يبوح لها ببعض ما يجعلها تحلم بمستقبل مضمون معه هو .. لا مع غيره من « الهلافيت » الذين خدعت فيهم .. الغبية ! ..

إن ما وجده الجعفرى ، فى ملف وليد وملحقاته ، لا يصلح لإقناع سهير بخيانته لها ولبلده ، لسبب واحد ، هو أنها لا تفهم فى المسائل الفكرية العويصة هذه ! ..

و ..:. ..:.

لا مفر من المواجهة على المكشوف ! ::

ونهض من فراشه ، ارتدى ثيابه ، وتلقى – كالعادة – تليفونا من زوجته « فيفى » تخبره بأنها ستتأخر « قليلا » هذه الليلة . . : فهى مضطرة إلى البقاء « معهم » من أجل مستقبله هو . . . و . . . أفهمها بكل اللغات وبعشرات القبل عبر التليفون أنه يثق بها وبحكمتها وسهرها مع « الكبار الأعزاء » من أجل مستقبله هو ... وأنه يقدر لها موقفها وظروفها الحرجة بسببه .. و ..

اكتشف كالعادة ، أنها كانت قد تركت السماعة بجوار التليفون دون أن تهتم بالرد عليه فأغلق الخط ... و ... ... و ... ...

خرج الجعفرى مسرعا إلى عوامة سهير ، والظلام يشجعه على خوض المغامرة معها ... و ... قال لنفسه :

– إما أن تلين . . . وتبوح بكل شىء ، وإما أن أفرغ فى رأسها المسدس ! ...

وتحسس المسدس المزود بكاتم الصوت . : . إنه سيقتلها ويضع المسدس فى يدها ... ليؤكد لهم انتحارها ويبعد الشبهات عن نفسه !

و ....

اهتزت العوامة تحت قدميه ، ووجد الباب مفتوحا أمامه ، فدخل ، و ... حاصرته الأضواء الحمراء الخافتة من كل الجهات ... و ... وقف لحظة يتأمل اللوحات الفاضحة فى الصالون ، واقترب من صورة بالحجم الطبيعى لسهير فى بدلة الرقص . . . و . . . تحسس اللوحة برغبة جامحة مكبوتة ، ولكنه فزع . . . عندما فوجىء بأصابعها تعبث فى أذنيه . . . وذراعيها تستريحان على كتفيه ... و ... بطنها يلتصق بظهره ... و ...

استدار الجعفرى إليها وقبلها ... و ... سحبته من يديه إلى غرفتها ...
و ... قالت :

ـ لقد تأخرت كثيراً يا .... جعفرى ! ...

....

ضحكا كثيراً ... و ... شربا ... ودخنا السجائر بشراهة ، وتبادلا النظرات ثم ... باغتها بالسؤال :

ـ هيه ... ما رأيك فى دردشة صريحة ... يا سهير ؟ ! ...

فردت له المباغتة :

ـ ندخل فى الموضوع ... ماذا تريد منى يا جعفرى ! ...

....

ابتلع كأسين ، وقال :

ـ لمصلحة من ... بالتحديد ... تلعبين معى هذه اللعبة الخطرة ؟ !

و ....

ضحكت سهير ، وتأوهت ، وشربت كأسها دفعة واحدة ... فصب لها كأسا أخرى ... وقال :

ـ افهميني يا سوسو ... ان هذه الأمور خطيرة بالنسبة لإنسانة مثلك .. صدقيني ... إنك لا تعرفين أنها لعبة قذرة قاتلة ... فكم من النساء والرجال ماتوا ... قتلوا ... دون أن يدرى بهم أحد ... !

وصمت لحظة محسوبة بعناية شديدة ، ليراقب رد فعل تهديده ووعيده على وجهها ، ولكنه دهش ... فالفجور والاستهتار كانا طاغيين فى عينيها ... فعاد يقول :

ـ أنت لا تحتملين مثل هذا المصير المفجع ... صدقيني ! ...

فاستدارت إليه ، وسألته بدهشة مفتعلة :

— ماذا جرى لك هذه الأيام ... لقد كنت عاقلا ... لطيفا . . . ولا تتحدث معى عن أى شىء من هذه الخرافات . . . إنك تبدو كمن ركبته العفاريت ! ...

فقال :

— صحيح ... ركبتنى العفاريت من كل الجهات دون أن أعرفهم : : :

فضحكت وقالت ساخرة :

— ليتك حضرت معنا « جلسة » يوم الجمعة الماضية . . . لقد كان هنا « فلان » و « فلان » و « فلان » ... ومعهم صديقى قارىء الكف الشهير . . . أنت تعرفهم طبعاً ... و . . . لكنك لا تعرف أن أدمغتهم مثل حذائى ... لقد غطاهم جميعاً البخور والدخان وسألوا المنجم عن أشياء أضحكتنى ... تصور ... لقد سألوه عن ... الحرب...عن قوات العدو... عن مزاج « فلان » الكبير ... وعن أيام السعد والنحس فى حياته . . . و ... لا تحزن يا جعفرى . . . تستطيع أن تحضر جلسة الجمعة القادمة ... أم تراك ستخاف منهم كعادتك؟ ... لا تشغل بالك ... سأدبر لك الأمر ... و ....

ضحكت « سهير » ... وبلعت كأسها بشراهة وسحبت الجعفرى إلى جوارها ، وقالت :

— أريدك الآن أن تكف عن الكلام لكى ... ...

فنهض واقفاً خائفاً ، وقد أدار الشراب رأسه قليلا ، وخشى الهزيمة المعتادة فى معاركه النسائية ، فقال بعصبية مضاعفة :

— اسمعى يا « سهير » هذه آخر فرصة لك معى ، وافهمينى جيداً ...

فأخرجت من حلقها صوتا هازئا .. ووضعت يديها فى وسطها وهزت « مؤخرتها » ساخرة ، وقالت :

— أفندم يا عمر ! ...

فقبض على ذراعها بعنف أرعبها ... وقال :

— كل ما تريدينه سأحققه لك ... ولكى تطمئنى ... فأنا أضعهم جميعاً فى جيبى ... لدى أدلة مسجلة بأصواتهم ، تجعل الجهات العليا تخفيهم وراء الشمس إلى الأبد ! ...

وصمت الجعفرى برهة ، أشعل لنفسه سيجارة . . أخذ يدخنها بتوتر ملحوظ ... ثم أضاف :

— ثقى بى أنا ... إننى أستطيع أن أحقق لك كل أحلامك ! ...

إننى أريدك بجوارى ... وستجدين مكانك هناك ... عند القمة ... فسيحا ورائعاً . . . ويستحق أن تتعاونى معى ! ..

و ... صمت ... فقد جمدته نظرات سهير ، يشعر بالكلام يبوخ فى فمه ... يتعثر على لسانه ، واستمر صامتا . . . جلس ، ونشع العرق من خلايا جسده السمين ! ...

وقالت أخيراً :

— أتعرف يا جعفرى ما هى أحلامى ؟ ! ... إننى أعرف أنك لا تعرف شيئاً ... إننى أعرف أيضاً أنك لا تفكر فى شيء غير نفسك ... حتى طاعتك العمياء لرؤسائك تقدمها من أجل نفسك أنت أولا ... وكذلك زوجتك !

وصمتت متعمدة ... فنظر إليها ... لكن بغيظ فشل فى إخفائه و ... أضافت سهير بعد لحظة :

— أنا أعرف كل شيء ... وصدقنى ... لا أريد أى شيء . . . إننى أملك أن أكون ما أشاء ... أن أريد أى شيء ... لقد دمرت أنت وعصابتك

حياتى وحياة أخى منصور وزوجته وابنته البريئة ، وحفرت بذلك طريقى بحقدك ... وهأنذا أقوى منك فعلا ... وبالمناسبة ... لا تفكر فى أى عمل مجنون ... فأصدقائى ... أقصد المسئولين عنك ... يعرفون أصحاب المصلحة فى موتى ... وأنت واحد منهم ... أنفهم يا جعفرى ؟ ! ...
و ... ...

أحس بالعجز عن إكمال كأسه ، وظل ينظر إليها ببلاهة ، بحقد ، برغبة فى قتلها ... وهب واقفاً ملدوغا ... عندما قالت له :

– إنك لست رجلا ! ....

و ... لسوء حظها بدلا من أن تم الإجهاز عليه ، كانت قد أثارته وجعلته يتحول إلى نمر جريح لا يبالى بالمصير ، فقبض على عنقها ، وقال من بين أسنانه :

– ستندمين على كل كلمة قلتها ... وستعرفين الآن أن الجعفرى لا يخاف كائنا من كان ... وأننى قادر على أن أفعل ما أريده ولابد أن تتكلمى ... وستتكلمين ! ...

وتحشرجت أنفاسها ، وشحب لونها ... فتركها منكفئة على وجهها وعاد يضرب الحديد وهو ساخن :

– من هو ؟ ! ...

... ...

– من هو ؟ ! ...

... ...

– قلت ... من هو يا بنت الـ .... ؟ ! ...

... ...

ـ تكلمى ! ...

... ...

ـ أيهم بالتحديد ... ؟ ! ...

... ...

ـ من ... بالاسم ... من هو ؟ ! ... وماذا يريد أن يفعل بى ... تكلمى ! ...

... ...

ـ لو تعلمين أن ما بقى من عمرك لا يزيد على دقيقة واحدة ... لتكلمت ! ...

... ...

و ... ...

سمعت « سهير » ... تكة أمان المسدس وهو ينفتح ، وأحست بمقدمته خلف أذنها ، وسمعت الجعفرى يقول :

ـ الآن ... لا مفر أمامك ... ولن تمكرى بى مثل المرة الماضية ... ليس أمامك سوى الاعتراف ... أو الموت ... ولن يفعل لك أصدقاؤك من الكلاب شيئاً ! ...

... ...

ـ لا تضيعى وقتى ... ولا تفرطى فى عمرك ... كونى عاقلة ...

وقالت أخيراً ، وهى تستدير إليه :

ـ لو قلت لك الحقيقة ... هل تصدقنى ؟ ! ...

ـ تكلمى ! ...

– إن « س ... » تضايق من علاقتى بوليد ... وحدثنى فى الأمر ... فقلت له إننى عرفته بناء على تعليمات من أحدهم ... ثم ... إننى أعطف عليه وعلى صديقيه ... لكنه لم يصدقنى ...

– وتريدينى أن أصدقك ياكلبة ! ... و .. .. ..

وقفت سهير وسددت إليه نظرات فيها محاولة اعتراض . . . فقال :

– وبعد ... أكملى ! ...

– لقد أوصيت أحدهم بإيجاد عمل لعصام . . . عله يجد ثمن طعامه بعد أن رفض النقود التى عرضتها عليه . . . أما يوسف فقد ترك لى لوحة من لوحاته لا أفهمها ثمنا لما أخذه من طعام ومن نقود ! ...

وصمتت سهير مرهقة ، فسألها الجعفرى بحقد شديد :

– و ... الكلب وليد ... ؟ !

فباحت بسرها :

– لقد تعلقت به دون تعقل ومع ذلك فلم يعطنى الفرصة للاستمتاع به . . . كان متعلقا بحب امرأة أسطورية . . . لا أعرف اسمها بالتحديد نادية ... أمينة ... إنه لم يبح لى باسمها الحقيقى . . . وحرمانى من مثل هذه الرجولة العملاقة النظيفة از داد تعلقى بوليد .. حتى جاء « س ... » يخبرنى ذات ليلة أنه خلصنى من إزعاج هؤلاء الأولاد ! ... و ... ...

صمتت سهير ، وجلست تشرب كأسها فى بطء وحزن حقيقى ، و ... أمرها الجعفرى :

– أكملى أكاذيبك ! ...

فقالت دون أن تهتم بالنظر إليه :

ــ هذا هو كل شيء ! :..

ــ أحذرك للمرة الأخيرة ! ...

فقالت سهير :

ــ لن أخسر شيئاً ... لكنك ستخسر كل شيء .:. أتفهم ؟ ! .:.

فقال الجعفرى بتحد :

ــ سنرى أينا سيخسر يا .... ! و ... ...:

أعد مسدسه للإطلاق ، فقالت :

ــ لا تندفع . . . وصدقنى . . . إن ما قلته لك هو كل ما أعرفه . . :

سألها :

ــ والفيلم الملون الذى أعددتموه للوحة يوسف « جواب حب » نعرضه فى الخارج ... ونقودك ... والمنشورات التى طبعها وليد هنا . . . ووزعها عصام بسيارتك فى كل مكان ! ...

قالت سهير :

ــ كانت لعبة قذرة ... كما تسمونها . . . لكننى لسوء الحظ لم أعرف بحقيقتها إلا بعد أن أمروك بإعداد الاعترافات لمحاكمتهم وإعدامهم . . . و . . . .

صمتت مقهورة ...

وظل الجعفرى يتجول أمامها كفأر وقع فى المصيدة ، وحاول أن يدير المسألة فى رأسه من جديد عله يصدق ما قالته سهير . . . و . . . لكنه فوجىء بها ... تضع مسدسا على قفاه ، وتقول :

— به كاتم صوت ... ولن يسألني أحد لماذا قتلت كلبا مثلك ! ...

و ... ...

هزته المباغتة ، حاول الاستدارة إليها لكنها نهرته بكل ما فى أعماقها من مهانة :

— لا تتحرك . . . واسمعني جيداً . . . إنك أغبى من رأيت ، وأنجس من عاشرت ، ومع ذلك فأكرر لك لآخر مرة ، إن ما قلته هو الحقيقة كلها ... وإنك تبطش بأولاد أبرياء . . . أتفهم . . . أبرياء . . . خدعهم كلب مثلك لأسباب شخصية ... و ... ...

هز رأسه معلنا تصديقه ، فصاحت به :

— والآن ... تغادرني فوراً ، ولا تعد إلى هنا بعد ذلك أبداً . . . هذا أمر ... وإلا جعلتهم يشطبونك من الحياة شطبا ! ...

و ... ...

هرول الجعفرى خارجا من العوامة ، وانحط فى عربته ، وقادها بجنون فى شارع النيل الخالى ... الساكن ... واتجه إلى القلعة ...

و ... ...

وقبل أن يدخل إلى مكتبه ، أمر باحضار « وليد » و« يوسف » فوراً .. كان مصمما الآن على وضع حد للامر كله بيديه ليثأر من الجميع ...

● **ملحوظة :**

جلس منصور مع بعض زملائه القدامى وتبادلوا المواساة والثرثرة ... وسأله أحدهم :

كيف انعدل ذيل الكلب يا منصور ؟ ...

فهز رأسه ... وقال : ألاترون مايفعله «الأولاد» برغم ما يجرى لهم ؟! ...

١٩ ــ الاغتيال الثــانى

كان يوسف ، منبطحا على الأرض ، يتحدث بصوت مسحوق ::: لكنه واضح النبرات فى صمت الزنزانة ...كان ينشد أشعاراً « لشلى » من « بروميثوس طليقا » :

« نحن هداة البشرية ::: نحن حماة البشرية :..

« من غابر الأزمان حرسنا الإنسان من كيد (الإنس والجان) ..:

« أنفاسنا تملأ جو الفكر ، ولكنها لاتلوثه :::

« فى جو الفكر نسكن ::: وفيه نسبح :::

« سواء علينا أن يكون جو الفكر قاتما ، مكفهراً :..

« عابسا عبوس النهار أطفأته العواصف ، فلم يبق فيه إلا وميض مخنوق ، أو أن يكون جو الفكر صافيا صفاء السماء الضحوك ، خلت من الغيوم ...

....

« فى جو الفكر نسكن ، وفيه نسبح ...

« نسبح كما تسبح الطيور فى الهواء ...

« كما يسبح فكر الإنسان فى عالم الأحياء :::

....

« نحن ننتقل فى الوجود اللا محدود بغير ضابط كالسحاب ، ومنه نأتيك بالنبوة التى تبدأ بك وتنتهى فيك ... يا يسوع ! ... »

....

ورأى يوسف ، فيما يشبه الحلم ، وسط أطياف ملائكية ... رأى صاحبه عصام ، يسترد عافيته : يسترد حبيبته « زينة » ... فقال له :

ــ عفوك صديقى ... لم أكن أريد أن أرتكب هذه الخطيئة ! ...

و ...... :..... ......

كأنما كان عصام يحدث يوسف ، امتلأت الزنزانة بصوت له وقع اليقين :

ــ جئت إليك سريعا ، سريعا على متن الهواء مع صوت النفير ، نفير الملاحم ، واخترقت إليك الظلمات ... وفى طريقى إليك انطلقت حولى صرخات كثيرة مختلطة ، فمن فلسفات تحتضر ، إلى طغاة مزق الأحرار أغلالهم ... إلى طاهرات لوث الفجار عفافهن ، تلك الصرخات جلجلت فى الآفاق فملأتها بنداءات شتى ! ...

ــ هتف الهاتفون للحرية ، ونادوا بالأمل ...

وهددوا بالموت ودعوا للنصر ...

ثم تلاشت صرخاتهم جميعا فى رحاب السماء ...

ولم يبق فيها غير صوت واحد ، لايزال يدوى فى أطياف ...

الجو ، وفى أركان الأرض ، وفى كل حدب وصوب ...

ــ ذلك هو صوت الحب ...

ــ أجل الحب أمل الإنسانية ...

– الحب ضوء الحياة التي تبدأ بك وتنتهي فيك « يا يسوع » !

....

....

ورأى يوسف ، كما يرى النائم ، صورة خطيبته « هدى » التي كانت تهواه قبل أن تمزقها الهجرة والهجر ، وكأنها كانت تحدثه :

– فوق البحر وقف قوس قزح ثابتا لا يريم ...

والبحر من تحته يميد ... أما العاصفة فقد ركنت إلى الفرار ، بعد أن هزمت كل ماهبت عليه ...

– شقت العاصفة طريقها في غطرسة ، كأنها « الموت » ... شقت طريقها بين حشد من الغيوم ... الغيوم القاتمة السريعة السوداء ، الغيوم التي مزقتها الصواعق فأسرت طائفة كبيرة منها ، وسمعت الرعد يقهقه قهقهة خشنة ، ورأيت الأساطيل العظيمة تتناثر أمام الرياح كالهشيم ، أما البحر – ياحبيبي – فقد هاجت مياهه البيضاء ... صارت جحيما يضمر الموت لراكبيه ... وأسرعت إليك تطاردني أنات غريق رأيته – مثلك – يدفع بلوح إلى أحد أصحابه لعله يتشبث به فينجو ... ثم ... غاص في البحر ... وفاضت روحه !

....

تحولت كلمات يوسف إلى أنين متصل ، أغمض عينيه تماماً ... لم ير الصول عبد الحق يدخل الزنزانة ... ولم يستطع الصول عبد الحق الاستمرار في صمته وسكونه ... خشي بقلب الأب المجهد بداخله ، أن يكون يوسف قد أصيب بلوثة من هول ما عاني من عذاب في الأيام الأخيرة ... اقترب منه ، ربت على شعره ، وجده مبتلا بالعرق ، مسح على وجهه .. وجده بارداً ... و ... سمعه يقول في لهاث :

ـ جلست بجانب فراش حكيم من الحكماء ... وكان المصباح يلقى نوره الأحمر ... حول الكتاب الذى كان الحكيم يستوعبه وعندئذ ... عندئذ ... رأيت حلما ... حلما جناحه من لهب ، وحملنى الحلم إلى هذا المكان فى سرعة خاطفة .». مثل اللهب ... اللهب الـ ....

وسكن يوسف ... صمت ... طال سكوته ... طال صمته ...

و ....

فزع الصول عبدالحق ، كان يوسف الآن جثة هامدة على بلاط الزنزانة ، كان ممدد الذراعين ، مفتوح الساقين ، كالمصلوب تماماً ... ولكن بغير صليب ، فأغمض له عينيه برفق ، وبكاه بحزن طاغ ... لكن بغير دموع ، وقال :

ـ إننا يا رب لم نعد فى حاجة إلى الشفقة ... إننا فى حاجة إلى الرحمة فأغثنا يا من ترى وتعرف كل ما حل بنا من شقاء ! ...

ونطق عبد الحق بالشهادتين ، وقال :

ـ اللهم اقبل عبدك يوسف حنا يوسف فى الصديقين والشهداء !

وعندئذ انهمرت دموعه التى كانت قد جفت بداخله منذ سنوات و ... خرج فى صمت ، وما إن أغلق الزنزانة ، وأصبح فى الطرقة المظلمة حتى انتابه الرعب ، وتساءل عما سيقوله للجعفرى ، لكنه أسرع يصحب الحراس و ... وليد ... إلى المواجهة التى كان يشعر ، ويدرك يقينا ، أنها ستكون الأخيرة ! ....

● **ملحوظة :**

كان السجين منصور قابعاً الآن فى ساحة المعتقل ::: فى نفس البقعة التى شهدت مصرع عصام ::: وكان يبكى ::: و ::: يكلم نفسه ثم صاح :

– يا من أنت فى السماء ::: يا قوى يا جبار ::: السجين رقم ٥ – ٦ – ٦٧ – يناديك : النجدة ::: النجدة ! :::

وظلت عيناه معلقتين بالسماء ::: فلم ير الحارس الذى كان يقترب منه بتحفز واضح ! ...

٢٠ ـ اللحظة الحاسـمة

حبيبتى نادية ...

هل تذكرين قراءتى لك فى كتاب « شيلى » ... إننى أذكر ذلك الآن فى هذه اللحظة القاتلة ، وأذكر إصغاءك لى بعينيك ... قبل أذنيك ... بعقلك قبل قلبك ، ويومها قلت أنت :

– بينما كنت أعبر إليك الفضاء مسرعة ، كسحابة تطير حثيثا فى برارى الفضاء الرحيب ... مر بى طيف الحب مرورا خاطفا ...

وقلت لك :

– طيف الحب الذى توجت رأسه الكواكب ، وزركش البرق جناحيه ...

و ....

قالت نادية :

– وكانت قطرات السعادة ، تتناثر على الأرض ...

و ....

قال وليد الزناتى خليفة :

– ولكن ... رويدا ... رويدا ... تلاشى الطيف ، وترك وراءه ظلمة وفراغا ... وخرابا فى الأرض ينعق ...

و ....

فزعت نادية ، وضعت يديها على شعرها ... على جبهتها ... اتسعت عيناها انفعالا وقلقا وقالت :

– وليد ... ماذا تقول يا نور عينى وحبة قلبى ؟! ...

– فى الظلام رأيت صفوة الحكماء قد ضاع رشدهم ، ورأيت الأحرار قد طارت رءوسهم ، ورأيت الشباب قد هلك فى صمت مع الهالكين ...

و ....

وظلت نادية صامتة فى وجدان وليد الزناتى خليفة ، وهو وحيد بين حراسه ، فى ساحة مكتب الجعفرى ، الذى لم يكن قد فرغ بعد من حديثه التليفونى الهامس ... وكان بادى الاهتمام بذلك ... بينما وقف الصول عبد الحق يرقب وجه وليد تارة ، ووجه الجعفرى تارة أخرى ... و ...

....

فى يوم ... قال وليد ... لنادية :

– سأروى لك مخاوفى ! .

وحكى لها أسراره منذ وعى الحياة ، ورأى والده الزناتى خليفة ، مهانا فى الدار والتفتيش ..

وفى يوم آخر ... مر عليه ألف عام ... منذ جاء إلى هذه الزنزانة ... قال لها :

— يحكى تعساء الزمن البعيد ، أنه فى مثل هذه الظروف ، وكان الوقت بعد العشاء ، أقبل الليل ، واستسلمت لساعة من راحة ... رقدت فى فراشى ، وقد كنت مرهقا ، أحلم بالارتماء فى أحضانك لأبوح لك بأحزانى وأحلامى ، و ... تداعى فؤادى للهجوع بعد طول سهر ، و ... غفوت ، باحثا عن عطائك المنتظر ، فإذا الأسلحة وقد وجهت لصدرى ... لعقلى ... وكأنما كنت مطلوبا للعقـــاب ... دون جريمة ... و ... صحت أنت محذرة ، فانبعثت حيا ، لكننى وجدت أن القتال يدا بيد مع الأعوان لا يكفى لأنه لا قوة لفرد وحيد فى الليل ، ولا يستطيع المرء وحده قتالا ... ولن يأتى النجاح بغيرك .. تحميننى ... تشدين من أزرى ... انظرى يا حبيبتى ... لقد حدث الشىء البغيض حينما كنت بدونك يا عين حور ...

و ....

أنهى الجعفرى حديثه التليفونى وتجاهل وليد ... قاصدا ... ونظر إلى ملفه المفتوح أمامه فوق المكتب ، وقلب فيه قليلا ، ثم نحاه جانبا ... وفتح ملف يوسف حنا يوسف ، وعلق باشمئزاز :

— خيانة وانحلال ... ويتاجرون بالفضيلة ! ...

وضحك ساخرا ، و ...

من ملحقات ملف يوسف ، أخذ عدة رسومات باللون الأسود ... تصفحها واحدا واحدا ، وحاول أن يفهم منها شيئا يصلح للإدانة ، وإحكام الحصار حول يوسف ، لكنه لم يجد غير تهمة « التشاؤم » و ... « الغموض » فى متناول عقله . فى ملحق آخر رأى بضع جوابات كتبها يوسف إلى خطيبته « هدى » ، تصفحها بسرعة و ... توقف أمام هذه الكلمات :

– هدى العقل والقلب ... ماذا جرى لك فى المهجر، لقد أصبحت إنسانة أخرى ... ازداد حزنك ... تضاعف يأسك ... لماذا ؟ ... إننى فى حاجة إليك ... فأنت أم وصديقة ... وحبيبة ... أنت نسمة الحياة لى ولكل من حولك ... إن رأينا أشعتك وبهاءك أشرقت لنا الدنيا...

هدى ... أتذكرين تلك الأيام على شط بورسعيد ... كنت أقول سأبنى لك عالما جديدا يليق بطهارتك، فقلت : « نبنيه معا ... » :

و ... ضحك الجعفرى بسخرية ... و... قرأ خطابا آخر من يوسف :

– هدى العقل والقلب، أود أن أبوح لك بسر خطير ... لاتنزعجى وإن كان السر مزعجا ... و « سال لعاب الجعفرى، إنه سيجد بالتأكيد دليلا واعترافا بخط يوسف هنا » ... إننى يا « هدى » أرتكب جريمة لن تغفرها لى ... إلا إذا استعملت عقلك المتزن الذى أقدسه ... اسمعى... إننى بالأمس شعرت برغبة محرمة فى « زينة » ... صديقة صاحبى عصام ... و ... لن تصدقى ... لكن ... لا أعرف ... هذا ماحدث ... و ... بقية الرسالة مشطوبة بطريقة لا تخفى الكلمات التى تقول :

– اعذرينى ... اغفرى لى ... هذه الغلطة غير المقصودة ... وإلا فلن أرسل لك هذه الرسالة ... و ... أنها كانت ممزقة ... وكنت أنا ممزقا ... كنت أرى أشخاصا مريبين يتتبعون خطواتى ... كان تشويه الحياة مستمرا ... كان هناك من يهمهم تحطيم ثقتى و ...

سأل الجعفرى دون أن يرفع رأسه عن الأوراق :

– أين المتهم يوسف حنا يوسف ؟ ...

وفزع الصول عبد الحق ، وقال :

— وجدته ميتا يا فندم ؟! ...

و ... فزع وليد ... صرخ ... كان صراخه أنينا ممزقا ...

وانتفض الجعفرى واقفا ، شديد الغضب ، وأدار عينيه فى وجه الصول عبد الحق ، يفتش عن حقيقة ما حدث ... وسأله :

— مات ؟! ... كيف ؟! ...

فقال الصول عبد الحق ، مرعوب الصوت :

— لم تصله أية أدوات ممنوعة يا فندم ... إنه مات بالسكتة القلبية ...

و ... نكس وليد رأسه ... وتمنى وقوع معجزة لينفرد بالجعفرى ...

جلس الجعفرى مفكراً ، ثم أمر عبد الحق :

— حقق الأمر جيدا ... وأثبت الحقائق بدقة ، ولا تخف أخطاءك الجسيمة فى الإهمال أنت والحرس ... و ... حدد المكان الذى سقط منه المتهم يوسف حنا يوسف ، عندما غافلكم ، وقفز من النافذة وهو فى طريقه إلى « البوفيه » لاحتساء الشاى حسب طلبه ! ...

و ... أحس وليد بحقد لا يحتمله بشر فكز بأسنانه على شفته وأدماها ...

... صمت الجعفرى لحظة ، أخذ خلالها يراقب وليد ، مستمتعاً برد الفعل على أعصابه ... ثم أضاف :

— مفهوم يا عبد الحق ؟ ...

— مفهوم يا فندم ! ...

....

عندئذ أشعل الجعفرى سيجارة ... وقال :

– الآن ... أعد الأوراق يا عبد الحق ... واجلس لتسجل بنفسك أقوال وليد ...

وباغت وليد بنظرة متسائلة ، كأنما يريد أن يعرف رأيه فى كلمة « أقوال » ... بدلا من « اعترافات » ... و ... أضاف بمودة مفتعلة :

– لقد تأكدت أن المسألة كلها ملفقة ، وأنه لا داعى للحصول على أية اعترافات ... وكل ما يهمنى الآن هو إثبات « أقوال وليد » لأنهى القضية كلها وأحيله للمحكمة التى ستطلب الإفراج عنه دون شك ! ...

وصمت ثم أزاح ملف يوسف وملحقاته جانباً ، وفتح ملف وليد ... وقال بلا مبالاة :

– ساعد نفسك يا وليد ... واعطنى الفرصة لأثبت براءتك التى أنا واثق منها ... ولن أقول لك كيف تأكدت من ذلك ... إلا إذا تعاونت معنا وأخبرتنى بكل شىء ... هه ... ما رأيك ؟! ...

و ....

ساد الصمت ، وفشل فى استقراء ما يجول فى رأس « وليد » الصامت الساكن الشامخ بوجهه الشاحب الملىء بالكدمات ... المحدق بعينيه فى وجه الجعفرى ، دون خوف ... و ...

فى نفس الوقت كان عبد الحق يبذل جهداً مضاعفاً ليظل متماسكاً ... شرساً ... كما يريده رئيسه ، ولكن مخاوفه كانت أقوى من أى احتمال ... إنه يعرف الجعفرى جيداً ... عمل معه عشرين سنة ، وعندما يلعب بورقته

الأخيرة ، يكون مثل المقامر الذى يلعب بآخر ما يملك فى مغامرة انتحارية ...
و .. كان عبد الحق يزداد تعلقاً بوليد ... فى البداية رأى فيه شبابه الذى كان يجب أن يحافظ عليه ليكون رجلا مثله ، ولكن الأمر انتهى به إلى حلم متواضع هو ... أن يتمكن من أن يفعل شيئا يريح ضميره من كل النذالات التى مارسها فى صعوده إلى هذا المكان من رتبة إلى أخرى على جثث عشرات من الضحايا ، وكان على يقين من أنه يستطيع مواجهة ربه يوم الحساب – وهو فى أمان – إذا حمل معه حسنة واحدة يفعلها فى ... وليد ... أن يحميه من الجعفرى ، لكن ... هل يفلح فى ذلك ؟ ! ...

كان الجعفرى يقف أمام وليد بكل شراسة الآن ، فأخذ عبد الحق يرقب المواجهة الساخنة برعب .. ثم بشغف بعد ذلك عندما سمع وليد ينطلق دون وجل :

– اسمع يا جعفرى .. إن لعبتك مكشوفة .. قتلت عصام .. وأسكت قلب يوسف من هول ما عاناه .. ولكنك لن تفلح معى .. تذكر هذا جيداً .. واعلم مقدماً أننى لا أهاب الموت ولا أخشاه .. فشرف الشهادة لا يطاوله شرف ... لكنى لا أتعجل الرحيل ... والآن جرب .. جرب ولو مرة واحدة فى حياتك أن تتكلم كرجل .. ماذا تريد منى ؟! ..

وصمت وليد ... بينما لم يكف قلب عبد الحق عن النبض السريع وقد غمره شعور ، هو مزيج غريب من الفرح بوليد ... الذى قال كل ما عاش هو – عبد الحق – طول حياته هنا يحلم بقوله للجعفرى والذين سبقوه ، وفى نفس الوقت حاصره الخوف على « وليد » من مصير قرره الجعفرى ، إن لم يكن من قبل ، فقد قرره الآن ... فى هذه اللحظة بالذات ، فها هو يستدير ليجلس خلف مكتبه ، كأنه يحتمى به من وليد ... وقد عهده

عبد الحق أكثر رعونة وشراسة عندما يحتمى بمكتبه ... كأنما هو لحظتها يقف فى حماية أعلى السلطات ...

فزع عبد الحق عندما تكلم الجعفرى :

– وليد ... يهمنى أن أخبرك – وأنا آسف – أن ما بقى لك من عمر على ظهر الأرض ... أصبح من الآن فى يدك أنت ... وعليك أن تجعله قصيراً أو طويلا إلى ما شاء الله ... أتفهم ما أقول ؟! ...

و ... طال انتظار الجعفرى لرد « وليد » الذى ظل صامتاً ، دون أن يبالى بآلامه التى يجددها الحرس بضرباتهم فى كل جزء من جسمه الجريح ، فقد كان يجب أن يظل شجاعاً لأجل خاطر الأشياء الرائعة بداخله ... لأجل عيون نادية ... و ... خطر له أن يقول لصاحبه « عصام » !

– اعرف الآن يا عصام ... لماذا انحرف أستاذك المبجل ، وتركك ممزقاً تعانى مما حشا به رأسك من أفكار عظيمة . لعلك الآن – وأنت روح هائمة فى الأفق – تدرك لماذا خاف والدك من آرائك ولماذا اهتم بفدادينه ... ولعلك – يا عصام – تجد تبريراً إنسانياً لما فعلته « زينة » بنفسها وبك ... فهى ضحية مسحوقة ... و ...

و ....

ركل الحراس وليد حتى أرهقوه ، فخطر له – وهو يئن وينزف دمه – أن يقول لصاحبه يوسف :

– لعلك الآن – أيها الفنان الرقيق ... الهش العود ... العظيم ... الطموح ... المجنون فى رغباتك – لعلك واثق الآن من حب « هدى » لك ... ومن شوقها إليك ...

و ....

صفعه الجعفرى بظهر يده على فمه وأنفه ، فنزفا دماً غزيراً ... وسأله :

– من هم الذين خططوا لك ... ولماذا؟ ...

و ....

تمنى لو قال لـ « نادية » :

– لعلنا الآن ... جميعاً ... نحمل الشقاء كله بدلا من الأهل والأحباب في البلد ... ولعلهم هناك يذكروننا بالخير ... ويترقبون عودتنا إليهم حيث سيأخذوننا بالأحضان ويغرقوننا بالقبلات ... ويملأون بطوننا بالطعام والشاى ... و ... يرقصون معنا حتى الصباح ... و ... يزدادون حباً وتآزرا ويتحدون كالأهل ... كالأحباب ... و ... سنغضب منهم إذا تركوا لنا مرة أخرى مشاكلهم لنحلها لهم ... سنقول لهم بحب كبير – يا حبيبتى – هيا نحل مشاكلنا معاً ... فقد آن لكل منا أن يبلغ سن الرشد ... و ... ...

....

قال الجعفرى ... والغضب يزلزله :

– لآخر مرة أطلب منك بالأمر ، أن تجيب عن السؤال ... من هم الذين خططوا لك جريمتك ضد البلد ... ولماذا ؟ ...

... تكلم يا بن الـ ... ... !

وطال انتظار الجعفرى ، وطال صمت وليد ... وصفعه حارس بعنف على قفاه فأغمض عينيه ورأى « بلطية » تربى ابنها « نور » ... وابن أخته « خالد » ... رآهما يكبران ... يصيران رجلين ... يجوبان البحار ... والسماء ... بحثاً عن الهناء والأمل للأهل والأحباب دون ملل ...

و ....

... اقترب منه الجعفرى ، قبض على ذراعيه ، وجذبه بعنف وهزه هزاً رهيباً ... وسأله :

— لمصلحة من فعلتم هذا ؟ ... أمريكا ... روسيا ... إسرائيل ... هه ... تكلم ... لابد أن تتكلم ؟ ! ...

و ....

و ... رأى بخياله ، « مخيمر » قريب نسيبه الشيخ تهامى ، يعلن لأهل البلدة جميعاً ، أنه ضرب الأسطى عطوه الكهربائى ، لوشايته الخسيسة بهم... وربطه بحبل وساقه إلى سوق الحمير ...

و ....

....

ويروى له أهل البلدة أن البلدة احترقت ذات يوم بعيد ... و ... سيكتشف — لأول مرة — أن بلدتهم أعيد بناؤها من جديد ... و ... أنها — الآن — نظيفة وبها ملاعب للأطفال ومدارس خاصة بمحو الأمية... ويسأل عن الحكاية ، فيروى له الكبار والصغار أن البلدة كانت ذات يوم ... وكانت ... وكانت ... وأنهم عندما كانوا هناك «وراء الشمس»... حدث ... وحدث ... وحدث ...

وازداد تعلق وليد بالحياة ... فازداد احتماله ... و ...

وانهال الجعفرى عليه ضربا ... لكنه لم يتكلم ... فازداد غضب الجعفرى وامتدت يده إلى مسدسه ... و... عندئذ حدث ما لم يتوقعه أحد...

حتى الصول عبد الحق نفسه ، فوجىء بأنه لا يعرف كيف يتحرك ... يجرى ... يرتمى على ذراع الجعفرى و ... وجد يديه تنتزعان المسدس من يد الجعفرى ... و ... وجد نفسه عاجزا عن إطلاقه ... ربما لأنه لم يحسب حساب هذه اللحظة المباغتة ... ربما لأنه رأى أن انتزاع المسدس يكفى لحماية وليد ... ربما لأن عينيه – بالصدفة – صدمتا بعينى الجعفرى فعاد إلى وعيه وأدرك بشاعة غلطته وأيقن أنه ميت لا محالة فارتخت يده وسقط المسدس ... واستسلم لضربات الحراس – الذين كم أمرهم ... وكم انصاعوا لأوامره ... و ...

رآه وليد وهو يضرب ... رأى دماءه تغطى تجاعيد وجهه ... رأى الحراس العتاة يدفعونه بأقدامهم إلى ... الزنزانة ... كما أمر الجعفرى ، الذى صار الآن كالكلب المسعور ... و ... استدار إليه هو ... وظل يضربه حتى انغرست أسنانه فى شفته الدامية ... و ... زعــق وليد من الهول :

– يا زناتى يابو خليفة ... هل لدغك الثعبان حقاً فى أرض التفتيش ... أو أنهم ... قتلوك ! ...

وحاول ... ظل يحاول أن يتماسك ! ...

....

ومن بعيد ، كانت الطيور البيضاء ، التى هربت فزعة من فوق الأشجار فى ساحة القلعة ، كانت – الآن – تحلق فى دائرة كبيرة تغطى الأفق ... وبصوت متوحد ، راحت تنادى الشمس لكى تعود فورا إلى الشروق ... وأن ترفض الأغلبية الصامتة « لعبة التخويف » ... حتى لا تفزعها طلقات

الغدر فى سكون الليل ... و ... حتى لا تهجر بقية الطيور أعشاشها وتترك صغارها محاصرة بالفزع المميت ! ...

همس وليد ، والحياة تنبض من جديد فى جسده الجريح :

– حتما يا عين حور ، حتما سيعود إليك الحب والعدل والسلام ... فأرواح الشهداء تحمل إلينا « النبوءة » التى تبدأ بك وتنتهى فيك يا نور القلب ونن العين ... حتما ستشل أيدى الذين يشوهون وجه الحياة فى ربوعك يا أمى ! ...

● **ملحوظة :**

... إلى هنا تنتهى أقوال شهود العيان : وليد – عبد الحق – و ... منصور ... الذين لم يصدقوا – مثل غيرهم – نبأ الإفراج عنهم عندما أبلغ إليهم فى أواخر [illegible] عام ١٩٧١ ... وقد ظلوا غير مصدقين حتى رأوا بأعينهم « الجعفرى » وهو يساق أمامهم للمحاكمة ... و ... عندما تخلصوا من دهشتهم وتساءلوا – لمجرد التأكد – :

– كيف حدثت المعجزة ... كيف جاء الخلاص ؟ ! ...

– وفى عام ١٩٧٣ حارب وعبر [illegible] وشارك فى تحرير سيناء

– وفى عام ١٩٨١ أعيد اعتقال فى حملة سبتمبر الشهيرة –

... ثم .. [illegible] تماما .. مات ! ،

« تمت »

[• كتبت هذه الرواية ٦٨–٦٩ ولم تنشر الا فى ١٩٧٥/٢/١٠ بسبب الرقابة !! ..]

رقم الإيداع ٨٢/٣٨٣٧
الترقيم الدولى ٤ – ٠٠٧ – ١٧٢ – ٩٧٧

دار غـريب للطباعة
١٢ شارع نوبار (لاظوغلى) القاهرة
ص ٠ ب ٥٨ (الدواوين) – تليفون : ٢٢٠٧٩